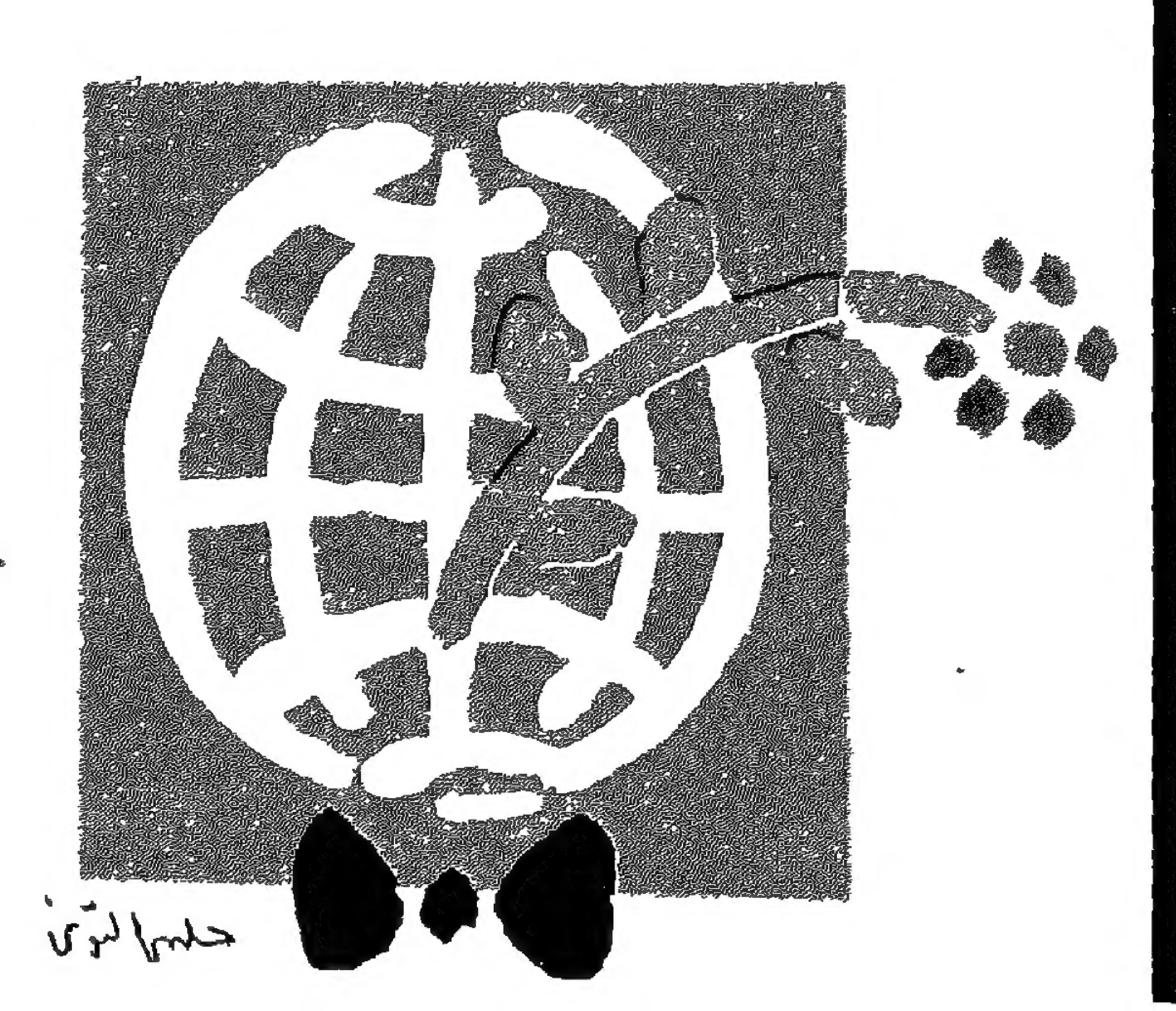
العالم بعيون دبلوماسي

السفير

د. محمود سمير أحمد





KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

عبدالحميد حمروش — نائب رئيس مجلس الإدارة

مركز الإدارة

دارالهلال ١٦ ش محمد عزالعرب. تليفون: ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

العدد ٥٤٤ ـ ذوالقعدة ـ ابريل ١٩٩٦ No-544-AP-1996

فاكس FAX-3625469

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

عادل عبدالصمد — سكرتير التحرير

أسعار بيع العدد فئة ٤٠٠ قرش

سوريا ١٣٠ ليرة ـ لبنان ٨٠٠٠ ليرة ـ الأردن ٣٠٠٠ فلس ـ الكويت ١٥٠٠ فلس ـ السعودية ١٥ ريالا

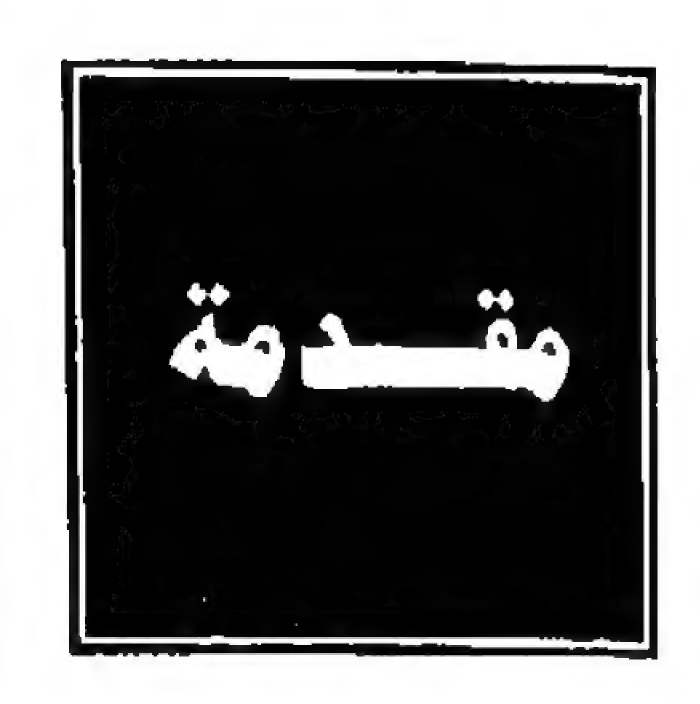
العالم بعيون دبلوماسى

بقلم السفير

د . محمود سمير أحمد

دار الهلال

الغــــلاف للفنـــــان
حلمـــــى التـــــونى



قدمت دار الهلال للجزء الأول من «حول العالم مع دبلوماسى مصرى»[1] فوصفت هذا العمل بأنه فريد فى بابه، طموح فى مقصده وغنى فى مادته مثلما هو طريف ومفيد فى قراءته .. وانه جمع ما بين أدب الرحلات وأدب السياسة فى أسلوب رشيق شيق مما اتاح للكاتب الدبلوماسي الأديب أن يغلف ملاحظاته وتقييمه وتأملاته لحضارات وثقافات وسياسات البلاد التى زارها فى غلاف أدبى سياحي وسياسي ممتع ولئن صح هذا الوصف بالنسبة للجزء الأول فقد تأكد وتعزز أكثر بالنسبة للجزء الثانى من كتابه وهو الذى نقدم له حاليا.

أما الجزء الأول فقد صحب القارىء عبر أسبانيا وتركيا وبعض بلدان البحر الأبيض المتوسط ومنها إلى الولايات المتحدة الأمريكية ثم إلى تونس . ثم منها إلى كولومبيا فالمكسيك من بلاد أمريكا الجنوبية.

ثم عاد منها إلى نيويورك ومنظمة الأمم المتحدة ثم إلى سويسرا حيث المقر الأوروبى للأمم المتحدة فى جنيف لمناقشة مشكلة نزع السلاح على ضفاف بحيرة ليمان .. خاتمة الجزء الأول.

---

(١) أنظر كتاب الهلال سبتمبر ١٩٩٣ .

ولقد اتاح الجزء الأول من الكتاب للقارىء متعة فكرية فريدة فى تمعن مقارنات الكاتب بين تركيا واسبانيا وعلاقة كل منها بالعرب وبالعروبة ، ومقارناته بين المكسيك ومصر، وتأملاته الدقيقة الفاحصة عن الحياة في أمريكا وسياسات الولايات المتحدة الداخلية والخارجية وعلاقاتها بمصر خاصة .. كما جاءت الفصول الفريدة الخاصة بتونس وكولومبيا والمكسيك من أمتع وأحدث ماكتب فى أدب الرحلات وادب السياسة عن تلك البلاد . أما الفصلان الخاصان بدبلوماسية التنظيم الدولى والأمم المتحدة ودبلوماسية نزع السلاح فقلَّ أن يجد القارىء في المكتبة العربية مثيلا لهما ، متعة وثقافة وفكرا .. وكانا خير خاتمة للجزء الأول .

ويسر دار الهلال أن تستكمل الجزء الثاني والأخير من «حول العالم مع دبلوماسى مصرى» وتستأنف رحلة القارىء فى صحبة كاتبنا الدبلوماسى الأديب . أولاً عبر تجربة مصر السياسية والدبلوماسية سنة ١٩٦٧ ثم عبر تجاربه السياحية والسياسية فى «بلاد الانجليز» ثم فوق قمم جبال الانديز الشاهقة وحضارة الاينكا فى بيرو بأمريكا الجنوبية ثم مرة أخرى إلى رحاب منظمة الأمم المتحدة في نيويورك . ثم ينتقل القارىء إلى زيارة «الايطاليين فى بلادهم» . ثم يصطحب الكاتب القارىء عبر تجربته الفنية كوكيل لوزارة الخارجية المصرية فى القاهرة حين تولى مسئولية الاشراف على سياسات مصر الافريقية وفي جولاته

فى القارة الافريقية الواسعة الممتدة وتأملاته فى شتى أحوالها المختلفة .. كما أن هناك فصلاً شيقا ومفيداً يشمل تجربة الكاتب كسفير لمصر فى أثيوبيا وكممثل دائم لدى منظمة الوحدة الافريقية ولدى اللجنة الاقتصادية لأفريقيا التابعة للأمم المتحدة ومقرها أديس ابابا (نيويورك افريقيا) ..

ثم يلى ذلك فصل شيق وممتع عن جولات الكاتب فى جزر فيجى ثم فى نيوزلانده وهونولولو وطوكيو وهونج كونج ومانيلا وبانكوك وسنغافورة أهم لآلئ الشرق الأقصى .. ويختتم الجزء الثانى فى استراليا .. «البلد السعيد» مثلما يلقبها الاستراليون .. بلد المستقبل .. حيث يختتم الكاتب رحلاته وتأملاته مع حياته الرسمية الدبلوماسية لبلوغه سن التقاعد فى نوفمبر ١٩٨٦ .

وسوف يجد القارىء فى فصول هذا الجزء الثاني والأخير متعة لا تعدلها سوى متعته من قراءة الجزء الأول .. وسوف يحتفظ القارىء فى مخيلته ، ردحاً طويلا بحصيلة تأملات الكاتب لا سيما فى الفصول الخاصة بانجلترا وايطاليا وأمريكا الجنوبية وافريقيا وأخيرا اثيوبيا واستراليا وطوكيو : فقد حوت الكثير من النواحى الانسانية ومن الجديد والفريد فى بابه : أدبا وثقافة وسياحة وسياسة.



التحقت بالسلك الدبلوماسي المصري في مايو ١٩٤٨ من أول الدرج: أي في وظيفة ملحق دبلوماسي . وكانت تقاليد وزارة الخارجية المصرية تقضي - ومازالت - بضرورة اجتياز المتقدمين لوظيفة ملحق دبلوماسي لامتحان مسابقة كتابي وشفوي . ولقد شرفت باني كنت أول الناجحين في امتحان مسابقة سنة ١٩٤٧ وتم تعييني وتسلمت عملي في مايو ١٩٤٨ في ديوان عام وزارة الخارجية في ميدان «الاسماعيلية» (التحرير حاليا) .. وقد عينت أول مرة في الخارج ملحقا في سفارة مصر في أنقرة عاصمة تركيا ومكثت بها من نوفمبر ١٩٤٨ حتى نوفمبر ١٩٥٠ . ثم نقلت بعد ذلك ملحقا في سفارة مصر في واشنطن عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية ومارست عملي بها من مارس ١٩٥١ حتى يوليو ١٩٥٦ . وإلى جانب عملي الرسمي بالسفارة من التاسعة صباحا وحتى الرابعة والنصف بعد الظهر استطعت قيد اسمي للدراسة للحصول على الماجستير في العلوم السياسية من الجامعة الامريكية في واشنطن وحصلت فعلاً على هذه الدرجة العلمية سنة ١٩٥٥ . وكان موضوع رسالة الماجستير العلاقات المصرية الامريكية ما بين عام ١٩٤٥ وعام ١٩٥٥ . وفي تلك الاثناء كنت رقيت سكرتيرا ثالثا ثم ثانيا .. ومن ثم عملت سكرتيرا ثانيا في سفارة مصر في تونس من يوليو سنة ١٩٥٦ وحتى نهاية ١٩٥٧ وكنت مكلفا بالشئون القنصلية والصحافة والشئون الاقتصادية بالسفارة .. وكان هذا أول عهد تونس بالسفارات الاجنبية

بعد أن نالت الاستقلال .. وبعد تمضيتي ردحا من الوقت بديوان عام وزارة الخارجية بالقاهرة كلفت بالتوجه إلى بوجوتا عاصمة جمهورية كولومبيا بأمريكا الجنوبية لافتتاح أول سفارة للجمهورية العربية المتحدة فى بوجوتا ..

وأمضيت ببوجوتا الفترة ما بين يوليو ١٩٥٨ ويوليو ١٩٥٩ ثم نقلتني الوزارة سكرتيرا أول بسفارة مصر فى مدينة المكسيك عاصمة الجمهورية المعروفة بنفس الاسم وأمضيت بالمكسيك عاما أو أقل قليلا حين فوجئت بنقلى مستشاراً ببعثة مصر الدائمة لدى الأمم المتحدة فى نيويورك .. وذلك فى صيف سنة ١٩٦٠ ..

وقد انتهزت هذه الفرصة فقيدت اسمي لنيل شهادة الدكتوراه فى العلوم السياسية فى جامعة كولومبيا الشهيرة فى نيويورك .وإلى جانب عبء العمل الثقيل بالأمم المتحدة كنت أجلس إلى اساتذتى بالجامعة فى ساعات الغذاء التى يبطل فيها العمل بالأمم المتحدة .. إلى أن تمكنت من اتمام مستلزمات التقدم لكتابة رسالة الدكتوراه ..

وقد أمضيت الفترة ما بين يوليو عام ١٩٦٠ ونهاية عام ١٩٦٢ وهى مدة عملى مستشاراً لوفد مصر الدائم لدى الأمم المتحدة بنويورك امضيتها موزعا ما بين نيويورك وجنيف حيث انتدبتنى الوزارة مستشاراً لوفد مصر لدى مؤتمر نزع السلاح (لجنة الثمانية عشر) فى جنيف بسويسرا .. واستمرت اقامتى فى جنيف لمدة ستة

شهور ذات مرة ، ولمدة تسعة شهور مرة أخرى .. ثم نقلت إلى ديوان عام وزارة الخارجية فى القاهرة مرة أخرى ..

وأمضيت الفترة من ديسمبر ١٩٦٣ إلى يونيو ١٩٦٥ بالقاهرة .. وتوليت فيها على التوالى منصب المستشار بادارة الهيئات الدولية، ثم مديراً لإدارة المعلومات ثم رئيساً لقسم الحصانات والامتيازات بالإدارة العامة للمراسم ، ثم مديراً لمكتب وكيل الوزارة المرحوم د . محمد حسن الزيات.

وهنـــا وصلتنى دعــوة شـــخصية من مركــز الشئون الدولية بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة لكى امضى سنة دراسية كاملة بالمركز المذكور بوصفى أحد الزملاء Fellows بالمركز .. وكانت هذه الدعــوة الشخصية مكافأة لى على حسن بلائى كمستشار وفد مصر لدى مؤتمر نزع الســـلاح سالف الذكر .. وقد وافقت الخارجية على قبـولى هـذه الدعوة الشخصية وأضافت مكرمة أخـــرى فانتدبتنى فى نفس الآونة مســتشاراً لبعثة مصر الدائمة لدى الأمم المتحدة فى نيويورك للمرة الثانية وكانت المرة الأولى مابين سنة ٦٠ و١٩٦٢ كما أسلفت .

وأثناء اقامتى فى مركز الشئون الدولية بجامعة هارفارد من سبتمبر ٦٥ إلى يونيو ٦٦ تمكنت من كتابة مؤلفين بالانجليزية : الدول غير المنحازة ومعاهدة وقف التجارب الذرية The non - oligned

and the test Ban Treaty . وكان يقع فى أكثر من ٢٥٠ صفحة واعتبرته ادارة المركز بمثابة رسالة للدكتوراه وأوصت بنشره .

وقد نشرته لي مؤسسة كارنيجى الدولية للسلام فى نيويورك بالاتفاق مع المركز The cornegie Endaument for peac .

والثانى : اشتراكية عبدالناصر العربية ومكانتها بين الايدلوجيات العالمية ويقع في حوالى ثلاثمائة صفحة Nossen's asale souia-lion to ploce in uorld saledages. وقد نشرته دار نشر بلاندفورد في بريطانيا تحت اسم الاشتراكية العربية بعد سنوات من ذلك كما نشرته دار نشر باربرا ediciones Barboro فى فنزويلا بالاسبانية فى أوائل السبعينات .

***

التحقت بالسلك الدبلوماسى سنة ١٩٤٨ كما سلفت الاشارة فى بداية الدرج .. ولم أصل إلى درجة «وزير مفوض» وهى التى تؤهل لرياسة بعثة دبلوماسية في الخارج الا سنة ١٩٧٠ أى بعد اثنين وعشرين عاما متواصلة من العمل الدبلوماسى الدوب ومن السفر والترحال (١) . وهنا بيت القصيد ففى فترة الاثنين والعشرين عاما هذه

---

(١) إذا أراد القارىء الاطلاع على تفاصيل هذه الفترة من حياتى الدبلوماسية، وهى الأولى من حياة السفير المتجول ، فيلتزم القارىء بالرجوع إلى مؤلفى «حول العالم مع دبلوماسي مصرى» : تأملات فى حضارات وسياسات بعض الدول «دار الهلال» كتاب الهلال فى سبتمبر ١٩٩٣ ، وهو يحوى تفاصيل فترة النضج والعطاء التالية، والاكثر أهمية، عند تولىّ رئاسة ست سفارات متتالية هى موضوع هذا المؤلف الحالى بين يدى القارىء .

تنقلت مثل السندباد البحرى ما بين عشر عواصم عالمية ودرست الماجستير والدكتوراه فى العلوم السياسية وتعلمت الاسبانية إلى جانب إلمامى السابق بالانجليزية والفرنسية وقليل من التركية ! وزرت عددا غفيرا من المدن والبلدان غير التى كانت مواقع عملى الدبلوماسى .. وليس هذا حالى وحدى إنما هو النموذج الشائع للكثرة الغالبة من السندباديين الدبلوماسيين .. وليست مرحلة الاعداد والتكوين الأولية سالفة الذكر هى موضوع هذا المؤلف وإن كانت مقدمة ضرورية لتقديم تجربتى كسفير متجول أو سندباد دبلوماسى بدرجة السفير وهو موضوع المؤلف الحالى .

وقد بدأت هذه التجربة القيمة بتولىّ منصب الوزير المفوض فى سفارة لندن من عام ٧٠ إلى عام ٧٣ ثم تولىّ منصب سفير مصر فى ليما عاصمة بيرو بأمريكا الجنوبية من ٧٣ – ١٩٧٥ ثم منصب السفير المندوب الدائم المناوب لدى الأمم المتحدة فى نيويورك ٧٥ – ١٩٧٦ .

ثم منصب سفير مصر فى ايطاليا وممثل مصر الدائم لدى منظمة الاغذية والزراعة فى روما من ١٩٧٦ – إلى ١٩٧٩ .

ثم منصب السفير / وكيل وزارة الخارجية المصرية ١٩٧٩ – ١٩٨١ ومشرفا على الشئون الافريقية ضمن مواضيع أخرى ثم منصب سفير مصر فى اثيوبيا وممثل مصر الدائم لدى منظمة الوحدة الافريقية

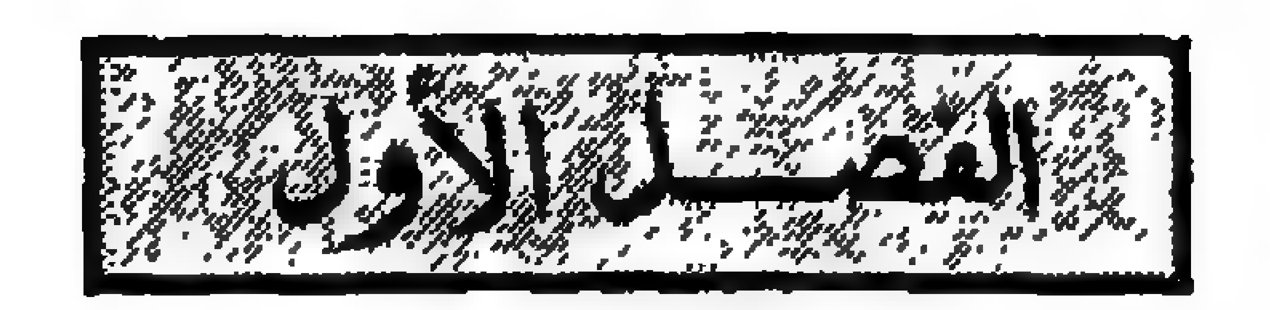
واللجنة الاقتصادية التابعة للأمم المتحدة والمعنية بشئون افريقيا ومقرها اديس ابابا ٨٢ – ١٩٨٤ .

ثم منصب سفير مصر فى استراليا وجزر فيجى من ١٩٨٤ – ١٩٨٦ حين بلغت سن التقاعد .

وفى المدة من ١٩٦٨ إلى ١٩٨٦ ، مثلها مثل فترة الاعداد والتكوين الأولية ، زرت عددا غفيرا من مدن وبلاد العالم بخلاف مقار مناصبى الدبلوماسية وجمعت حصادا يكاد يقارب حصاد السندباد البحرى الشهير لذة وطرافة وفائدة ..

ونلت قدرا وفيرا من الراحة النفسية ومن المكاسب والمنافع والفوائد: «سافر ففى الاسفار خمس فوائد» : على رأى المثل العربى الشهير . وددت هنا لو أمكننى مشاطرتها كلها مع القارىء العزيز .. فليس هناك أمتع من مغامرات وتجارب السندباد الدبلوماسى أو السفير المتجول ! ليس هناك امتع من خوض تجربة «السيد السفير» ربما سوى سرد وقائعها وتأمل وتحليل عواقبها .. والاستمتاع بذكرياتها.»

د . محمود سمير أحمد



مصر .. وفوهة البركان !

ها قد أمضيت ثمانية عشر عاما فى السلك الدبلوماسى المصرى ، متنقلا ما بين أنقره وواشنطن وتونس وبوجوتا ومدينة المكسيك وأخيرا نيويورك .. ثم بعد إتمامى لمدة خدمتى كمستشار لبعثتنا الدائمة فى نيويورك وفى الوقت نفسه كمستشار لوفد مصر فى مؤتمر نزع السلاح فى جنيف نقلت إلى القاهرة ووصلتها فى ديسمبر ١٩٦٣ . وأمضيت بالديوان العام لوزارة الخارجية كل عام ١٩٦٤ وحتى سبتمبر ١٩٦٥ . وقد أوكلت إلى المهام التالية على التوالى : مستشار بإدارة الهيئات الدولية وكنت مكلفا بمتابعة شئون نزع السلاح ضمن المسائل الأخرى ثم مدير لإدارة المعلومات والتقديرات التابعة للإدارة العامة للأبحاث بوزارة الخارجية ، ثم رئيس لقسم المزايا والحصانات بإدارة المراسم ، ثم مدير لمكتب الوكيل السفير د . محمد حسن الزيات حتى سبتمبر ١٩٦٥ حين سافرت إلى جامعة هارفارد كما سبقت (رحمه الله) الاشارة حيث أمضيت السنة الدراسية ٦٥/٦٦ كزميل Fellow بمركز الدراسات الدولية بجامعة هارفارد .. وكان هذا مدعاة لفخرى وسرورى فقد كنت أول مصرى ينال هذا التقدير والتشريف .

وقبل انتهـاء فتـرة هارفارد أى فى أبريل ٦٦ تلقيت برقية مفادها أنه تم تعيينى مستشارا لسفارة مصر فى نيودلهى عاصمة الهند .. لكنى فضلت البقـاء بالقاهرة حين عودتى إليها فى يوليو ١٩٦٦ إذ كانت هناك دواعى عائلية وشخصية تمنـع سـفرى إلى الهنـد .. ومن ثم أوكلت إلىّ الوزارة وظيفة نائب مدير المعهد الدبلوماسى لوزارة الخارجية وكان مديره فى تلك الفترة السفير (المرحوم) حافظ أبو الشـهود .. وكانت مهمتنـا اقامة المعهد وتأسيسه فلم يكن موجودا قبل ذلك .. وأصبح المعهد الدبلوماسى اليـوم مؤسسة علمية وسياسية مهمة ونشطة تشـرف على اعداد وتدريب الدبلوماسيين المبتدئين لمدة سنتين ، وكذلك على اعداد دراسات عالية متقدمة للدبلوماسيين الأقدم الآخرين فضلا عن اقامة المعهد لندوات دولية حول مختلف الموضوعات الدولية بالاشتراك مع المعاهد العلمية الشبيهة فى الدول الأخرى ..

وبعد مدة وجيزة قضيتها فى المعهد الدبلوماسى اتصل بى تليفونيا ذات يوم الوزير (السابق) الاستاذ محمد فائق وكان وقتها مديرا للشئون الافريقية برئاسة الجمهورية وعرض علىّ أن أعمل مساعدا له بطريق الندب من وزارة الخارجية فقبلت .

قبلت شاكرا لأنى سبق أن زاملت محمد فائق وعرفت أخلاقه وعهدته انسانا رقيقا دمثا ومهذبا للغاية وواسع الاطلاع بعيد النظرة ملما كل الالمام بدواعى وتطورات سياسات مصر الخارجية وبخاصة كل ما يعنى:

أفريقيا . وقد جمعتنى به مصادفة سعيدة فى ابريل سنة ١٩٥٨ حينما كنت أعمل بالوزارة مديرا لمكتب وكيل الخارجية السفير (المرحوم) صالح خليل فحين انعقد أول مؤتمر للدول الافريقية المستقلة فى اكرا عاصمة غانا بحضور مصر والسودان والمغرب وتونس واثيوبيا وليبريا وغانا طبعا ، رأس وفد مصر إلى ذلك المؤتمر المرحوم الدكتور محمود فوزى وزير الخارجية حينذاك .. وقد اختارنى د . محمود فوزى لكى أكون سكرتيره الفنى فى ذلك المؤتمر الذى انعقد لمدة سبعة أيام فى اكرا .. وكانت أكرا حديثة الاستقلال ولم يكن بها من فنادق مناسبة سوى فندق أمباسادور وعدد غرفه محدود ومن هنا فان الخارجية الغانيّة قررت اقامة كل عضوين اثنين من أعضاء الوفود فى غرفة واحدة .. وكانت درجتى متقاربة حينذاك مع درجة محمد فائق فانزلونا نحن الاثنين فى غرفة واحدة فى فندق امباسادور طوال مدة المؤتمر .. ومن هنا بدأت صداقتنا وامتد بنا حبل الود والاعجاب المتبادل بل وزاد قوة حين أصبحت مستشار وفدنا فى نيويورك (٠) وكان محمد فائق يحضر جزءا من دورة الأمم المتحدة فى نيويورك بصفته مسئول الشئون الافريقية فى رياسة الجمهورية .. وكان عبد الناصر كما هو معلوم شديد الاهتمام بافريقيا وكان نصير كل حركات التحرير بها ... ومازال أغلب زعماء افريقيا الذين عرفتهم يتحدثون بحب وولاء حتى اليوم عن عبد الناصر وعن محمد فائق اليد اليمنى لسياسة عبد الناصر الافريقية !!

إلا أنه بعد ذلك بأقل من أسبوعين عين محمد فائق وزيرا للارشاد القومى (الاعلام) .. فقلت لنفسى إن عرضه السابق بالعمل معه فى رياسة الجمهورية أصبح غير ذى موضوع .. إلا أنه أعاد الاتصال بى بعد تعيينه وزير الارشاد قائلا إن حاجته إلىّ أصبحت أشد وأقوى وعرض علىّ أن اكون المستشار السياسي لوزير الارشاد ندبا من وزارة الخارجية فقبلت ، وما لبثت وزارة الخارجية أن قبلت هى الأخرى وصدر قرار ندبى مستشارا لوزير الارشاد وعملت معه اذن لمدة عام أو أكثر قليلا من سبتمبر ٦٦ إلى ١٢ ديسمبر ١٩٦٧ ..

كان عملى فى البداية منصبا على جانب السياسة الخارجية أو السياسات الخارجية التى تعنى وزارة الإرشاد القومى إلا أن تطورات الأحداث داخل جهاز وزارة الارشاد وداخل الأجهزة الفنية الأخرى التى كان وزير الارشاد يشرف عليها مثل الاذاعة والتليفزيون ومصلحة الاستعلامات ، جعلت محمد فائق يضطر إلى الاستعانة بكل من وجده أهلا لثقته وجديرا بحمل الامانة وكنت واحدا منهم . فما لبث أن عهد إلىّ بالاشراف الكلى على جهاز الرقابة على المطبوعات من كتب إلى الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية .. كان هناك جهاز يتكون من أربعة أو خمسة جامعيين مهمتهم الاطلاع على كل المطبوعات قبل اجازة نشرها وصدورها .. وكانت تعليماتى إليهم ألاّ يلجئوا إلىّ طالبين رأيى الا فى القضايا المهمة أو المستعصية عليهم التى يرونها جديرة بالعرض على الوزير .. ولم أكن الجأ إلى ازعاج الوزير

الا فيما ندر وحين يتعذر عليّ أنا أيضا اتخاذ القرار المناسب .. وكان هذا الوضع يستلزم بقائى بالمكتب فى وزارة الارشاد إلى ساعات متقدمة من الصباح (الواحدة أو الثانية صباحا أحيانا أى إلى ما بعد موعد مثول الصحف للطبع) .. وأحيانا كان مكتب الرقابة يضطر إلى ازعاج أهـل منزلى تليفونيا حتى بعد مغادرتى المكتب وعودتى إلى المنزل .

كذلك وجدت نفسى منساقا رويدا رويدا من أجل ارضاء محمد فائق وعدم الاعتذار عن تلبية أى رجاء له اذ أنه يحتل منزلة خاصة فى قلبى ، وجدت نفسى منساقا الى حـل أو محـاولة حل مشاكل وخلافات موظفى الاذاعة والتليفـزيون والاستعلامات .. وباختصار انيطت الىّ – فعليا – إلى جانب مهـام مستشار الوزير للشئون السياسية الخارجية مهام مدير مكتـب الوزير فعليـا ... وكان ذراعى اليمين الاستاذ ابراهيم علام (السفير فى السويد ثم تونس) كما كان معنا أيضا الاستاذ بهجت الدسوقى (السفير فيما بعد فى كوريا الشمالية) وكان معنيا بالشئون الافريقية وبعض الشئون الادارية الأخرى فى مكتب الوزير .

كانت تجربة جديدة تماما بالنسبة إلىّ فهى بعيدة كل البعد عن جو وزارة الخارجية والسفارات والأمم المتحدة وعالم الدبلوماسيين ورجال السياسة .. وتعلمت فيها الكثير بل والكثير جدا .. لكنها كانت مهمة قاسية وصعبة للغاية .. لست أقصد مجرد السهر المتوالى ليلا للاشراف

على مكتب الرقابة وإنما عملية الرقابة ذاتها ومشاكل الصحفيين وعلاقاتهم بأجهزة الدولة المختلفة - بوليس ومباحث ومخابرات ورقابة ووزراء وأحزاب واتحاد اشتراكى وما إلى ذلك . هذا الجانب من العمل لم أكن قد اعتدته ولا ارتضيته لنفسى من قبل ولا يتفق بحال من الأحوال مع الاعداد الذهنى والنفسى لدبلوماسى مر بالتجارب والخبرات التى اكتسبتها .. ناهيك بالمشاكل الخاصة الحساسة أو العائلية الدقيقة التى ظهرت ولابد أن تظهر كل يوم فى أجهزة شبيهة بأجهزة الإذاعة والتليفزيون أو هيئة الاستعلامات بما فيها من آلاف السيدات والفتيات والرجال ..

كنت أرثى للوزير محمد فائق لضرورة خضوعه لكل تلك المؤثرات ولتحمله لكل هذه الأعباء أو أكثر .. كما إنه فيما يبدو بدأ يرثى لى ولحالى هو الآخر .. ورغم أنى لم أشكُ إليه مرة من المرات فإنه أراد أن يخفف عن نفسى قليلا فما أن لاحت فرصة ظهور ندوة وحلقة دراسية دولية فى المعهد العالى للدراسات الصحفية فى جامعة ستراسبورج بفرنسا لمدة شهرين أو ثلاثة فى مايو يونية يوليو ١٩٦٧ الا وأوفدنى إليها . خاصة وأنى كنت قد تلقيت دعوة شخصية لحضور مؤتمر للدبلوماسيين كان سيعقد فى مدينة Pisek قرب براج بتشيكو سلوفاكيا يناقش قضايا نزع السلاح فى نفس الآونة .. وقد طلب إلىّ المؤتمر القاء محاضرات أمام الحضور عن تجاربى الشخصية فى مؤتمرات نزع السلاح وآرائى بشأنها فقبلت .

سافرت في مايو ١٩٦٧ وحدى علي أن تلحق بى زوجتى فيما بعد .

حضرت ندوات جامعة ستراسبورج في المعهد العالى للصحافة ردحاً من الوقت إلى أن حان موعد لحاق زوجتى بي فاتجهت إلي باريس لانتظارها ..

وكان ذلك أول يونيو ١٩٦٧ .. كان الموقف يتطور بسرعة شديدة بين مصر وإسرائيل وكان الشعور القومى معبئا إلى أقصى درجة .. حتى أن زوجتى اتصلت بزميلى ومساعدى في مكتب الوزير محمد فائق : (السفير حاليا) الاستاذ ابراهيم علام تسأله إن كانت تسافر أم لا ؟ فأجابها بأنه سأل الوزير فقال إنه ليس هناك ما يمنع سفرها للحاق بى .. فاستقبلتها في باريس في ٢ يونيو ١٩٦٧ .. وأنبأتنى بأن الشعور العام في مصر أصبح مهيئا ومعبئا استعدادا للحرب إن وقعت .. فأجبتها على الفور «فال الله ولا فالك .. وأضفت أن رأيى أننا لسنا مستعدين للحرب وأنها ستكون مجازفة أو مخاطرة لا موجب لها .. وفى صبيحة يوم ٥ يونيو بينما كنا نتناول الافطار في غرفتنا بالفندق فى باريس استمعنا لنشرة الأنباء الصحفية على الراديو التى أذاعت نبأ بدء المعارك بين مصر وإسرائيل والغارات على القاهرة وما إلى ذلك مما يعلمه جيدا كل المصريين .. كنا نستعد للسفر إلى تشيكوسلوفاكيا حيث كنت قد دعيت لأحاضر أمام الدبلوماسيين من مختلف الدول في مؤتمر عن مباحثات نزع السلاح نظمته إحدي الهيئات العالمية .. وحرت فى أمرى هل أعود إلى القاهرة أم أمضى إلى المؤتمر ؟ .. فاتصلت بمصر

بزميلي الاستاذ ابراهيم علام أرجوه أن يسأل الوزير محمد فائق ماذا أفعل .. وكان رد محمد فائق أن مطار القاهرة مغلق على أي حال ولا يستطيع أحد العودة ويجب أن استمر فيما كنت بصدده ..

.. وما أن وصلنا إلى مقر المؤتمر في قرب Pisck قرب مدينة براج إلاّ وكانت المعارك قد أسفرت عن النتائج المعروفة لحرب الأيام الستة . كان أعضاء المؤتمر كلهم يقيمون بفندق ريفي واحد حيث يعقد المؤتمر .. وكان علينا أن نجلس معهم سويا حول مائدة الافطار ومائدة الغداء ومائدة العشاء ، ولم تكن زوجتي وأنا في حالة تتقبل بسهولة جو مؤتمر يسوده المرح والألفة .. فرأيت زوجتي والدموع تتساقط من عينيها في غرفتنا بالفندق تخبرني أنها سوف تبقى حبيسة غرفتنا ولا تشارك زوجات الدبلوماسيين جلساتهن أو برامجهن ولا تشهد أعمال المؤتمر .. لكنى اقنعتها وبلهجة حازمة أن مصر لم تكن أول أو آخر دولة هزمت فى الحرب . أنظرى إلى ألمانيا وإيطاليا واليابان إلى هزيمتهم فى الحرب وإلى ما صاروا إليه الآن (سنة ١٩٦٧) وهل لم تهزم بريطانيا وفرنسا وفقدتا معارك كثيرة من قبل ؟! بالعكس أن الواجب علينا أن نظهر أمامهم فى أبهى صورة رافعى الرأس وموفورى الكرامة وأن نشرح لهم قضيتنا ونقنعهم بوجهات نظرنا ..

فاقتنعت زوجتي .. وصرنا نشارك أعضاء المؤتمر جلساتهم ومأدبهم .. وكانت زوجات بعض الدبلوماسيين وبخاصة زوجة الدبلوماسى البريطانى أكثر السيدات رقة ورفقا بزوجتي ورافقت زوجتي فى جولات

ريفية وكان همها الواضح التسرية عنها .. وكان الكثيرون من أعضاء المؤتمر فى منتهى الرقة والأدب والتعاطف الواضح معنا وإن كانت هناك اقلية متعاطفة مع سرائيل .. لكن الفارق الكبير أو التغيير الأهم الذى طرأ على المؤتمر كان انتقال الحديث بأكمله من مشاكل «نزع السلاح» النظرية والبعيدة الأجل «إلى مشكلة الشرق الأوسط » الحقيقية الواقعة والحالية والماثلة أمام الجميع .. التف الجميع حولى «يسألوننى» عن نواعى المشكلة وأصولها وتطوراتها ومستقبل الحل» .. وبدلا من أن أحاضرهم فى نزع السلاح «ألقيت سلسلة من الأحاديث والمحاضرات عن قضيتنا وقضايا الشرق الأوسط .. وكانت وجهة نظرى التى شرحتها حينذاك – ومازالت حاليا وجهة نظرى – هى ضرورة الوصول إلى حل واحد شامل لجميع قضايا الشرق الأوسط دفعة واحدة اذ انه لن يمكن حل واحدة دون الأخريات .. والسلام الحقيقى هو نهاية الطريق فى ذلك الحل الشامل الموحد Packare .. أى فى مجموعة مترابطة .

... ولما انتهى المؤتمر عدنا إلى ستراسبورج لاستكمال مدة الحلقة الدراسية فى المعهد العالى للصحافة بجامعة ستراسبورج وكنا نقيم فى غرفة فى فندق سوفيتيل فى ميدان لطيف فى ستراسبورج التاريخية وكنت اركب الاتوبيس الى الجامعة صباحا ثم نتنزه فى شوارع ستراسبورج التاريخية الجميلة عصرا أو مساء.. وفى يوليو ١٩٦٧ وقبل انتهاء الندوة بأسابيع وبمجرد اعادة فتح مطار القاهرة وهدوء الحالة عدنا الى القاهرة فلم يكن مزاجنا يسمح بالمضى بالاستمتاع بجمال ستراسبورج .

واستأنفت عملي مع الوزير محمد فائق .. كنت اتابع تطورات عرض قضيتنا أمام مجلس الأمن فى نيويورك بصبر نافد وكنت أسارع باطلاع الوزير على آخر الأنباء الواردة على ماكينة التيكر أولا بأول .. وذات يوم دخلت عليه مهللا مستبشرا حاملا فى يدى ورقة التيكر الصفيرة ورحت أزف اليه بنبأ تقدم المجموعة اللاتينية بمشروع قرار مقتضب ومحدد - أمام مجلس الأمن - يقضى بانسحاب قوات المتحاربين (مصر واسرائيل) إلى الخطوط السابقة ليوم ٥ يونيو ١٩٦٧ فى مقابل انهاء حالة الحرب بينهما ، وكنت أتوقع أن يتهلل محمد فائق هو الآخر اذ أن ذلك كان يعنى الغاء اثار هزيمة قواتنا فى سيناء ، وحرمان اسرائيل من نتيجة غزوها لسيناء فى مقابل انهاء حالة الحرب بيننا كان هذا فى نظرى ثمنا زهيدا لاستعادتنا لسيناء لثانى مرة (الأولى كانت سنة ٥٦) دون عناء إلا أنى دهشت لرد محمد فائق إذ أخبرنى بأنه يعلم أن رئاسات مصر لا تقبل بتاتا بانهاء حالة الحرب مع اسرائيل في تلك الظروف اذ سيعنى ذلك تمتعها بحق المرور فى قناة السويس وهو ما لن يرضاه عبد الناصر ومضى يقول فى حماس واننا لابد أن نستمر فى كفاحنا حتى لو أدى إلى انسحاب قواتنا إلى الجبل فى أقاصى الصعيد، حتى لو اضطررنا للقتال بالعصى (النبابيت) .وهكذا رفضت مصر مشروع القرار اللاتينى .. وهكذا جمد الموقف وما لبثنا فى نهاية المطاف أن قبلنا مضطرين بعد ذلك بالقرار - ٢٤٢ الشهير الذى طالب اسرائيل بالانسحاب من «أراضى احتلتها » وليس

من «الأراضى التى احتلتها[1] (٠) وداخت مصر وداخ العالم معها الى سنة ١٩٧٩ بعد ذلك فى محاولة لتفسير ذلك القرار بما يعنى الانسحاب الكامل من سيناء وليس الانسحاب من بعض الأراضى التي احتلتها اسرائيل .. وأصرت الولايات المتحدة على أن يكون ذلك نتيجة المفاوضات المباشرة مع اسرائيل . وانهاء حالة الحرب معها .. وطبعا تمتعها بحق المرور في قناة السويس .. ولكن بعد أن انتظرنا اثنتى عشرة سنة كاملة واسرائيل جاثمة في سيناء !!

ظللت مع الوزير محمد فائق حتى ديسمبر ١٩٦٧ .. حين قررت مصر وبريطانيا اعادة العلاقات الدبلوماسية التى كانت قد قطعتها مصر منذ سنة ١٩٦٥ هى وثمانى دول افريقية أخرى احتجاجا على تخاذل موقف بريطانيا ازاء الـ UDI أى ازاء اعلان الأقلية العنصرية البيضاء استقلال روديسيا تحت قيادة تلك الأقلية العنصرية أى من جانب واحد !

وحين رأت مصر بعد احتلال اسرائيل لسيناء ومماطلتها فى الانسحاب وبممالأة الولايات المتحدة لها ، إنها فى حاجة لمساعدة بريطانيا وهى صاحبة مشروع القرار الذى أقره مجلس الأمن (٢٤٢) والذى وضعه مندوبها الدائم فى الأمم المتحدة لورد كارادون ويطالب اسرائيل فيه بالانسحاب من «أراضى احتلتها» الخ .. حين رأت مصر

---

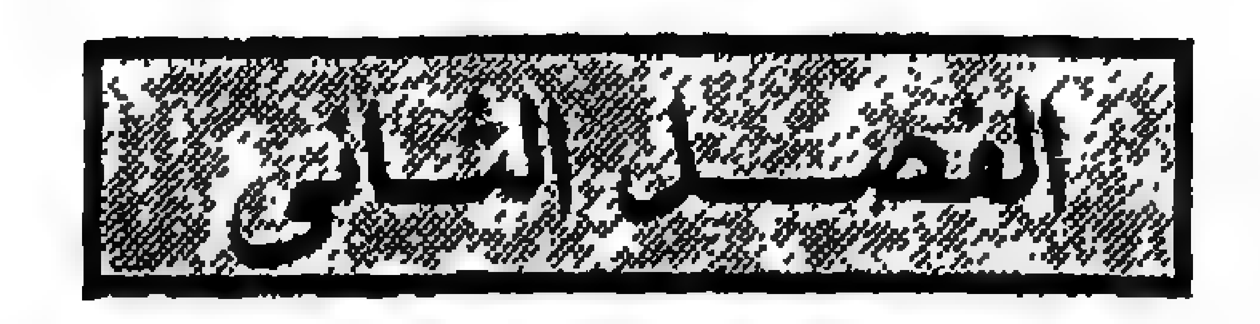
(١) الفقرة الأولى تعنى الانسحاب من بعض الأراضى فقط أما الثانية فتعنى الانسحاب من كل الأراضى التى احتلتها إسرائيل .

حاجتها إلى مساعدة بريطانيا وتأييدها قررت اعادة العلاقات الدبلوماسية معها .

وقد تم اختيار أعضاء سفارتنا في لندن على الوجه التالى : (المرحوم) السفير أحمد حسن الفقى وكيل أول وزارة الخارجية سفيرا أما الرجل الثانى فكان الوزير المفوض صلاح الدين حسن زميلى السابق فى واشنطن وأما مستشار السفارة فكان محمود سمير أحمد أى كاتب هذه السطور .

كان محمد فائق لاشك قد أحس بغربتى فى ذلك الموقع الغريب عن شخصيتى وطموحاتى وبحنينى إلى العودة إلى الجو الذى اعتدت العمل والتنفس فيه ، وحيث استطيع أن أضع كل كفاءاتى وتجاربى فى خدمة قضيتنا فى تلك الساعات العصيبة .. فلم يحاول اثنائى عن مقصدى الجديد بل سألنى أن أرشح له[1] من يخلفنى من دبلوماسى وزارة الخارجية فى المنصب الذى سيخلو بتعيينى فى لندن .. وقد رشحت له اسم الزميل المستشار (السفير الحالى) د . سمير صفوت سفير مصر فى باريس فيما بعد وهكذا بدأت استعداداتى للرحيل إلى لندن .

(١) كذلك سألنى محمد فائق أن أرشح له بعض الأسماء من دبلوماسى وزارة الخارجية لشغل منصب رئيس هيئة الاستعلامات والمتحدث الرسمى .. وكان على رأس الأسماء التى رشحتها له اسم المرحوم الدكتور محمد حسن الزيات الذى اختاره محمد فائق فعلا لذلك المنصب أيضا .. مثلما اختار د . سمير صفوت خلفا لى .



الانجليز فى بلادهم (١)

هذا العرش المبجل عرش الملوك of kings, This Royal throne

هذه الجزيرة التى تحمل عصا الملكية . This sce aceptred

,isle

أرض الجلالة مقر الإله مارس . This earth of majesty,

إلـه الحـــرب !! This seat of

Mars

جنة عدن الثانية أو شبيهة الجنة. This other eden, demi

paradise

هذا الحصن الذى أقامته الطبيعية This fortsress built Py Na-

ture for herself

لتتحصن فيه ضد العدوى وآثار الحروب Against in Fection

and the hand of war

---

(١) عنوان كتاب أصدره المغفور له حافظ عفيفى باشا بعد تجربته الخاصة كسفير لمصر فى لندن .

هذه السلالة السعيدة من الرجال This happy breed of men, this little world,

التى تمثل عالما صغيرا بأكمله !!

هذه الجوهرة الكريمة المصاغة داخل بحر من الفضة معها ..This Precious stone set in a silver

هذه المملكة ، انجلترا هذه الأرض ، This blessed plot, this earth, this

هذه المملكة انجلترا هذه (١) !! realm, This england

★★★

ما اكثر ما كتب عن بريطانيا والبريطانيين وما اكثر ما يمكن أن يكتب عنهم ! لكنى لست بمعرض تقديم كتاب كامل عنهم وإنما مجرد لمحات وبعض التأملات عنهم وعن بلادهم – لقد زرتها أول مرة عام ١٩٥٢ بعد زيارتى للولايات المتحدة وكم هالتنى مظاهر فقر بريطانيا وتعاستها بمقارنتها بالولايات المتحدة حينذاك ! ثم عدت للأقامة فيها ابتداء من ١٢ ديسمبر ١٩٦٧ حين أوفدتنى الوزارة للاسهام فى إعادة افتتاح سفارتنا بلندن ولم أكن أعلم ولا أتصور أنى سأبقى بها حتى سبتمبر ١٩٧٣. لكن هذا ما حدث .

كان أول انطباعى عند دخولى لندن قادما من مطـــــار هيثرو Heathrow فى ديسمبر ١٩٦٧ نوعا من الاحباط لرؤية الصفوف

---

(١) من مسرحية ريتشارد الثانى لوليام شكسبير الفصل الثانى (ترجمة كاتب هذه السطور)

المتراصة المملة من المنازل القديمة الملتصقة الواحد منها بالآخر وكلها تتشابه فى اللون والهيكل الخارجي .. أحياء طويلة ليس بها من مظاهر الغنى شىء وقديمة ليس بها شىء من التجديد أو الابداع الهندسى أو الجمال أو التنسيق .. ثم لماذا تكون لندن هى المخالفة لمعظم بلاد العالم فى إصرارها حتى الآن على القيادة على يسار الطريق وليس على يمينه؟! ومع ذلك فلون الحافلات (الأتوبيسات) الأحمر الفاقع اختيار مناسب بعض الشىء للتخفيف من وطأة كآبة وملل صفوف المنازل القديمة المتراصة وألوانها القاتمة وجو لندن المكفهر المظلم !

لكن سرعان ما تتبين العين أحياء أخرى جميلة منسقة عليها سمات الكبرياء والاصالة القديمة والعز التليد : فى كينسيجتون ونايتس بريدج وبارك لين وما يفير .. ثم يالجمال تلك الحدائق العامة : هايد بارك ، جرين بارك ، سانت جيمس بارك وخضرتها الجميلة النضرة من كثرة المطر ورطوبة الجو . يا لجمال تلك الاحياء السكنية الهادئة كيو جاردن - هامبستيد - سان جونزوود - سويس كوتيج الخ .. وسرعان ما تتحول كآبتي واحباطى بعد أسبوع من الزمن إلى الاستسلام رويدا رويدا لتأثير لندن النفسى المهدىء على الزائر . ولا يهم غياب الرشاقة والأناقة والتبرج فى تصميم وتخطيط المدن الانجليزية القديمة لا علينا أن لم تكن لندن مشابهة لباريس فى اناقتها وبهائها هناك شىء آخر بدلا من كل ذلك .. هناك مظاهر الكبرياء والأصالة والنبل التى تكسو بعض الأحياء الراقية فى المدينة .. حقا هناك احياء مملة كئيبة قديمة

تحف باطارات المدينة (لندن) وبخاصة احيائها الشرقية والجنوبية .. لكنها كبرياء الانجليز وتمسكهم بالقديم وعدم هرولتهم وراء كل ما هو جديد سواء فى ملبسهم أو سياراتهم .. ولماذا لا يكون ذلك أيضا فى تخطيطهم السابق للاحياء القديمة من مدنهم ؟!

ثم هناك ذلك الاطمئنان أو الاحساس بالأمن والراحة التى يشعر بها الغريب فى لندن ومدن بريطانيا .. يداخله إحساس غريب بالأمن والاطمئنان إلى قوة القانون The rule of law (رغم أن جنود البوليس فى لندن لا يحملون أسلحة) وإلى احترام الانجليز النظام والقانون وللغريب .. (فيما عدا مظاهر التبدل التى طرأت على فئات من شباب بريطانيا وأوروبا كلها) [1] وهناك فيما عدا ذلك الاعجاب بما جمعت لندن من مظاهر الحضارة القديمة المتأصلة والثقافة الضاربة بجذورها إلى أعماق التاريخ .. كل تلك المتاحف والمكتبات العامة الضخمة (تضم أكبر مجموعة من الآثار المصرية القديمة وبها مكتبة من أكبر مكاتب العالم · (مكتبة المتحف البريطانى) والقصور النبيلة الرائعة ، والكاتدرائيات والكنائس ومبنى البرلمان وساعة بيج بن والمسارح وقاعات الموسيقى والمتاجر ذات الشهرة الضخمة أمثال محلات (هارودز ليبرتى

---

(١) فى زياراتى اللاحقة لبريطانيا ساءنى أن أجد بعض التغيرات التى تسيىء إلى الصورة السابقة لانجلترا : مستوى النظافة قد قل عما قبل ، والتزاحم على ركوب المترو لم يكن موجودا من قبل واحترام السيارات لمناطق عبور المشاه لم يعد التزاما لا يحيد عنه السائق مثلما فى (القديم وأصبح المجتمع أكثر مادية وقسوة ..)

– ودافيد جونز – هارفى نيكولز – سيلفر يدج) مما جعل لندن مهبط ملايين السياح من شتى أركان العالم سنويا .. وإن ننسى فلا يجب أن ننسى انتظام المرور واحترام البريطانيين لقواعده فى الغالب الأعم . ومترو الأنفاق فى لندن قديم ولاشك ، أقدم من مترو باريس ونيويورك ولكنه منتظم ورخيص وآمن ويحملك من أدنى أرجاء لندن إلى أقصى أركانها أى مسافة خمسين أو ستين كيلو مترا فى نصف ساعة على الأكثر ..

إلى جانب أصالة ونبل مدن بريطانيا الكبرى مثل لندن وادنبره ومانشستر وليفربول هناك مدنها التاريخية القديمة رائعة الجمال شديدة الأصالة أمثال كمبردج وأوكسفورد وواريك وبات واكستر وستراتفورد على نهر الأفون (مدينة شكسبير) .. وهناك الريف البريطانى المهدئ للأعصاب بوفرة خضرته ونضارتها وبعده عن التطرف والأناقة المصطنعة وقربه إلى الطبيعة أو الطبيعية كما يفهمها الانجليز ..

لاشك لدىَّ أن لبريطانيا – مدنها وريفها – طابعها المميز والذى يخالف كل ما رأيته فى أوروبا وهذا الطابع البريطانى المميز قد لا يستهويك أو يؤثر فيك لأول وهلة ولكنه ينفذ إلى أعماقك رويدا رويدا ويستولى على قلبك فى النهاية بما يحويه من صفات الهدوء والصفاء والراحة النفسية والاطمئنان ..

بريطانيا ، هذه الجوهرة الكريمة المصاغة فى بحر من الفضة ، هذه الجزيرة التى حملت عصا الملكية (١) تقع فى الشمال الغربى للقارة الأوروبية ويفصلها عن تلك القارة بحر الشمال ، (يفصلها عن النرويج والدانمارك وهولندا وبلجيكا) كما يفصلها القنال البريطانى عن سواحل فرنسا الشمالية الغربية . وتتكون تلك الجزر من الجزيرة الكبرى التى تضم اسكتلندا فى الشمال وجوها بارد وريحها كثيرة ويليها جنوبا منطقة شمال انجلترا ثم وسطها The Midlands ومنطقة البحيرات الجميلة The Lake District ثم انجلترا جنوبا وهى أكثر دفئا لاسيما على الساحل الغربى والجنوبى (٠) وتقع ويلز فى غرب انجلترا على بحر ايرلندا وهى أكثر دفئا من انجلترا وهناك الجزيرة الأصغر غرب الأولى، ويفصلها عنها بحر ايرلندا التى تضم جمهورية ايرلندا فى الجنوب ، ومنطقة ايرلندا الشمالية التى هى جزء من المملكة المتحدة بريطانيا وايرلندا الشمالية .. (وكانت كل ايرلندا تابعة لبريطانيا إلى حين نوال جمهورية ايرلندا لاستقلالها بعد حرب تحرير عنيفة انتهت بالاستقلال سنة ١٩٢٢) .

وبريطانيا ليست غنية زراعيا مثل فرنسا مثلا ، بل هى تستورد ستين بالمائة من احتياجاتها من الخارج وربما كان هذا أحد دوافع توسعها الاستعمارى فى الماضى .. كما كان أحد دوافعها وحوافزها

---

(١) شكسبير ، ريتشارد الثانى ، الفصل الثانى .

على سرعة التصنيع فان الثورة الصناعية الأوربية بدأت في بريطانيا في القرن الثامن عشر قبل أي دولة أوروبية أخرى ..

وكان من فوائد موقع بريطانيا الجزرى إنه حماها من عدوان نابليون في مطلع القرن التاسع عشر رغم إنه اكتسح كل أوروبا فيما عدا بريطانيا - كما حماها من اكتساح جيوش ودبابات هتلر لبريطانيا مثلما فعلت في بقية أوروبا في الحرب العالمية الثانية سنة ٣٩ - ١٩٤٥ .. وكذلك الحال منذ أيام شكسبير (القرن السادس عشر) فقد رأى شاعر الانجليز الأشهر أن في موقع بلاده الجزرى «هذا الحصن الذى أقامته الطبيعة لنفسها لتتحصن فيه ضد العدوى وآثار الحروب (١) !!

لكن الواقع أن موقع بريطانيا الجزرى لم يمنع السلاسل المتصلة من الغزاة عن اجتياحها قبل نابليون وقبل هتلر .. وتاريخ بريطانيا المضطرب بل الدموى لأبلغ دليل على ذلك .. فقد سكنها من القرن الثلاثين قبل الميلاد قوم من الكلت Celts لا يعرف أصلهم على وجه الدقة وإن كانت بعض النظريات تقول بهجرتهم من شمال أفريقيا عبر أسبانيا ومازالت لغتهم تحمل آثارا لها في لغة اسكتلندا وويلز وفي يرلندا .. ثم غزتها جحافل يوليوس قيصر الرومانية ما بين ٤٣ - ٨٣

---

(١) شكسبير ريتشارد الثاني ، الفصل الثاني .

قبل الميلاد ومازالت ببريطانيا بعض الآثار الرومانية : كبارى وطرق وحمامات وبخاصة فى مدينة Bath غرب لندن وانحسر الغزو الرومانى فى القرن الخامس الميلادى للدفاع عن روما ذاتها ضد البرابرة من شعوب الجرمانيين وتلا ذلك فى القرنين السابع والثامن الميلاديين وقوع بريطانيا فريسة لغزو القبائل الجرمانية : السكسون والانجلز والقوط . وانتشرت المسيحية فى بريطانيا فى القرن الثامن الميلادى على أيدى الرهبان البندكتيين Bendict, .

ثم ما لبث الدانمركيون أن غزوا انجلترا ووصلوا لندن فى القرن التاسع بعد الميلاد واستتب لهم المقام (بعد قرن من القتال المستمر) فى القرن الحادى عشر ، لكن ما لبث أن غزى وليام الفاتح ومعه جيش من النورمانديين «Normans» بريطانيا (من فرنسا) سنة ١٠٦٦ وضم انجلترا إلى فرنسا وأصبحتا دولة واحدة .. وما لبث أن أخضع أيضا ويلز وايرلندا فى مملكة واحدة ضمت كل ما سلف ذكره .



ومع ذلك لم يستمتع شعب انجلترا بالاستقرار حتى بعد ذلك - فقد حاولت الممتلكات الفرنسية الانفصال عن الملك ريتشارد قلب الأسد - ١١٨٩ - ١١٩٩ - وقامت ثورة النبلاء ضد الملك المستبد سنة ١٢١٥ وحصلوا منه على الميثاق الأعظم Magna Carta والذى حد

كثيرا من سلطة الملك . ثم قامت حرب المائة عام ما بين الملك فى انجلترا والثائرين عليه فى ممتلكاته بفرنسا واستمرت من ١٣٣٧ ولمدة قرن كامل..

وتبع ذلك ثورة الفلاحين (بزعامة دات تايلر) وانتشار الطاعون وحدوث ردة دينية بزعامة Wycliffe ثم حدثت ثورة فى ايرلنده كل ذلك أثناء حكم ريتشارد الثانى الذى قال شكسبير فى مسرحيته سالفة الذكر أن الانجليز (فى عهده) كانوا سلالة سعيدة من الرجال !! ورغم بلاغة وجمال شعر شكسبير فإنى لم أر فى هذا السرد عن أحداث البريطانيين ما يدل على سعادتهم . !!

واستمرت الحرب سجالا بين انجلترا وفرنسا .. فبعد معركة ازينكور سنة ١٤١٥ استعاد ملك انجلترا هنرى الخامس سيطرته على نصف مساحة فرنسا .. لكن هنرى السادس فقدها من جديد .. ثم قامت حرب أهلية فى بريطانيا : «حرب الوردتين» ما بين عائلة لانكاستر وعائلة يورك من ١٤٥٠ إلى ١٤٨٥ واختلف الملك هنرى الثامن مع بابا روما وانفصل ببريطانيا عن الكاثوليكية وأعلن نفسه رئيسا للكنيسة الانجليكية سنة ١٥٣٤ وهكذا انتشرت البروتستانتية فى بريطانيا .. وحققت وريثته اليزابث الأولى انتصارا بحريا حاسما على أسبانيا سنة ١٥٨٨ بتدميرها الارمادا الأسبانية التى قيل إنها لا تهزم قط ومن هذه السنة تأكدت سيطرة بريطانيا البحرية واستمرت سيدة البحار بلا

منازع حتى نهاية الحرب العالمية الثانية !! أى طوال أربعة قرون عززت من سيادة بريطانيا الاقتصادية والتجارية فى العالم وجعلت لها أمبراطورية لا تغرب عنها الشمس أبدا .. ولكن هذا لم يمنع من استمرار الغليان والثورات والحروب الأهلية داخليا .. فقد قامت ثورة البرلمانيين ضد استبداد الملك وتم إعدام الملك شارل الأول سنة ١٦٤٩ على يد كروموبل الرجل الحديدى الذى أخضع الكاثوليك فى ايرلندا واسكتلندا لحكمه بالنار والحديد .. وتبع ذلك نصف قرن من الشد والجذب بين الملوك والبرلمانيين إلى أن نال الأخيرون «إعلان الحقوق» سنة ١٦٨٩ الذى ضمن الحريات المعتادة وقوى من شوكة البرلمان ومن نفوذ البروتستانتيين .. ورأى مطلع القرن الثامن عشر الحرب مرة أخرى بين انجلترا وأسبانيا (حرب الوراثة الأسبانية) والتى انتقلت فيها السيطرة على جبل طارق من اسبانيا إلى بريطانيا ..

وتبعتها حرب الأعوام السبعة مع فرنسا وبمقتضاها نالت انجلترا السيطرة على كندا والهند سنة ١٧٦٣ وأصبحت بريطانيا بفضل سبقها العالم إلى الثورة الصناعية الدولة صاحبة السيادة العالمية المطلقة عسكريا واقتصاديا . وتأكد ذلك بعد انتصارها على نابليون فى واترلو سنة ١٨١٥ (٠) وتأكدت الاصلاحات الاجتماعية فى قوانين سنة ١٨٣٢ - ١٨٣٧ الاصلاحية الاجتماعية . وفى عهد الملكة فكتوريا أكدت

بريطانيا سيطرتها العالمية من جديد بعد حروب القرم (١) ١٨٥٤ - ١٨٥٦ فى حين بدأت تظهر قوة الطبقة المتوسطة فى بريطانيا وبعد ١٨٣١ بدأت تظهر أول بوادر قوة النقابات العمالية . وأصبحت فكتوريا امبراطورة الهند سنة ١٨٧٦ .

وغزت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢ ثم غزت السودان ودخلت حرب البوير فى جنوب افريقيا سنة ١٨٩٩ - سنة ١٩٠٢ ثم فاجأتها الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ - ١٩١٨ وخرجت منها بريطانيا منهكة القوى اقتصاديا فانتهزت ايرلندا الفرصة لتنسلخ ايرلندا الجنوبية عن بريطانيا .. ولتنال كل من مصر والعراق استقلالهما .

ولم تكد بريطانيا تلتقط أنفاسها حتى بدأ نجم هتلر فى الظهور إلى أن قامت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ .. ولم ينقذ بريطانيا فيها من الهزيمة سوى «سنوات العرق والدم والدموع» (٢) ودخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانبها فقد فقدت بريطانيا هيبتها الامبراطورية فى آسيا على يد اليابان التى انتزعت منها كل ممتلكاتها الأسيوية شرقى الهند وخرجت بريطانيا من الحرب العالمية الثانية منهكة مثخنة بالجراح

---

(١) حروب القرم Crimean War فى شبه جزيرة القرم فى روسيا .

(٢) اقتباس من إحدى خطب تشرشل الشهيرة فى مطلع الحرب العالمية الثانية والتى وعد فيها البريطانيين بالنصر لكن بعد سنوات من العرق والدماء والدموع

قد فقدت أيضا إلى جانب هذا مكانتها كالدولة الأقوى والأكثر نفوذا وكان هذا ايذانا بتفكك امبراطوريتها باستقلال الهند وباكستان وبورما ثم ممتلكاتها الافريقية ..

إلا أن بريطانيا ارتكبت بعد ذلك سنة ١٩٥٦ حماقة «حرب السويس» التي كشفت للعالم أجمع عن ضعفها وتبعيتها للولايات المتحدة في عالم السياسة الخارجية ودقت آخر مسمار في نعش امبراطوريتها .. ومع ذلك لم تكن هذه آخر الحروب التي اشتركت فيها بريطانيا فقد اضطرت لاثبات مكانتها كدولة من دول الصدارة للدفاع عن ممتلكاتها في جزر فوكلاند ازاء هجمة الارجنتين واستيلائها عليها سنة ١٩٨٢ .. لكن انتصار بريطانيا في فوكلاند كان بفضل تأييد الولايات المتحدة ومساعدتها لها وإلا لما تمكنت من هزيمة الارجنتين في ميدان قتال يبعد عن بريطانيا عشرة آلاف من الأميال ..

هذه لمحات سريعة جدا عن تاريخ بريطانيا أو البريطانيين ، وهو أبعد ما يكون التاريخ عن خلق «سلالة سعيدة من الرجال» (١) بل أنه

---

(١) في استفتاء عقدته هيئة هاريس Harris لسنة ١٩٨٨ أجمع معظم البريطانيين أن بلدهم أصبحت أكثر ثراء عن ذي قبل لكن الغالبية (أربعة ضد واحد) تعتقد أن بريطانيا أصبحت أكثر أنانية عن ذي قبل وأجمع ثلثا المستفتين على أن بريطانيا أصبحت أكثر تعاسة وأقل سعادة عن ذي قبل !!

تاريخ أمة طحنتها الحروب وعركتها المعارك والتجارب والمحن .. لكنه أيضا ذلك النوع من التجارب والمعارك والمحن التى قد تصهر الشعوب وقد تظهر أحسن معادنها وتقوى من عزيمتها ..

يتردد دائما مثل شائع يقول أن الانجليز أمة من التجار ولعل أصحاب هذه المقولة كانوا من شعوب أخرى كانت تحسد البريطانيين على تفوقهم وسيطرتهم فى ميدان التجارة العالمية فقد دفعتهم طبوغرافيتهم إلى السعى وراء التجارة الخارجية لاستكمال النقص (٦٠ - ٧٠٪) فيما يستهلكون من الغذاء محليا ومما ساعدهم على بسط نفوذهم التجارى هو تأكيد سيادتهم البحرية فى وقت لم يكن هناك فيه منافس بحرى فى نفس قوة بريطانيا .. لكن إذا شئنا الدقة فاننا نقول بأن الجو الرطب البارد إلى جانب الطبيعة جعلتا من بريطانيا فى أغلب مناطقها وبخاصة شمال انجلترا واسكتلندا سلسلة من المراعى الصالحة لرعى الأبقار والأغنام أكثر من صلاحيتها للزراعة .. ومن هنا فان البريطانيين كانوا بصفة عامة قوما رعاة أكثر منهم تجارا أو مزارعين ..

ومع ذلك فان الكثافة السكانية فى بريطانيا - والتى تبلغ أكثر من ضعف مثيلتها فى فرنسا - دفعت نسبة كبيرة من البريطانيين إلى سكنى المدن وهجران الريف .. كذلك كانت قسوة الطبيعة والمناخ سببا

كبيرا فى خلق سلاسل متصلة من الهجرات من بريطانيا وايرلندا ابتداء من القرن السادس عشر إلى أمريكا وكندا واستراليا ونيوزيلاندا .. الأسس التاريخية للامبراطورية ..

كذلك هناك مقولة أخرى شائعة تتحدث عن برود أعصاب الانجليز .. British Phlegm وهى مقولة صحيحة إلى حد كبير ولعل سببها أيضا برود الجو ورطوبته مما جعلت الانجليزى العادى لا يرى أية غرابة فى تقبل المكاره ومنها سوء الجو والمطر المتساقط المستمر ، وكل ما هناك أنه اعتاد أن يفتح شمسيته عندما يتساقط المطر ، كما اعتاد أن يحمل شمسيته معه باستمرار استعدادا للطوارئ .. والواقع أن برود أعصاب الانجليزى يخفى وراءه أو إلى جانبه أيضا نوعا من الخجل والتردد والحذر هو أيضا نتاج تلك الطبيعة .. وقد أدت تلك الصفات إلى مقولة ثالثة .. صحيحة هي الأخرى – تقول بأن الانجليزى لا يتدخل فى مالا يعنيه ولا ينظر بعينيه أو يستمع بأذنيه إلى ما يدور داخل جدران منزل جاره أو جيرانه وهو أيضا سبب المقولة الرابعة بأن منزل الرجل البريطانى هو حصنه الحصين يحميه من غائلة التنصت أو التطفل أو اجتراء الغير An Englishman's home is his castle .

وتجمع تجاربى الشخصية وتجارب زوجتى على أن البريطانى مهذب (فيما عدا ما أفسدته السنوات الأخيرة فى أخلاق بعض الشبان) رقيق

الشعور يمد يده لمساعدة الغرباء .. أذكر أنه فى الخمسينات كنا نزور سفيرنا فى لندن ولم نكن ملمين بتفاصيل شوارعها جيدا بعد – وعند خروجنا من السفارة وقفنا فى أحد الشوارع نفتح خريطة لندن لنستدل على الاتجاه الصحيح فإذا بسيد بريطانى وقور يتوقف أمامنا دون أن نسأله شيئا ويعرض خدماته ليدلنا على الاتجاه المطلوب .. وذات مرة كانت زوجتى على موعد وخرجت تبحث عن سيارة أجرة تأخذها إلى موعدها فوجدت تاكسيا واقفا على ناصية أحد الشوارع فلما همت بركوب التاكسى قال لها بأدب أنا فى انتظار جماعة بهذا المنزل .. إذا كنت تريدين سيارة أجرة فانى سأطلب لك واحدة .. وهرع إلى ناصية الشارع واستوقف سيارة أجرة كانت مارة وأتى بها إلى حيث زوجتى ..

وذات مرة كنا نركب القطار من مطار جاتويك إلى لندن وكنا نتحدث أنا وزوجتى بصوت خافت باللغة العربية ، وكان معنا فى المقصورة رجل بريطانى وقور ومهذب فلما وصلنا محطة لندن سارع بانزال إحدى حقائبنا من على الرف مساعدة لى ، كما فتح باب المقصورة لزوجتى وسألها بأدب إن كانت تريد تاكسيا فانه مستعد ليسبقنا ويأتى به .. كل ذلك دون أن نعرفه ودون أن نتبادل كلمة واحدة أثناء سير القطار ودون أن يعرف جنسيتنا ولا شخصيتنا .

الأكثر من ذلك أننا عندما وصلنا لندن في ديسمبر ١٩٦٧ لإعادة افتتاح سفارتنا بها وكانت مصر قد اقفلتها عند قطعها العلاقات مع بريطانيا سنة ١٩٦٥ ، كنا قد وصلنا لندن بعد حرب الأيام الستة وفي ظروف قاسية للغاية فعبدالناصر لم يكن صديقا لبريطانيا ولا الغرب .. كان قد قطع العلاقات مع بريطانيا سنة ٦٥ وتحدى الغرب عدة مرات في مواقف كثيرة معروفة ، ثم حلت به الهزيمة في سنة ١٩٦٧ واحتلت سيناء المصرية نتيجة اقفال عبدالناصر المضايق .. ووصلنا لندن - وافتتحنا سفارتنا بها وبدأنا اتصالاتنا برجالات وزارة الخارجية البريطانية والشعب البريطاني ورجال البرلمان والصحفيين .. ذهبنا إليهم نطلب مساعدتهم لمصر لزحزحة اسرائيل عن سيناء ولزحزحة الولايات المتحدة عن عنادها وإصرارها على قيام المفاوضات المباشرة مع اسرائيل .. وطوال مدة اقامتي في بريطانيا لم أسمع كلمة شماتة أو تشفي واحدة من بريطاني أو بريطانية من مختلف الأحزاب بل وجدت منهم أدبا ومودة وتعاطفا من الكثيرين .. اللهم إلا مثلا واحدا سيأتي ذكره .. ولا أنسى يوم وصل السفير أحمد حسن الفقي بعدنا وذهب لمقابلة لورد جورج براون وزير الخارجية لحكومة العمال لتقديم صورة من أوراق اعتماده إليه ولم يكن أحمد حسن الفقي يعرفه من قبل .. فقد كنت معه في المقابلة .. لقد خرج جورج براون وزير خارجية بريطانيا عشرة أمتار خارج جناحه في الوزارة ليستقبل أحمد حسن الفقي في

الممر الخارجي واستقبله بالعناق الحار والترحاب وصحبه إلي غرفته وهو يحتضن كتفيه صائحا أهلا بك يا جنرال أهلا بك يا سيادة السفير !

ولكي أكون صادقا فإن المرة الوحيدة التي سمعنا فيها ما قد يظهر شيئا من التشفي أو النقد كانت في قصر باكنجهام مقر ملكة بريطانيا .. ففي إحدى الاحتفالات الرسمية التي تقام للسلك الدبلوماسي الأجنبي وحضرها كل السفراء وسبعة أعضاء من كل سفارة لتقديمهم إلى أفراد العائلة المالكة البريطانية، اصطففنا وراء المرحوم السفير أحمد حسن الفقي وزوجته ، ومرت الملكة اليزابث ومدت يدها إلى السفير وزوجته محية إياهم بأدبها ولطفها ورقتها المعهودة أما زوجها الأمير فيليب فمعروف عنه صراحته وحدة لسانه وميله للنقد اللاذع مع كل الناس فلما وصل أمام أحمد حسن الفقي مد يده مصافحا وسأله أين كنت قبل لندن فأجابه السفير كنت وكيلا لوزارة الخارجية، فسأله الأمير فيليب وقبل ذلك؟ ثم وقبل ذلك؟ ثم وقبل ذلك؟ إلى أن أضطر أحمد حسن الفقي إلى القول أخيرا بأنه كان «جنرالا في الجيش».. ومن الواضح أن الأمير فيليب كان يعلم ذلك وكل ما أراده من وراء استفساراته الكثيرة هو أن يعترف له السفير بأنه كان ضابطا في الجيش قبل أن يدخل الدبلوماسية فلما أخبره أحمد حسن الفقي بذلك ابتسم الأمير فيليب مرتاحا آخر الأمر وسأل أحمد حسن الفقي: وهل تعامل سفارتك على أنها أورطة من الجيش !? D you keep them well dis ciplined

سأله هذا السؤال الأخير وهو يؤدى التحية العسكرية !! وانصرف الأمير ليحيي السفارة الأخرى التالية وهو يتضاحك ، وترك أحمد حسن الفقى وقد عقدت الدهشة لسانه ..

وذات مـرة كنت أنا قائما بالأعمـال للسفارة (سفارة الجمهورية العربية المتحـدة) فى لندن أثناء غياب السفير سنة ١٩٧١ وكنت قد رقيـت إلى درجـة وزير مفوض وأصبحت الرجل الثانى بالسفارة ورأست أنا هيئة سفارتنا عند تقديمها إلى الملكة والأمير فيليب فى إحـدى احتفالات القصـر أيضـا .. فلمـا وصـل إلى حيث وقفت هيئـة سفارتنا قدمنا إليه أحد موظفى المراسم سفارة ج م ع والسيد القائم بأعمالها .. فتقـدم إلى الأمير فيليب مصافحا وسألنى مرة أخـرى عن اسـم سفارتنا فأجبته سفارة الجمهورية العربية المتحدة .. فسألنى على الفور «متحدة مع من ؟ وكانت سوريا قد انفصلت عن الوحدة .. فلم أجد جوابا .. وقدمت إليه بقيـة أعضاء السفارة ومنهم قنصلها وكان السيد د. حمدى الطاهرى .. فسأله الأمير فيليب أنت القنصل ؟ (وهل تتعامل مع السكان الأصليين من البريطانيين ؟!) .

Do you deal with the Natives ?

Do the Natives treat your well ?!!

وكلمة Natives لا تقال إلا عن السكان المحليين فى المستعمرات

أى الشعوب المغلوبة على أمرها .. ومن ثم فإن فى استعمال الأمير فيليب لهذه الكلمة للاشارة إلى البريطانيين منتهى السخرية إذ أنه يقصد قلب الأوضاع !!

كان هذا كما أسلفت ، الاستثناء الوحيد بين مئات الأدلة الأخرى الدالة على صحة تصرفات الانجليز معنا ورقة شعورهم وارتفاعهم عن التشفي الرخيص . كذلك تحضرنى أسماء مئات من البريطانيين (١) الذين أبدوا لنا فى كل مناسبة الصداقة الحقة ونبل الشعور وكرم المعاملة .. ولعلك تذكر أيها القارئ تجربتى وزوجتى فى مؤتمر بيسك .. فى تشيكوسلوفاكيا فى يونيو ١٩٦٧ حين كانت زوجة الدبلوماسى البريطانى أكثر السيدات رقة وتعاطفا ونبلا تجاه زوجتى فى نفس أسبوع النكسة والمحنة ..

---

(١) من بين الدبلوماسيين البريطانيين الذين تعاملت معهم على مدى السنوات الخمس سير هارولد بيلى سفير بريطانيا السابق فى مصر وسير فيليب أدامز وكيل الخارجية المساعد وانتونى بارسونز وكيل الخارجية المساعد للشرق الأوسط ودوجلاس هيرد مدير مكتب وزير الخارجية ، (اصبح هو نفسه وزير الخارجية) وانتونى آكلاند مدير مكتب وزير الخارجية . وجيمس كريج Craig مدير إدارة الشرق الأدنى وهوب جونس مدير إدارة الشرق الأدنى وجونى جراى وهوكى ووكر المسئولين عن القسم المصرى .. وقد أصبحوا كلهم سفراء فيما بعد .. أما من بين البرلمانيين أصدقاء مصر أو المتعاطفين معها فقد تعاملنا مع النواب دينس وولترز وكريستوفر ماهيووايان جيلمور وسير انتونى ناتنج ولورد تريفليان وكانت سفارتنا على اتصال دائم بالصحفيين المهتمين بمتابعة أزمة الشرق الأوسط فى صحف لندن تايمز والاوبزرفر والجرديان والفينانشيال تايمز ومجلة الأيكونومست ، وكذا أعضاء هيئة مجلس تنمية التفاهم العربى البريطانى ومن بينهم جرانيا بيركيت ومنويلاسايكس وغيرهم كثيرون !!

وقد عشت فى سفارتنا بلندن زهاء السنوات الخمس حضرت فيها الكثير من مقابلات سفيرنا مع كبار المسئولين كما أجريت أنا نفسى بصفتى الرجل الثانى فى السفارة أو بصفتى قائم بأعمال السفارة مئات الأحاديث مع المسئولين البريطانيين (١) وحضرت فى لندن محادثات دكتور محمود فوزى والسيد محمود رياض ودكتور مراد غالب ودكتور محمد حسن الزيات وزراء خارجيتنا وكذلك السيد / محمد حافظ اسماعيل مستشار الأمن القومى، حضرت محادثاتهم مع وزراء خارجية بريطانيا الآتين على التوالى جورج براون ومايكل ستيورات ولورد أليك دوجلاس هيوم: ومع الايجاز الشديد لوصف مواقف المسئولين البريطانيين فقد كان .. كما كانوا يرددونه باستمرار يتلخص فى :

إن بريطانيا لا تدعى إنها تملك التأثير على اسرائيل إلا قليلا، كذلك فإن تأثيرها محدود على غيرها من دول أوروبا الغربية التى تتعاطف مع اسرائيل، إن الولايات المتحدة هى التى تملك إن إرادات التأثير على اسرائيل وحفزها على الانسحاب من سيناء ومن هنا يجدر بمصر أن تحسن من علاقاتها مع واشنطن بدلا من زيادة الإساءة إليها (وكانت

(١) كما هى عادة الانجليز فإن الدبلوماسيين ورجال الأعمال ينجزون أعمالهم حول مائدة الغداء في أحد النوادى الاجتماعية فى وسط البلد وكنت عضوا فى نادى Travellers Club

مقطوعة من ٦٧ إلى أوائل عهد السادات أى بعد زيارة نيكسون لمصر) .. وانه في تقدير بريطانيا ليست هناك ضرورة عاجلة إلى إجراء حوار مباشر بين مصر واسرائيل في المرحلة الأولى لكن في المراحل اللاحقة لا مفر من إجراء محادثات ثنائية مباشرة بين الطرفين لا بد منها لتفسير تفاصيل قرار مجلس الأمن ٢٤٢(١) والاتفاق على خطوات تنفيذه وانه مهما حاولت بريطانيا وفرنسا تسهيل مهمة يارنج كوسيط بين أطراف النزاع فلا مناص عن المباحثات المباشرة في النهاية ... وأن رأى بريطانيا هو أن القرار ٢٤٢ يعني بالنسبة لمصر انسحاب اسرائيل التام عن كل سيناء ربما مع الاتفاق على نزع السلاح او تحديد السلاح في أجزاء معينة من الحدود لفترة محددة .. ولكن بالنسبة لبقية الأراضي المحتلة قد يعني القرار انسحاب اسرائيل مع بعض تعديلات في الحدود تتوقف على طبيعة السلام الذى يتفق عليه في مباحثات مباشرة .

كان هذا ما سمعناه من البريطانيين من سنة ١٩٦٧ وحتى زيارة الرئيس السادات للقدس .. ولم يحاول المسئولون البريطانيون في يوم من الأيام خداع سفارتنا أو مسئولينا باسماعهم ما كانوا يودون سماعه

---

(١) هل يتم الانسحاب من أراض احتلتها اسرائيل أو من «الاراضى التى احتلتها»؟

وكان البريطانيون يتوخون عرض آرائهم ومعتقداتهم بصدق وصراحة مع الحرص على عدم احراجنا أو خدش شعورنا فى الوقت نفسه .. ومع هذا فقد تحقق كل ما أوصى به البريطانيون بالنسبة للشق المصرى - الاسرائيلى من النزاع ..

وقد كانت السنوات الخمس التى قضيتها على صلة مباشرة مع وزارة الخارجية البريطانية وكبار المسئولين ورجال الصحافة والبرلمان البريطانى تجربة غنية بالفائدة الدبلوماسية المحققة .. ولئن كنت أمضيت سنوات تكوينى الثقافى Formative Years فى الولايات المتحدة دارسا أوزميلا بجامعاتها فان سنوات لندن كانت بمثابة سنوات الصقل النهائى ishpol فان لندن مدرسة طيبة للدبلوماسيين الشغوفين بحرفتهم .

ورغم تقديرى لمهارة الدبلوماسية البريطانية بصفة عامة فإننى آخذ عليها مأخذين أو ثلاثة على الأقل منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . أولهما حماقة السويس ١٩٥٦ وقد كلفت هذه الحماقة بريطانيا غاليا ونبهتها إلى «انكماش» حجمها وانها لم تعد الأمبراطورية التى يمكنها التصرف فى العالم كما تشاء . أما ثانيهما فهى تخبطها أو ترددها بين الاعتماد على علاقة خاصة تربطها بالولايات المتحدة سياسيا واقتصاديا وبين الانتماء الكامل نفسيا وفعليا للسوق الأوربية المشتركة

أى لاوروبا الغربية .. ويعنى ذلك تذبذبها ما بين انجلو سكسونيتها وأوروبيتها ومحاولتها المتأخرة الانتماء للاثنتين . وقد دفع هذا التردد حزب المحافظين إلى اساءة الاختيار فى البداية سنة ١٩٥٨ – حينما رفض الانتماء إلى معاهدة روما ودخول السوق الأوروبية المشتركة منذ البداية وفضل عليها اقامة مجموعة EFTA (رابطة التجارة الحرة الأوروبية) في منافسة صريحة للسوق المشتركة .. وتبع ذلك اتجاه بريطاني عمالي شديد نحو الاشتراكية وسيطرة الدولة الاقتصادية على وسائل الانتاج والخدمات الاجتماعية ، ونتج عن كل ماسبق تدهور صناعات الصلب والترسانات البحرية والمنسوجات والتكرير وحتى الطاقة الذرية التى كانت بريطانيا متقدمة فيها عن بقية أوروبا (وذلك رغم اكتشاف البترول فى بحر الشمال وهو من أهم العوامل التى تساعد بريطانيا على التغلب على العجز فى ميزان مدفوعاتها ولم تعد بريطانيا اليوم سوى دولة من دول المرتبة الثانية ، تقف بعد فرنسا وألمانيا الغربية من حيث القوة الاقتصادية) وفشلت تجربة بريطانيا فى تحدى دول السوق الأوربية المشتركة ومحاولة تطويقها والتغلب عليها باقامة الحلقة الخارجية Outer Seven واضطر ادوارد هيث زعيم حكومة المحافظين سنة ١٩٧٢ إلى قبول شروط دول السوق الأوروبية لانضمام بريطانيا ،،إليها فى «عربة من عربات الدرجة الثانية وليس الأولى» لكن لاتزال بريطانيا إلى اليوم ،فى عهد حكومة محافظة أخرى

هى حكومة جون ماجور تختلف عن حكومة مارجريت تاتشر (١) لكنها تقف مترددة مرة أخرى بين علاقتها الخاصة مع بقية الانجلوسكسون (الولايات المتحدة - كندا - استراليا - نيوزيلانده ودول الكومونولث) وبين الانتماء قلبا وقالبا للسوق الأوروبية .. وكما وضعت مارجريت تاتشر العقبات تلو العقبات أمام اقامة نظام مصرفى أوروبى غربى موحد وعملة واحدة فان حكومة ماجور هى الأخرى تحاول عرقلة تقدم اوروبا الغربية نحو الوحدة الاقتصادية الكاملة التى لاتثق فيها ثقة كبيرة وذلك رغم معارضة جناح من المحافظين بزعامة ادوارد هيث لسياستها.. وموقف التاتشارية هذا يضع بريطانيا فى مقام الرجل الغريب بالنسبة لبقية أوروبا mon-out odd وينذر بتكرار غلطتها سنة ١٩٥٨ حينما ابدت احتقارها لمعاهدة روما التى انشأت السوق الأوروبية المشتركة ثم سعت حثيثا بعد ذلك إلى الانضمام اليها سنة ١٩٧٢ بقيادة هيث ..

أما المأخذ الثالث الذى كنت أخذه على سياسة بريطانيا أو دبلوماسيتها أثناء السبعينات فهو الوقوف فى وجه جميع أعضاء الكومونولث وجميع دول العالم الثالث وكثير من الدول الليبرالية الغربية فى محاولتها العديدة فرض العقوبات على حكومة جنوب افريقيا

---

(١) اضطرت تاتشر للاستقالة بسبب ثورة حزبها ضدها بعد ذلك وخلفها جون ماجور.

العنصرية للضغط عليها للتخلي عن الابارثايد .. وقد اختارت تاتشر المغنم الاقتصادي على المثل والمبادىء الانسانية وعادت ففعلت نفس الشيء مرة أخرى في اصرارها على إعادة اللاجئين الفيتناميين من هونج كونج إلى بلادهم عنوة بالقوة الغاشمة ..

وأسارع إلى القول بأن المآخذ الثلاثة التي أخذتها على دبلوماسية وسياسة بريطانيا كانت من صنع حكومات محافظة يمينية سواء أكان ذلك تحت حكم انطوني إيدن أو مارجريت تاتشر واخيرا أيضا إلى حد ما جون ماجور وهي مواقف تزيد من عزلة بريطانيا «وجزريتها» وانكماشها على نفسها في الوقت الذي انكمشت فيه بريطانيا من امبراطورية إلى دولة من المرتبة الثانية دون أن تفقد توازنها أو مكانتها كلية!!

فما هي ، بصفة عامة «دبلوماسية بريطانيا» في عهد الأنكماش ؟ أنها حقا جديرة بالدراسة والتحليل لأنها قد تفيد كمثل أو نموذج يحتذى لمحاولة الانتقال من امبراطورية إلى دولة متوسطة أو دولة من دول المرتبة الثانيةدون أن تفقد توازنها أو مكانتها كلية !

خرجت بريطانيا من الحرب العالمية الثانية في عداد «المنتصرين» بفضل انضمام الولايات المتحدة للحلفاء ومساندتها الفعالة لهم لكن بريطانيا خرجت من الحرب مثخنة بالجراح وقد نزفت أغلب قواها وفقدت مكانتها كدولة عظمى وحل محلها كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ثم بدأت هبوب رياح الوطنية العارمة في أعقاب

الحرب الثانية فمزقت الامبراطورية شر ممزق ونالت استقلالها الواحدة تلو الأخرى الهند وباكستان وبروما وسيلان ونيجيريا وغانا ثم كشفت حرب السويس ١٩٥٦ القناع تماما عن اضمحلال قوة بريطانيا كدولة ذات امكانيات عالمية واعلنت الحدود الضيقة الاقتصادية والدبلوماسية والاستراتيجية البريطانية في عهد الانكماش الجديد .

وظهر أن بريطانيا لم تعد قادرة على اتخاذ سياسيات واستراتيجيات عالمية ناجحة بمعزل عن ارادة الولايات المتحدة ومساندتها .. ومن ثم ظهر لبريطانيا حاجتها إلى اقامة «علاقة خاصة» مع الولايات المتحدة سياسيا واستراتيجيا واقتصاديا وقد تم ذلك سنة ٦٢ وظهرت أيضا مجموعة جديدة من الدول القادرة على منافسة بريطانيا بل سبقتها اقتصاديا وتجاريا ومنها فرنسا وإيطاليا والمانيا [الغربية](١) واليابان وكندا .. وأخيرا النمور الاسيوية «كوريا الجنوبية وتايوان وسنغافورة وتايلاند وهونج كونج» ..

نتيجة لكل هذا كان طبيعيا أن تنكمش الامبراطورية البريطانية وأن تختار بريطانيا لنفسها دورا جديدا ودائرة جديدة (دبلوماسية واستراتيجية) تتفق وامكانياتها المتقلصة الجديدة وإلا عرضت نفسها للسخرية بل والدمار والفناء .

---

(١) بعد توحيد المانيا صارت أكبر قوة اقتصادية في أوربا .

إلا أن عملية الانكماش هــذه لم تكن أبدا من السهولة بمكان .. وقليل من الامبراطوريات استطاع اجراء هذا التحول الصعب من امبراطورية إلى دولة متوسطة - دون فقدان كامل توازنها أو كل مقوماتها بل أن كثيرا من الامبراطوريات زال واضمحل أثناء محاولة اجراء هذا الانكماش لما يتخلله من آلام نفسية ومصاعب حقيقية وتناقضات كثيرة .. ومن هنــا يمكننا تقــدير ما فعلته بريطانيا حق قدره .

وسواء أحسنت الدبلوماسية البريطانية بأهدافها الجديدة في فترة ما بعد ١٩٤٥ - وسارت في سبيل تنفيذها واعية عالمة أم أنها لم تخطط لهذه الأهداف صراحة أو بهدوء وتعقل (مغامرة ١٩٥٦) وانما اتبعت سياسات سد الفراغات تقوم على الارتجال والانفعال أكثر من التخطيط الهادىء بعيد المدى ، إلا أنه تتضح عدة انماط وعناصر بارزة في دبلوماسية بريطانيا في فترة الانكمــاش نحـاول ايجـاز أهمها فيما يلي:

أ - محاولة بريطانيا استغلال مكانتها التاريخية ونفوذها التقليدى كدولة ذات خبرات خاصة أو امكانيات أو علاقات خاصة سواء مع الولايات المتحدة أو غيرها من الدول أو مناطق النفوذ السابق ، لدعم كيان بريطانيا السياسي والعسكرى بصفتها الجديدة كدولة صاحبة الصدارة بين دول المرتبة الثانية ، دولة تستحق معاملة خاصة أو

امتيازات خاصة سياسية وتجارية واقتصادية بحكم مكانتها التاريخية وخبراتها وامكانياتها التقليدية ..

ب - محاولة استغلال هذه المكانة الخاصة لتأكيد دور بريطانيا وقدرتها على دعم مكانة العالم الغربي وسياسات حليفتها الكبرى الولايات المتحدة خاصة حامية ذلك العالم والحليفة الأولى لبريطانيا .

ج - محاولتها اجراء الانكماش اللازم من الأمبراطورية وتصفية أثار العلاقات القديمة المتهاوية إلى الدائرة الضيقة الجديدة بأقل قدر من التضحيات والصعوبات في ظل حماية السياسات والتكتيكات سابقة الذكر ، أى محاولة تصفية المشاكل التى خلفتها سياستها الامبراطورية البائدة بأقل قدر من الخسارة أو المشاكل الجديدة (النزاع العربى الاسرائيلى - الأقلية العنصرية فى روديسيا وجنوب افريقيا - الخلاف مع الارجنتين حول جزر فوكلاند ومع جواتيمالا حول بليس أو هندورس البريطانية والخلاف مع اسبانيا حول جبل طارق - مكانة بريطانيا من السوق الأوروبية المشتركة وعلاقاتها الحساسة مع فرنسا وألمانيا) .

ومحاولتها الخروج من تلك المشاكل بمواقف تعزز مكانة بريطانيا الدولية الجديدة وما تدعيه لنفسها من امكانيات وتجارب خاصة فى ميادين التوفيق والوساطة وحل المنازعات .

د - محاولة بريطانيا احراز انتصارات دبلوماسية لامعة عالمية تعزز

مكانتها كدولة ذات أهمية وإمكانيات خاصة (ومن أمثلة محاولاتها التوفيق والوساطة واحراز مكانة دولية فى هذا المجال ماتقوم به من وساطات بين العرب واسرائيل وبين العرب والولايات المتحدة بل محاولتها فى الماضى القيام بدور الجسر مابين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى أو بين الهند وباكستان وبين العرب وايران وبين نيجيريا وفيافرا وبين الهند والصين وهذا .. وتراعى الدبلوماسية البريطانية فى وساطتها عدم الزج بنفسها بين الأطراف بشكل غير مقبول لأخذها وأنها تراعى أن تأخذ وساطتها الشكل الهادىء المستتر لعدم تعريض دبلوماسيتها للفشل حيث ان الغرض الاساسى وراء هذه المساعى هو تحقيق انتصارات للدبلوماسيين البريطانيين)

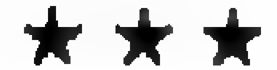
هـ - محاولة استخلاص دور لبريطانيا كدولة ذات امكانيات خاصة وفهم خاص مبني على الواقعية والاعتدال ومن ذلك الشواهد والأمثلة التالية: كان موقف بريطانيا منذ البداية وجوب الاعتراف بالصين الشيوعية وقبولها داخل الأمم المتحدة فى الوقت الذى كان ذلك يخالف موقف واشنطن تماما - وكانت بريطانيا تسبق موقف الولايات المتحدة احيانا كثيرة فى مباحثات نزع السلاح إلى اتخاذ مواقف أكثر اعتدالا وواقعية وتقاربا مع الاتحاد السوفييتى كذلك احسنت بريطانيا لمدة طويلة استغلال علاقتها الخاصة بالولايات المتحدة، سياسيا واقتصاديا، من أجل الظهور أمام العالم بمظهر الشريكة للشريك الكبير (امريكا)

فى ادارة الحلف الغربى (الناتو) والعالم الغربى بصفة عامة اعتمادا على تاريخها وخبراتها ودبلوماسيتها واعتمادا على كونها الدولة الذرية الثالثة في العالم. وكان اتفاق ناساو سنة ١٩٦٣ بين واشنطن ولندن والذى سمح بامداد الولايات المتحدة لبريطانيا وحدها من دون كل شركاء أمريكا الآخرين بالمعلومات والمواد اللازمة لبناء الغواصات الذرية البولاريس معززا لهذا الدور فى الوقت الذى يحرم فيه القانون الامريكى مد أى دولة أخرى بهذه المساعدات.

و – لاشك أن من أهم أهداف الدبلوماسية البريطانية فى فترة الانكماش هذه وبخاصة فى ضوء قرب انهاء بريطانيا لتصفية آثار مشاكلها الامبراطورية السياسية السالفة تعزيز امكانيات بريطانيا العالمية الاقتصادية والتجارية والمالية. لقد تعرضت بريطانيا بعد ١٩٤٥ لضغوط ومؤثرات اقتصادية عنيفة من جراء حرمانها من المستعمرات التى كانت تحت حكمها وكانت تعتبر سوقا صالحة لمد بريطانيا بالمواد الخام وكسوق لتصريف منتجات بريطانيا تقليديا، ومن أشد أخطاء بريطانيا كان رفضها الانضمام إلى معاهدة روما لاقامة السوق الاوروبية المشتركة لاعتمادها اعتمادا زائدا على علاقتها الخاصة مع الولايات المتحدة والكومونولث حتى لقد اعماها ذلك عن استشفاف

أهمية العمل الأوروبى المشترك ومدى حاجة بريطانيا كدولة غربية أوروبية إلى التعاون معه..

لكن ادوارد هيث زعيم حزب المحافظين تدارك هذا الخطأ سنة ١٩٧٢ وقاد بريطانيا إلى داخل السوق رغم خطأ حزبه فيما سبق لكن بريطانيا دفعت ثمنا غاليا لتأخرها فى اللحاق بذلك القطار ومازالت إلى اليوم قليلة الثقة فى بقية الاوروبيين وتقف حائرة معذبة منذ عهد تاتشر والى اليوم ما بين استكمال مسيرة الانضمام إلى السوق قلبا وقالبا، وبين مكانتها كالمصرف العالمى للدائرة الاسترلينى وصاحبة المكانة الخاصة فى الكومونولث وصاحبة العلاقة الخاصة مع الولايات المتحدة.. وقد يكلفها ذلك غاليا أيضا.. لكن مما يخفف من ضائقة بريطانيا الاقتصادية تملكها لبترول بحر الشمال واستمرارها كمنطقة جذب شديدة للسياحة العالمية.. واستمرار تأييد الولايات المتحدة لها بفضل تلك العلاقة الخاصة.



استمرت اقامتنا فى لندن من ديسمبر ١٩٦٧ إلى يوليو - أغسطس ١٩٧٣، وكانت وازرة الخارجية المصرية منذ أوائل الستينات قد حددت سلفا مدة اقامة الدبلوماسى فى الخارج باربع سنوات. لكن وزير الخارجية د. مراد غالب فى أواخر عام ١٩٧١ طلب منى شخصيا قبول الاستمرار فى لندن سنة أخرى أو سنتين فقبلت. وهكذا عملت كوزير

مفوض للسفارة تحت إمرة سفيرين هما أحمد حسن الفقى إلى أن بلغ سن التقاعد، ثم من بعده، المرحوم كمال الدين رفعت إلى أن عينت سفيرا لمصر فى ليما عاصمة بيرو بامريكا الجنوبية فى حركة ابريل / مايو١٩٧٣..

كانت سنوات لندن حافلة بالعمل الجاد المفيد من كل ناحية.. ويحضرنى فى هذه المناسبة المثال التالى فقد شرفتنى بلادى فى ابريل ١٩٧٣ بأن استدعانى من لندن إلى القاهرة السيد / محمد حافظ اسماعيل مستشار الرئيس السادات للأمن القومى وقتئذ ضمن فريق من الدبلوماسيين تكون من الزملاء السفراء دكتور عبد الله العريان رحمه الله وكان وقتئذ سفيرا لمصر فى باريس ود. أحمد عثمان وكان وقتئذ مندوبا دائما مناوبا فى نيويورك والسفير طاهر شاش وكان وقتئذ وزيرا مفوضا فى موسكو.. ومنى كنت مازلت وزيرا مفوضا فى لندن استدعانا مستشار الأمن القومى لكى نضع دراسات فردية وجماعية - قدمناها إلى سيادته فى حينه بعد فترة دراسات امضيناها فى قصر عابدين استغرقت الشهرين الكاملين وقد ضمنها كل منا تصوره لكيفية ايجاد الحلول المناسبة للنزاع المصرى الاسرائيلى - والاسرائيلى الفلسطينى و العربى - وذلك قبل حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣ بستة شهور كاملة..

. وكان من نصيبى أن قدمت للسيد / مستشار الرئيس للأمن

القومى في تلك المناسبة بعض الدراسات الفردية التى تحوى تصورى لتلك المشاكل وابعادها وطرق الحل السلمى المتاحة، ودون الدخول فى تفصيلات تلك الدراسات فقد ضمنتها التساؤل «أفلا يحق لمصر أن تفصل ما بين الشقين (المصرى والعربى للنزاع مع اسرائيل) - على الاقل تكتيكيا - بمعنى أن تتكفل مصر وحدها بحل الشق المصرى / الاسرائيلى أى بتحرير سيناء» دون أن تنتظر مساعدة عربيـة لن تأتى غالبا وذلك لتسهيل حل هذا الشق وحده.. على أن تظل مصر وفية وحريصة على التزاماتها العربية ضمن الاطار العربى العام، وحسب قدراته، لحل الشق الأصلى العربى / الفلسطينى كمرحلة لاحقة ومتصلة بالحل المصرى المرحلى الأولى.؟»

كما طرحت التساؤل «كيف يمكن لمصر أن تعالج المشاكل (التى قد تنجم عن أو المصاحبة لظاهرة فصل الشقين الشق المصرى عن الشق العربى (السورى أو الاردنى أو الفلسطينى) للمشكلة، بأقل قدر من الاضرار بوضع مصر وسياستها العربية وبمركزها العالمى.. كذلك قدمت تصورى الشخصى للاجابة على ذلك التساؤل!

وفى ديسمبر ١٩٧٧ بعد أربع سنوات كاملة عادت وزارة الخارجية تطرح على سفرائها موضوع التقدم بدراسات أخرى استعدادا

للتفاوض مع اسرائيل، وكنت حينها سفيرا لمصر في روما فرفعت إلى السيد / الوزير د. بطرس غالي وزير الخارجية بالنيابة جملة أفكارى وتصوراتي وفقا للنهج السابق مؤكدا استحسانى وتحبيذى الشخصي لفصل الشق المصرى من القضية مرحليا - عن الشق الفلسطيني السورى الأردنى، وتحبيذى لمضى مصر إلى التفاوض مع اسرائيل حول تسوية النزاع المصرى الاسرائيلى سلميا كخطوة أولى مرحلية - سابقة لتسوية باقى القطاعات وإن كانت مرحلة أولى فحسب، متصلة بالتسوية وشاملة ومؤدية إليها وجزءا لا ينفصل عنها ..(١).

أما بالنسبة لعلاقة مصر فى ذلك الحين بالولايات المتحدة فقد ذكرت فيما رفعته إلى المسئولين حينئذ بالحرف الواحد .. «الولايات المتحدة طرف اساسى فى معركتنا ومن هنا لا نملك أن نتجاهلها بقطع الحوار معها.. بل قد يكون حوارنا معها بديلا عن حوارنا مع اسرائيل فى المرحلة الأولى وقد يمهد له فيما بعد ».

هذا ولا أدعى لنفسى شرفاً أو مسئولية قرار السادات باختيار سبيل الحل السلمى المرحلى المنفرد مع اسرائيل.. كل ما أردت قوله انى كنت أشاطر السادات نفس الأفكار ربما فى نفس الوقت الذى غمرته نفس الآراء ودون ان يدرى احدنا بآراء الآخر.. بل إنه كان يصعب علىّ تصور أن أجد صدى لافكارى لدى بقية زملائى من الباحثين

---

(١) من مذكرات الكاتب الشخصية والتى لم تنشر بعد.

الدبلوماسيين.. لكن شاءت الظروف والمصادفات أن أكون قدمت تلك الآراء معززة بالدراسات التفصيلية إلى المسئولين فى ابريل ٧٣ ثم فى ديسمبر ٧٧ وتشاء المصادفات أن يزور السادات القدس بادئا رحلة السلام المرحلية المنفردة سنة ١٩٧٨..

وهكذا استطيع أن أعود لاذكر أني مطمئن بينى وبين نفسى تمام الاطمئنان والحمد لله إلى أن سنوات عملى فى لندن (وما جاء بعدها) كانت حافلة بالعمل الجاد المثمر.. وما التوفيق إلا بالله.. وقد تعلمت فيها الكثير فان لندن مدرسة للدبلوماسيين وللدبلوماسية الراقية لمن شاء التزود بهذا الغنى ولم أجد صعوبة أو مشقة فى يوم من الأيام من جانب معاملاتي مع البريطانيين. لكن كانت أغلب صعوباتنا ومشقتنا ترجع إلى اعداد المصريين الهائلة التى كانت تتوافد على لندن صيفا وشتاء ولكن صيفا أكثر من شتاء..

كان المصريون يفدون إلى لندن للعلاج فى «الحالات المتأخرة» وهم فى النزع الأخير أو بعد فوات كثير من الوقت.. وجريا على عادة المصريين فما من أحد يفد إلى لندن إلا حاملا توصية أو خطابا أو رجاء من أحد الأصدقاء أو أحدالأقارب للاهتمام بالزائر الوافد..

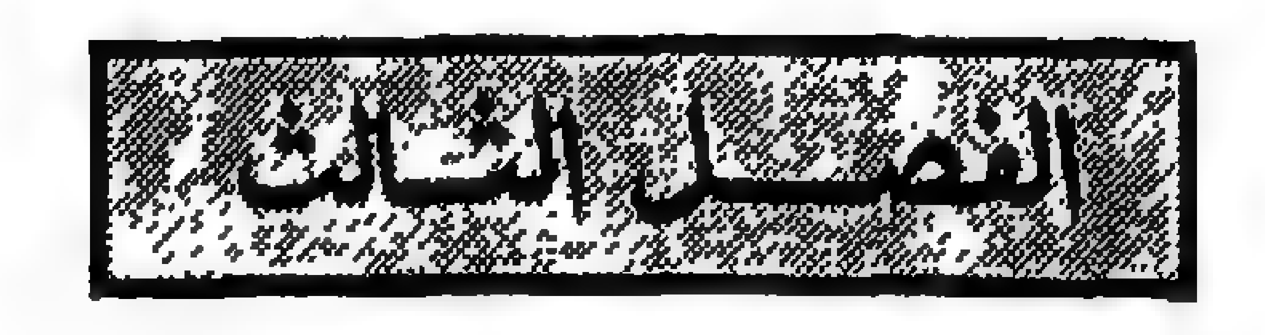
وأصبح كثير من وقتنا ومن عطلات نهاية الاسبوع تقضى فى زيارة منى ومن زوجتى للمرضى من المصريين.. وهو واجب انسانى حقا لكن سرعان ما ذهبت زوجتى إلى الاخصائيين تشكو من تقلصات فى معدتها وآلام لا نجد لها مبررا.. وبعد الكشف عليها لم يجد الاخصائى

شيئا فسألها عن نظام حياتها فأجابته.. فنصحها بالاقلال من زيارة المستشفيات وبخاصة الحالات المتأخرة لأن الأعراض التي تشكو منها كانت آلاما عصبية..

كان عدد المصريين المتوافدين على لندن كل صيف يزيد عن الخمسين ألفا، الكثير منهم أصدقاء أو أقارب أو أصدقاء للاصدقاء.. وكان بعضهم يتصل بنا تليفونيا في منزلي دون أن يذكر اسمي أو يعلن عن معرفته لاسمي ليقول أن أحد أصدقائه اوصاه بالاتصال «بوزير مفوض السفارة» في هذا الرقم.. وذات مرة اتصل بي شاب في الحادية عشرة مساء في منزلي ليعلن لي أنه ابن فلان وانه يتمنى رؤيتي تلك الليلة نفسها لأنه «ملخوم» شوية ولايدري ماذا يفعل.. فلما عرضت عليه أن أراه غدا صباحا قال مسافر خارج انجلترا غدا صباحا وكان يريدني أن أريه معالم لندن!! هذا إلى جانب طلبات «السلفيات» من أشخاص لم يسبق لي رؤيتهم او التعرف بهم.. هذا إلى جانب مشاكل المصريين ذات الطابع القنصلي أو ذات الحساسية السياسية الطابع!. فلم أكن أنا القنصل طبعا ولم أكن معنيا بالمشاكل القنصلية مثل اتهام بعض المصريين بمحاولة الخروج من محاولات مركس آند سبنسر في لندن دون سداد قيمة البضائع التي يحملونها في أيديهم.. لكن ما الحل اذا كان الشخص المتهم ابن أو ابنة أو زوجة أحد كبار المصريين؟! وماذا نفعل حيال الابنة المصرية أو الزوجة التي تختفي في لندن اسبوعا أو شهرا بعيدة عن زوجها أو أبيها دون أن تخطره بعنوانها؟ وإذا كان

هــذا الزوج أو الأب شـخـصـيـة كـبـيـرة مـعـروفـة للسـفـارة؟ وهـكـذا دون نهاية..

خلاصة القول أنه لما تولى المرحوم الدكتور محمد حسن الزيات منصب وزير الخارجية أواخر ١٩٧٢ فيما أذكر وحل على الدور لأرقى لدرجة سفير ١٩٧٣ رجوته إن امكن تعييني سفيرا في ليما عاصمة بيرو في امريكا الجنوبية وكان المنصب شاغرا بنقل السفير السابق إلى القاهرة.. والحق أن الدكتور الزيات تمنع في بداية الأمر واجابني بأن تجاربي وتكويني السابق من شأنها ترشيحي للعمل في موقع أكثر قربا إلى مركز الاحداث أما في القاهرة أو في الخارج.. لكن أقنعته بأني احتاج بعد مجهود لندن إلى فترة راحة قصيرة.. وليما عاصمة بيرو قدر علمي ليس بها مصريون زائرون أو مقيمون وسوف تهيئ لي جو الراحة الذي انشده ردحا من الوقت.. كما أني ولوع بدراسة الحضارات القديمة وبيرو مهد حضارة الانكا وسوف تتيح زيادة تحسين لغتي الاسبانية التي بدأت دراستها منذ سنة ١٩٥٨ قبل عملي في كولومبيا ثم المكسيك فوافق الدكتور الزيات بعد لأي ربما على اساس معرفته بأن انظمة بعض وزارات الخارجية ذات التقاليد العريقة تفضل اسناد احد المناصب المريحة إلى دبلوماسييها فيما بين كل منصبين مهمين أو حساسين.. وهكذا عينت سفيرا لمصر في بيرو وبدأت استعداداتي للسفر من لندن إلى بلد من أبعد بلاد العالم.. باختياري بل وبالحاحي .



أولا : جمهورية بيرو Peru وحضارة Inca

ثانيا : جولة فى دول أمريكا اللاتينية .. بنما - اكوادور - بوليفيا - الارجنتين - أوروجواي - فنزويلا .

أولا : بيرو وحضارة الأنكا .

تقع بيرو Peru فى نصف العالم الجنوبى ، وهو وحده سبب كاف لكى يجعلها بعيدة عنا تماما، لكنها تقع أيضا على الساحل الغربى (المطل على المحيط الهادى) لأمريكا الجنوبية - وهو مما يزيد فى بعدها عنا . ولا يبعد أكثر منها عن مصر سوى شيلى التى تقع على نفس الساحل الغربى المطل على المحيط الهادى جنوبى بيرو . ويحد بيرو شمالا جمهورية الاكوادور التى يقسمها تماما خط الاستواء، ويحدها شرقا البرازيل وبوليفيا. والصفة الغالبة على بيرو أنها تمتد رأسيا مسافة طويلة جدا فى شكل شريط ساحلى صحراوى يتراوح عرضه ما بين ١٦٠ كيلو مترا و ١٦ كيلو مترا يمتد من اكوادور شمالا حتى حدود شيلى جنوبا ويحده شرقا سلسلة جبال الانديز التى يصل ارتفاعها إلى أكثر من ثلاثة آلاف متر فى مواقع كثيرة .. وتقع الغابات الأمازونية

البيرونية شمال وشرقي جبال الأنديز هذه أى أن بيرو تنقسم جغرافيا إلى : الشريط الصحراوى الساحلى الذى يسكنه أغلب أهالى بيرو وعددهم عشرون مليون نسمة، ثم إلى جبال الأنديز التى يسكنها ١٥ - ٢٠٪ من السكان ثم إلى الغابات الأمازونية قليلة السكان اللهم فيما عدا بعض قبائل هندية متأخرة، وهى التى تفصل بيرو عن البرازيل .. ومساحة بيرو تفوق مساحة القطر المصرى بأكمله ..

ويشكل الهنود «الحمر» الذين يقطن أغلبهم فى الأراضى المرتفعة (هضاب ووديان جبال الانديز) ٤٥ فى المائة من السكان فى حين أن الجنس الأبيض الخالص سلالة الغزاة الاسبان لا يزيد تعداده عن ١٥٪ من السكان (أما البيروانيون المخلطون Mestizos نتيجة اختلاط البيض بالهنود أو بالأقلية الافريقية السوداء فهم يمثلون ٣٧٪ من الشعب، والبقية الباقية أى ٣٪ تمثل الأقلية الافريقية السوداء .. ويزيد من غرابة بيرو وصعوبة وضعها الاجتماعى أن ثلث سكانها لا يعرفون اللغة الاسبانية وإنما يتكلمون لغة هندية قديمة اسمها كيتشوا Quechua ، وكلا اللغتين الاسبانية والكتيشوا تعتبر لغة رسمية ، كما توجد لغة هندية أخرى اسمها ايمارا Imara أقل انتشارا من الكيتشوا ....

أما الشريط الساحلى الصحراوى فيشابه إلى حد كبير طبيعة التربة المصرية من حيث قلة هطول الأمطار على تلك الصحارى الا أنه

يتميز بوجود عدة أنهار صغيرة تستمد مياهها من جبال الانديز العالية وتصب فى المحيط الهادى وقد قامت حولها زراعات كثيفة تماثل كثافة الزراعة فى وادى النيل مع الفارق الضخم بين حجم النيل العظيم وصغر تلك الانهار البيروانية .. الا أن التشابه المناخى وتشابه التربة أدى إلى قيام تشابه فى محاصيل البلدين .. فقد أدى نظام الرى البيروانى حول تلك الأنهار في الشريط الساحلى إلى ازدهار زراعة القطن وهو يشابه القطن المصرى طويل التيلة Pima cotton إلى حد ما . كذلك تقوم فى ذلك الشريط الساحلى الصحراوى زراعة بعض ألوان الفاكهة التى يشتهر بها وادى النيل لتشابه الظروف المناخية والتربوية ومنها الموالح والبطيخ وقصب السكر . ولا يقف التشابه بين البلدين عند هذا الحد ، فان الأراضى الزراعية فى مصر والتى تتمثل فى وادى النيل ٤٪ من مساحة مصر فقط وفى مقابل ذلك فان الاراضى الزراعية فى بيرو تمثل ٣٪ من رقعة بيرو . لكن فى حين تمثل الصحراء ٩٦٪ من مساحة مصر لباقية فان الغابات الأمازونية تمثل نصف مساحة بيرو (والباقى تحتله جبال الانديز) وهو ما يجعلها دولة ذات امكانيات زراعية واقتصادية كبيرة .. فهى تنتج من المعادن النحاس والرصاص والفضة والزنك والحديد والبترول (وتصدر البترول أيضا) والتى توجد بكثرة فى باطن الأرض إما فى جبال الانديز أو فى الغابات الامازونية، وذلك إلى جانب البن الذى تشتهر به بيرو وكولومبيا والبرازيل من دول امريكا اللاتينية.

كذلك تشتهر بيرو بتصدير مخلفات الطيور البحرية Guano Fish-meal التي تستخدم كسماد قوى والتى توجد بكثرة فوق جزر بيرو القريبة من الساحل فى المحيط الهادى، وتعيش تلك الطيور البحرية على الأسماك الكثيرة التى يحملها إلى سواحل بيرو تياران بحريان هما تيار همبولت البارد القادم من القطب الجنوبى وتيار Nino نينيو الحار القادم من خط الاستواء .. ويصطدم التياران البارد والساخن أمام سواحل بيرو مما يؤدى إلى توافر الأسماك والطيور من ناحية ومن ناحية أخرى إلى ازدياد الرطوبة فى الجو زيادة تجعل مناخ قطاعات ساحلية منها ليما عاصمة بيرو أقرب إلى مناخ اسكتلندا والجزر البريطانية.. فتتكاثر السحب المنخفضة وتحجب الشمس شهور الشتاء بأكملها لكن لا ينزل المطر الا الخفيف أحيانا بالليل أو بالاحرى تظل ذرات المياه عالقة فى الهواء لا تستطيع الهطول لخفتها ويسمونها بالاسبانية llovisna

لكن الأمطار الغزيرة تهطل بالذات على جبال الانديز وفوق الغابات الامازونية .. وعلى منحدرات جبل الانديز الشرقية المؤدية إلى الامازون حيث تكثر زراعة البن والغلال إلى جانب المراعي الوفيرة وتؤدى كثرة تلك الأمطار بالاضافة إلى ذوبان الثلوج من فوق جبال الانديز وإلى توافر مساقط المياه بدورها إلى انتاج ١١ بليون كيلو وات من الكهرباء.

انتاج مصر من الكهرباء حوالى ١٧ بليون كيلو وات ساعة من

الكهرباء بما فيها كهرباء السد العالى - وفى حين تنتج بيرو ٤٠٠ ألف طن مترى من الصلب سنويا فإن إنتاج مضرفيه يبلغ ٩٠٠ ألف طن مترى وفى حين يبلغ جملة الناتج الاجمالى الداخلى فى بيرو .G.D.P ١٦ بليون دولار سنويا فإن الناتج الاجمالى فى مصر فى مقابل ذلك ٣٣ بليون دولار سنويا .. ويتفق تفاوت هذه النسب إلى حد كبير مع نسبة تعداد بيرو إلى تعداد مصر ٢٠ : ٥٥ مليونا - لكن يبلغ متوسط الدخل للفرد فى بيرو ٧٠٠ دولارا سنويا ويبلغ متوسط دخل الفرد فى مصر ٦٨٦ دولارا سنويا. وإذا ما أخذنا فى الاعتبار أن نصف سكان بيرو من الهنود الحمر يعيشون على هامش المجتمع والاقتصاد البيروانى فان معنى ذلك أن الفارق الطبقى والاقتصادى بين أفراد الطبقة الثرية المنعمة فى بيرو وبين السواد الأعظم من الأهالى الهنود أوسع كثيرا من مثيله فى مصر .. فأغنياء ليما وبقية المدن الكبرى يعيشون عيشة شديدة الترف ينعمون بالسكن والرياش الفاخر وتكاد حمامات السباحة الخاصة توجد إلى جانب كل فيلا فى ليما العاصمة بالاضافة إلى سيارتين أو ثلاث تزين الحدائق الفناء حول الفيلات ..

وهنا تكمن أهم أسباب القلق وعدم الاستقرار والعنف السياسى والاجتماعى المتفشى فى بيرو (١) هذه الأيام ومنذ السنوات القليلة الماضية . وإذا أردنا تبسيط هذه الظاهرة لأمكننا أن نقول أن بيرو

---

(١) هذه ليست ظاهرة بيروانية فقط وإنما هى شديدة الانتشار فى شتى أنحاء أمريكا اللاتينية .

اجتازت أولى ثوراتها «السياسية» ونالت استقلالها من أسبانيا منذ مائة وسبعين عاما .. لكن مازالت تعانى مخاض ولادة ثورتها الاصلاحية الاجتماعية ومازالت تلك «الثورة الاجتماعية» أبعد ما تكون عن التحقيق .. أما إذا أردنا تحليلا أكثر شاعرية وورومانسية لما حدث ويحدث فى بيرو (وغيرها من جمهوريات أمريكا اللاتينية) فيمكننا القول بأنه مازال على المستعمرين الأسبان البيض أو بالأحرى على سلالتهم أن يدفعوا ثمن ما أتاه أسلافهم فى حق الهنود الحمر منذ الفتح الاسبانى لبيرو سنة ١٥٣٢ وحتى الآن من ظلم واستبداد واهمال .

فعندما غزا فرنسيسكو بيزارو بيرو سنة ١٥٣٢ ، كانت امبراطورية الانكا قد جاوزت قمة مجدها وبدأت عهد الاضمحلال بعد ثمانمائة عام من العزة والمجد. كانت امبراطورية الاينكا (وعاصمتها مدينة كوسكو Cusco جنوبى بيرو وهى حاليا من أهم مدن بيرو) قد اتسعت لتشمل كل بيرو وبوليفيا والاكوادور وأجزاء من كولومبيا وشيلى والارجنتين !! وكانت الامبراطورية ذات تنظيم اجتماعى راق ، وكانت تتفوق فى صناعات المنسوجات وفنون البناء .. وقد شيدت عمائر راقية فى كوسكو، وحصون ومدن قوية فى ماتشوبتشو Machu Pichu المدينة التاريخية الشهيرة فى أمريكا الجنوبية .. وعندما بدأ بيزارو غزوه لبيرو باسم ملوك أسبانيا كانت الحروب الأهلية قد اضعفت من أمبراطورية الإنكا والشعوب الأخرى الخاضعة لها (ومنها شعوب

بيروانية هى Chavin - Moche - Chimu- Paracas - Nazca والتى ازدهرت حضاراتها فى بيرو منذ القرن الثانى عشر إلى القرن السادس عشر عندما وطئت أقدام الأسبان أرض بيرو) .

وقد فتك الأسبان فتكا سريعا بأعداد هائلة من الهنود من تلك الشعوب بفضل تفوق أسلحتهم .. وأعاد بيزارو ما سبق لزملائه من الغزاة أن فعلوه فى المكسيك ، فقد أعدم آخر ملوك الإنكا رغم أنه افتدى نفسه بملء غرفة بأكملها بالمصاغ الذهبى والفضى وسبائك الفضة والذهب ، وانتهت تماما امبراطورية الإنكا ومقاومتها للأسبان سنة ١٥٢٧ . وأقام الأسبان الغزاة جسرا من الذهب والفضة امتد من بيرو والمكسيك إلى مدريد ، حيث كان قد تم اكتشاف مناجم غنية بالفضة(١) فى Potosi بيرو ، وفى كولومبيا وفى المكسيك . وقد ثارت شعوب الهنود الحمر أنفة الذكر فى بيرو ضد طغيان واستبداد الغزاة الأسبان مرارا أهمها كانت ثورتهم خلال عامى ١٧٨٠ - ١٧٨١ لكن الغزاة الاسبان سادة بيرو وسلالتهم قضوا على تلك الثورات بقسوة ووحشية اضعفت من عزيمة الهنود الحمر وجعلتهم أكثر استكانة واستسلاما لقضاء الله وجبروت الأسبان بعد ذلك..

وقد ثار الرجل الأبيض فى أمريكا اللاتينية الخاضعة لحكم الأسبان بعد ذلك ضد نظام الحكم الأسبانى نفسه .. فقد استولى الجنرال سان

---

(١) مازالت بيرو إلى يومنا هذا تشتهر بانتاج الفضة وصناعتها وهناك مصانع كاموسو Camuso الشهيرة فى ليما التى تنتج أجود المصنوعات الفضية .

مارتين محرر الارجنتين ، على ليما عاصمة بيرو وهزم الجيش الاسبانى وأعلن استقلال بيرو سنة ١٨٢١ .

لكن لم يستتب الأمر لبيرو المستقلة إلا سنة ١٨٢٤ بعد سلسلة أخرى من الهزائم التى منيت بها اسبانيا على يد رفاق سان مارتين، أى الجنرالين سيمون بوليفار وسوكرى Sucre (١) . وبهذا أتمت بيرو أولى مراحل ثورتها السياسية .. لكنها لم تستكمل تلك الثورة السياسية حتى بعد قيام سلسلة متواصلة من الانقلابات العسكرية قام بها جنرالات الجيش البيروانى الواحد تلو الآخر .. إلى أن قامت حرب الباسيفيكى سنة ١٨٧٩ - سنة ١٨٨٣ ما بين بيرو وبوليفيا من ناحية ضد شيلى من ناحية أخرى بسبب الخلاف على الحدود وانتصرت شيلى انتصارا ساحقا على بيرو وبوليفيا (شيلى دولة بيضاء ٩٧٪ في حين أن بيرو بيضاء ١٥٪ وبوليفيا ١٠٪ فقط) واستولت شيلى على مناطق من جنوب بيرو (غنية بنترات الجير «الشيلى» الطبيعى) كما انتزعت من بوليفيا ممرها الوحيد إلى المحيط الهادى وجعلت منها دولة مقفلة، مازالت تطالب شيلى حتى اليوم بمنحها ممرا إلى المحيط ..

لكن كانت عيون البيروان الاذكياء الليبراليين مثبتة منذ سنة ١٩٢٤ على وجوب ولوج باب الاصلاحات الأجتماعية سريعا درءا لأخطار

---

(١) سيمون بوليفار محرر بيرو وكولومبيا وفنزويلا . أما سوكرى فهو محرر اكوادور ومازالت عملة الاكوادور تلقب بالسوكرى . أما بوليفيا فهى نسبة إلى الجنرال سيمون بوليفار .

التفاوت الشاسع بين مجتمع بيرو الأبيض الصغير والمجتمعات البيروانية الأخرى فى القاعدة العريضة هندية كانت أو مختلطة .. ففى بيرو إلى يومنا هذا أكثر من مجتمع واحد ، بل مجتمعات ثلاثة يعيش كل منها فى عزلة عن الآخرين ، ويفرق بينها الهوة الاقتصادية أولا ، ثم الهوة الثقافية والاجتماعية والهوة اللغوية . ولم تحسم ثوراتها أو انقلاباتها السياسية هذه الأوضاع اذ لم تسفر إلا عن استقلال طبقة بيضاء صغيرة منعمة بحكم بيرو مع استمرار أحوال الهنود والمخلطين على ما كانت عليه من فقر وجهل ومرض وانعدام فرص التقدم والترقى...

ومن هنا كان رائول هايادى لاتورى Raul Haya de la Torre من أوائل المفكرين اللاتينيين عامة والبيروانيين خاصة الذين تقدموا ببرنامج اصلاحى اجتماعى واسع المدى ، اشتراكى المضمون ، منذ سنة ١٩٢٤ لمحاولة درء أخطار استمرار تلك الهوة السحيقة سالفة الذكر . وقد كان هايادى لا تورى مؤسس Alianza Popul Revolucionaria Americana : (A.P.R.A.) حزب الابرا أى الاتحاد الشعبى الثورى الامريكى : من أوائل المفكرين الاشتراكيين فى أمريكا اللاتينية فى وقت لم تكن دعوته للاشتراكية تثير إلا الشك والريبة ومخاوف الحكام الرجعيين فى بلده والبلاد المحيطة .

ومن ثم فقد نال هايادى لاتورى الكثير من ألوان الاضطهاد والتشريد والتصفية . واستمرت سيطرة الطبقات الرجعية الغنية والحكومات التى تمثل الاقلية البيضاء البيروانية الثرية الحاكمة إلى أن

قام انقلاب عسكرى سنة ١٩٦٨ - ضد حكومة الرئيس فرناندو بيلاوند تيرى - أدى إلى قيام أول ثورة عسكرية اشتراكية بقيادة الجنرال خوان فيلاسكو الفارادو Juan Velasco Alvarado ومن حوله من كبار الضباط فى بيرو .

وهنا يبرز وجه شبه جديد بين بيرو ومصر عبد الناصر .. فقد أدخلت تلك الحكومة الاشتراكية العسكرية اصلاحات زراعية واسعة تضمنت توزيع بعض الملكيات على المزارعين المعدمين وانشاء مؤسسات زراعية تعاونية، كما تضمنت تأميم البنوك وصناعة البترول والمناجم وصناعة صيد الأسماك وجمع وتسويق مخلفات الطيور البحرية .

وكانت تلك الحكومة الاشتراكية الاتجاهات أول حكومة لاتينية تأخذ بمبدأ عدم الانحياز من دول أمريكا اللاتينية فانضمت إلى حركة عدم الانحياز وعقد فى ليما عاصمة بيرو أول مؤتمر لعدم الانحياز فوق أرض أمريكا اللاتينية سنة ١٩٧٥ .

لكن لم تتح الفرصة لأعضاء حزب الابرا A.P.R.A. للمشاركة فى تلك الحكومة «العسكرية» بغض النظر عن ميولها واتجاهاتها الاشتراكية .

وما لبث أن أصيبت تلك الثورة الاشتراكية الفتية بنكسة طارئة سببها انفجار العنف العمالى وانتشار الاضطرابات بسبب زيادة

الأسعار ونقص الطعام مع زيادة التضخم وحجم الديون الخارجية.. وقد أدى ذلك إلى قيام حركة عسكرية مضادة يمينية الاتجاهات فى ١٩٧٦/٨/٢٩ بقيادة أحد معاونى الجنرال الفارادو .. وفي عهده خفتت أصوات الاشتراكية وغض النظر عن كثير من البرامج الاصلاحية الاشتراكية السابقة .. قد يذكرنا هذا بعهد أنور السادات بعد وفاة عبد الناصر ..

واستمرت الحكومات العسكرية أذن منذ سنة ١٩٦٨ إلى سنة ١٩٨٠ بشقيها الأول الاشتراكى ثم الثانى اليمينى أو يمين الوسط المعتدل إلى أن سلم الضابط الزمام إلى المدنيين الذين أعادوا «هيكل» الحكم الديمقراطى الخارجى سنة١٩٨٠ .

وقد جاءت محاولات الاصلاح الاجتماعى الاشتراكى متأخرة كثيرا ولم تتح لها فرصة تعميق جذور الاصلاحات فحدثت الردة اليمينية وعادت البلاد إلى ممارسة الشكل الخارجى أو الهيكل الخارجى للحكم الديمقراطى دون المضمون الديمقراطى وكفالة العدالة الاجتماعية . فبدأت موجات العنف الثورى منذ سنة ١٩٨١ واستمرت خلال السنوات اللاحقة على يد جماعات ثورية ماوية Maoist (متطرفة) الميول .. وقد شجع ذلك على فوز حزب الابرا APRA فى الانتخابات الرئاسية والبرلمانية سنة ١٩٨٥ ففاز الاشتراكى الشاب آلان جارسيا برئاسة الجمهورية فى وقت كانت بيرو فيه تواجه أشد الأزمات الاقتصادية

والاجتماعية والسياسية .. وسمع العالم لأول مرة عن ثوار حركة El Sendero Luminoso أى الطريق المنير أو الدرب المنير الذى لم يكن فى نظر أعضاء تلك الحركة سوى أقصى اليسار الماركسى .. وسيلة إلى إصلاح ما أفسدته أجيال طويلة من الإهمال والقهر والظلم .

هذه هى جمهورية بيرو التى قصدناها - زوجتى وأنا - نقلا من لندن فى يوليو ١٩٧٣ .. أقلتنا الباخرة الايطالية من ميناء برشلونة فى أسبانيا مرورا بفونشال عاصمة جزر الازوريز البرتغالية ثم ميناء لاجوايرا فى فنزويلا ثم مروراً بقناة بنما التى قادتنا من المحيط الاطلسى إلى المحيط الهادى وسط ادغال وأحراش مدارية كثيفة . وبعد أن عبرنا عدة أهوسة بسبب تفاوت الارتفاع بين جبال ووديان المنطقة رست باخرتنا بعض يوم فى ميناء بوينا فنتورا فى كولومبيا على المحيط الهادى ثم أخيرا فى ميناء كاياو Callao وهو ميناء مدينة ليما عاصمة بيرو (رغم أن ليما تقع على البحر إلا أن ميناءها هو كاياو ويفصلهما مسافة خمسة عشر كيلومترا تقريبا).. وكان أعضاء سفارتنا فى ليما فى انتظارنا فى الميناء وبصحبتهم المرحوم محمد جابر ، المصرى الوحيد فى بيرو وكان يملك إحدى وكالات الشحن والتفريغ فى الميناء .

كانت أولى المهام التى واجهتنا بعد وصولنا البحث عن مسكن جديد للسفير حيث أن المسكن القديم المخصص للسفير لم يعد مناسبا فقد كان يطل على جانب من كورنيش ليما فى حى ميرافلوريس لكن ذلك الحى لم يعد فى السنين الحديثة مقر السفارات ومساكن السفراء وافتتح مطعم كبابجى أمام دار سفارتنا .. وقد استمر بحثنا شهورا عديدة إلى أن وفقنا إلى سكن آخر مخصص للسفير فى حى السفارات الأنيق SAN Isidro .. وبمجرد انتهاء عقد الدار القديمة انتقلت دار سكن السفير المصرى إلى العنوان الجديد ..

وصلنا ليما أواخر يوليو ١٩٧٢ .. وقمت بزيارة مدير المراسم فى الخارجية البيروانية مثلما جرت العادة فى مقر وزارة الخارجية فى قصر اسبانى قديم يسمى La Torre Tagle فى ليما القديمة ، وهو قصر صغير يعود تاريخه إلى القرن الثامن عشر .. ثم حدد لى موعد الزيارة وزيرالخارجية الجنرال فيجيل انخيل لافلور بالى Miguel Angel dela Flor Valle ثم وكيل الوزارة الأول Carlos Qarria Bedoya وبقية كبار موظفى الوزارة .. كذلك زرت عميد السلك الدبلوماسى زيارة المجاملة التقليدية وكان – كما هى العادة فى البلاد الكاثوليكية – مندوب الكرسى البابوى .. وقد جرت العادة على عدم زيارة بقية السفراء الاجانب إلا بعد تقديم السفير الجديد لأوراق اعتماده

إلى رئيس الدولة .. ومن ثم يمكنه مزاولة أعماله الرسمية ومنها بدء الزيارات إلى أعضاء السلك الدبلوماسى وبقية الوزراء وكبار المسئولين .

وقد حدد لي موعد فى أغسطس لتقديم أوراق اعتمادى إلى رئيس الجمهورية الجنرال خوان فيلاسكو الفارادو قائد ثورة الجيش (الاشتراكية) ، منذ سنة ١٩٦٨ . ويشبهه البيروان «بعبد الناصر بيرو».

وصلت إلى قصر رئاسة الجمهورية فى ليما التاريخية وهو قصر قديم منيف شامخ فى الميدان الرئيسي المتسع Plaza Major فى ليما التاريخية أى ليما التى بناها المستعمرون الاسبان الأول على الطراز الكلاسيكي القديم Stilo Colonial وتجاوره كاتدرائية ليما الرئيسية أيضا والتى شيدت على نفس طراز المشربيات .. وكما جرت العادة فقد وصلت وأعضاء سفارتي إلى ذلك القصر فى سيارات رئاسة الجمهورية التى تقل السفراء يوم تقديمهم لأوراق اعتمادهم من مقر سكنهم إلى القصر الجمهورى ثم تعود بهم فى نفس مظاهر الحفاوة والأبهة الرسمية إلى مقر سفارتهم .. وكان يصحبنى كما جرت العادة هيئة السفارة وكانت مكونة من مستشار وسكرتير ثان وسكرتير ثالث وملحق ادارى أى أنها كانت سفارة «متوسطة الحجم» ..

وكانت هذه أول مرة أقدم فيها أوراق اعتمادي كسفير لمصر .. ومن ثم فقد كانت تجربة جديدة بالنسبة لى ..

حقا لقد سبق لي أن شاركت - باعتباري عضو هيئة سفارات مصرية - في تقديم بعض سفراء مصر لأوراق اعتمادهم وكنت بطبيعة الحال في موقف المشاهد لكن هذه المرة كنت ألعب الدور الرئيسي .. والمشاعر التي تصحب كلاً من الدورين مخالفة تماما .. فعند وصولنا صحبني مدير المراسم لتفقد حرس الشرف من الحرس الجمهوري الذي اصطف تحية لي .. أما زملائي باقي أعضاء السفارة فقد وقفوا بعيدا في انتظار انتهائي من تفقد حرس الشرف .. وعزفت موسيقى الحرس الجمهوري البيرواني السلامين الوطنيين المصري والبيرواني.. وأثناء عزف السلام المصري كنت ارتجف من فرط التأثر وهو شعور لم يسبق لي أن عهدته من قبل فقد كانت تجربة جديدة تماما بالنسبة لي .. وقد تكررت هذه التجربة بعد ذلك عند تقديمي لأوراق اعتمادي سفيرا لمصر في ايطاليا ثم اثيوبيا ثم استراليا ثم فيجي (١) ، وعزفت موسيقى الحرس في كل تلك العواصم السلام الجمهوري المصري تحية لسفير مصر لكن تأثري بها أول مرة في ليما كان بطبيعة الحال أقوى وأشد من المرات اللاحقة ..

---

(١) هذه التجربة تطبق في مراسم تقديم السفراء لأوراق اعتمادهم لدى جميع الدول المستقلة ، فيما عدا عند تقديم أوراق اعتماد السفراء في الأمم المتحدة لسكرتير عام الأمم المتحدة فهذه المراسم محدودة ولايتخللها عزف السلام الوطني ولا حرس الشرف الخ...

ثم صحبني مدير المراسم داخل أبهاء القصر الرخامية الأنيقة ، يتبعنا على بعد عدة خطوات منا موظفو المراسم البيروانية وأعضاء السفارة المصرية، متجهين إلى مكتب الرئيس الجنرال خوان فيلاسكو الفارادوا ، قائد ثورة بيرو العسكرية ورجلها القوى .. والمرادف للرئيس عبد الناصر بالنسبة للبيروانيين .. ودعاني مدير المراسم وحدى إلى دخول مكتب الرئيس وأغلق الباب ورائى من الخارج ..

ولما ولجت مكتب الرئيس وجدته جالسا إلى مكتبه . مكتب صغير أو متوسط الحجم فى حجرة عادية متوسطة الحجم جدرانها مبطنة بالأخشاب – اذ لم يستقبلني فى إحدى قاعات الضيافة الكبرى الرسمية التي يحفل بها القصر .. لكنه كان يفضل استقبال السفراء فى غرفة عمله اليومية، أى غرفة مكتبه .. وقد استقبلني باسما وقد هم بالنهوض ومعتذرا ، بالاسبانية، عن عدم قيامه لاستقبالى بسبب حالته الصحية (إذ كان قد فقد إحدى رجليه فى حادثة منذ سنوات واستبدلها برجل خشبية صناعية مما جعل حركته صعبة وثقيلة) ...

كنت فى تلك الأثناء أحاول أن اتفقد ما حولى بسرعة وانطبع فى ذهنى وجود لوحة خشبية بنية اللون كانت على مكتب الرئيس وقد كتب عليها بالأسبانية «الرئيس الجنرال قائد الفرقة خوان فيلاسكو الفارادوا». وكان الرئيس مرتديا زيه العسكرى كعهده أبدا .. وما أن انتهيت من قراءة تلك اللوحة إلا ووجدت الرئيس يرحب بى ويدعونى إلى

الجلوس قرب المكتب قائلا باسما : «لاتهاب الموقف يا سيادة السفير فأنا صديق لبلدك وكنت معجبا بمبادىء وسياسات الرئيس ناصر».. والواقع أن تلك الكلمات جاءت فى محلها فقد كانت تلك أول مرة أقدم فيها أوراق اعتمادى سفيرا لبلادى إلى رئيس دولة أجنبية ولا أنكر أنى كنت مازلت متأثرا من جراء عزف السلام الوطنى المصرى تكريما لوفادتى ومن رهبة الموقف ..

وقد استمر حديثى مع الرئيس خوان فيلاسكو الفارادوا أكثر من عشرين دقيقة، بالأسبانية بطبيعة الحال ، قدمت إليه فيها خطاب اعتمادى وأكدت له عزمى على بذل قصارى جهدى لتعزيز العلاقات الطيبة بين بلدينا .. وسألنى فيها عن تاريخ حياتى وأحوال مصر وسياساتها وعن أحوال سفارتى متمنيا لى التوفيق فى مهمتى الجديدة مؤكدا تعاطفه وتعاطف حكومته مع سياسات مصر وأمانيها .. وقد وجدته لطيفا رقيقا عطوفا عكس سمعته الخارجية فى بيرو كالرجل القوى الذى قاد ثورة الجنرالات والذى يسيطر على مقادير عشرين مليون بيروانى .. لكنى لم أدهش لذلك فإن تجاربى الشخصية تشير كلها إلى أن لكل منا أكثر من «شخصية واحدة» وأن الظروف والمناسبات هى التى تظهر جانبا معينا من جوانب شخصياتنا المركبة ..

بعد ذلك بدأت زياراتى التقليدية إلى أهم الوزراء البيروانيين، وزراء الدفاع والداخلية والتجارة الخارجية إلى جانب وزير الخارجية بطبيعة الحال وكانوا كلهم من العسكريين ثم سفراء الدول الاجنبية حسب ترتيب

أقدمياتهم .. ولم يكن فى بيرو أى سفير دولة عربية أخرى إنما كان هناك «قنصل فخرى» لبنانى ، وبعد ستة شهور وصل أول قائم بأعمال لسفارة الجزائر لافتتاح سفارة للجزائر فى بيرو اذ أن الدولتين أصبحتا وثيقتى الصلة فى حركة عدم الانحياز .. وقد خرجت من زياراتى لسفراء الدول الاجنبية الاقدم منى عهدا فى بيرو بحصيلة طيبة من المعلومات عن ثورة الجيش الاشتراكية فى بيرو وعن رجالها الأقوياء وعن اتجاهاتها ومشاكلها وعلاقاتها الصعبة مع الولايات المتحدة بسبب انضمامها إلى حركة عدم الانحياز كأول دولة لاتينية تجرؤ على الخروج على سياسة الولايات المتحدة التقليدية .. وقد ضمنت تلك الحصيلة تقارير عديدة إلى وزارة خارجيتنا بدلا من أن اكتفى بجعل تلك الزيارات مجرد زيارات مجاملة شكلية . وقد كررت هذه التجربة بعد ذلك فى روما وأديس ابابا وكانبرا ..

كنت ادرك بطبيعة الحال أن اهتمامات مصر ببيرو ليست كبيرة الحجم فإن بيرو دولة تبعد عن مصر كثيرا جغرافيا وسياسيا وتجاريا ولا يجمعها بمصر سوى انتماءاتنا إلى حركة عدم الانحياز وما تردد عن تأثر حركة الجيش الاشتراكية البيروانية ببعض سياسات واتجاهات عبد الناصر .. لكنى ركزت فى تقاريرى على عدة محاور أساسية ومهمة فى سياسات بيرو الخارجية منها علاقات بيرو بالعملاقين أو الدولتين العظميين ، ومدى نفوذ كل منهما فى بيرو ومدى انتشار أفكار عدم الانحياز فى بيرو وجيرانها ، ومستقبل الاصلاحات الاجتماعية

الاشتراكية في بيرو والقارة اللاتينية التى تتقاسم هي وبيرو نفس المشاكل تقريبا . وإلي جانب ذلك اهتممت كثيرا بتوطيد علاقاتى وعلاقات سفارتي بالجاليات العربية فى بيرو . حقا لم يكن بها سوي مصرى واحد .. لكن كان بها آلاف بل عشرات الآلاف من اللبنانيين والسوريين .. وكانوا متعطشين لوجود سفارة عربية يلتفون حولها وترعى شئونهم ومصالحهم حتى لو لم تكن سفارة لسوريا أو لبنان .. وجاءت حرب أكتوبر ٧٣ فزادت من روابطهم والتفافهم وتأييدهم لسفارة مصر ولسفيرها ..



قدمت أوراق اعتمادى إلى رئيس بيرو مثلما سبق القول فى أغسطس ١٩٧٢ .. وما لبثت أن فاجأتنا حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣ فقد تلقت سفارتنا فى بيرو يوم ٧ – ٨ أكتوبر برقية من وزارة الخارجية تفيد باستدعائى للقاهرة وندبى بها مدة شهرين والتصريح لى باصطحاب زوجتى معى أثناء تلك المدة ..

انقسم أعضاء سفارتى ما بين قائل بأن قيام حرب أكتوبر قد ألغى تعليمات الوزارة باستدعائى أى أن الاستدعاء حدث قبل قيام الحرب وأن من شأن قيامها ابقاء كل السفراء فى مواقعهم ، وما بين قائل بأن استدعائى إنما تم في ضوء قيام الحرب أو بسببها .. ومن ثم يجب تنفيذ الاستدعاء ..

اتصلت بوزير خارجيتنا المرحوم الدكتور محمد حسن الزيات وكان وقتئذ فى نيويورك لحضور جلسات الجمعية العامة ومجلس الأمن.. فاخبرنى الوزير بأنه لا يعلم شيئا عن ذلك الموضوع .. لكن ما دامت الوزارة قد استدعتنى فلابد من التنفيذ .. وعلى بركة الله ..

لكن فى تلك الأثناء أى يوم ٨ أكتوبر نفسه اتصل بنا مدير التليفزيون البيروانى قائلا أن بلاده وكل الشعب مهتم أشد الاهتمام بمتابعة الحرب بين مصر واسرائيل ومعرفة دوافعها وأهدافها ومن ثم فان التليفزيون قرر تقديم برنامج تليفزيونى يتيح لكل من سفير مصر وسفير اسرائيل ايضاح وشرح وجهات نظر بلديهما أمام الشعب والحكومة البيروانية على شاشة التليفزيون وذلك يوم ١٢ أكتوبر ١٩٧٣.. وبعد مشاورة زملائى أعضاء السفارة قررنا ضرورة قبولنا لتلك الدعوة بشريطة ألا نجلس سويا - سفير إسرائيل وسفير مصر - فى غرفة واحدة وإنما فى غرفتين منفصلتين فى مبنى التليفزيون البيروانى أثناء تقديم ذلك البرنامج .. وقد وافق مقدمو البرنامج على ذلك كما وافق سفير اسرائيل .. واتفق على أن يوجه عدد من كبار الصحفيين البيروانيين اسئلتهم إلى كل منا على حدة وأن يجيب عليها كل منا لمدة ٤٥ دقيقة .. وباللغة الاسبانية بطبيعة الحال ..

كان سفير اسرائيل يجيد الحديث بالأسبانية ولعله كان من أصل أرجنتينى كما كنت قد أصبحت بعد فترة عملى فى كولومبيا وتليها المكسيك قادرا على الحديث بطلاقة بالاسبانية بالمثل.. ولم يكن برنامجا

سهلا فقد كان على كل منا أن يواجه الصحافة قرابة ٤٥ دقيقة، وعلى أى حال فقد قررت وزملائى ارجاء سفرى إلى القاهرة إلى ما بعد ذلك البرنامج التليفزيونى يوم ١٩٧٣/١٠/١٢ مقدرين أن ذلك البرنامج كان من الأهمية السياسية والإعلامية لسفارتنا ولمصر بل وللعالم العربى بأكمله بحيث يستأهل تأجيل السفر أربعة أيام .

وقد تم البرنامج وفقا للنظام الذى اقترحناه .. وبدأوا بتوجيه الأسئلة إلى سفير اسرائيل الذى أجاب عليها على مدى خمس وأربعين دقيقة .. فبكى وتباكى شارحا كيف أنه فقد ابنه أول يوم من أيام المعارك وألقى اللوم على مصر لبدئها «العدوان» على اسرائيل وطالبها بوقف القتال والانسحاب إلى المواقع الأولى قبل يوم ٦/١٠ مؤكدا رغبة اسرائيل فى السلام مع مصر وقبولها للتفاوض معها .. إلى آخر حجج اسرائيل المعروفة عن رفض مصر والعرب للتفاوض والسلام مع اسرائيل منذ ١٩٤٨ ..

لكن موقف مصر كان أكثر قوة وعدالة وأشد اقناعا.. وكان سهلا على أى مصرى يجيد الحديث بالاسبانية أن يسفه حجج سفير اسرائيل ويرد سلاحه إلى نحره ! فقد كان يكفينى أن ابرز أن المعارك الدائرة فى تلك الاثناء إنما تدور على أرض مصرية (وليست اسرائيل) أرض تحتلها اسرائيل قسرا وعدوانا منذ سنة ١٩٦٧ .. وكيف أن اسرائيل لم تستجب لقرارات مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة بالانسحاب من الأراضى العربية التى تحتلها سواء فى مصر أو فلسطين أو سوريا

فى ضوء قرار مجلس الأمن القاضى بعدم شرعية احتلال الأراضى بالقوة وكيف أن اسرائيل افشلت مهمة يارنج وغيره من الوسطاء وأنها تحدت قرارات الأمم المتحدة واقفلت الباب أمام الحل السلمى كما أوصى به المجتمع الدولى متمثلا فى الأمم المتحدة بحيث لم يعد أمام مصر من سبيل سوى اللجوء إلى «حرب تحريرية» غرضها تحرير التراب المصري من احتلال اسرائيلى غير مشروع دام ست سنوات .. وإذا كانت اسرائيل قد استجابت لتوصيات الأمم المتحدة لما كان هناك ضرورة لحرب تحريرية ، ولما كانت اسرائيل تقف اليوم ذلك الموقف . «بسبب عدوانها وتحديها المجتمع الدولى» أما مصر فليست بمعتدية لأن المعارك إنما تدور على أرضها ضد قوات احتلال اسرائيلية .. وإذا ما انسحبت اسرائيل من سيناء المصرية لكفت المصريين القتال .. ولكفت نفسها مشقة البكاء والتباكى ..

واستعرضت عدوان اسرائيل وظلمها الصارخ للفلسطينيين الذين طردتهم اسرائيل من أراضيهم وأراضى أجدادهم وأسلافهم كيف أنها تعامل من بقى منهم تحت احتلالها معاملة المواطنين من الدرجة الثانية وأنه طالما استمرت سياسة اسرائيل العدوانية هذه فانها لن تظفر إلا بعداء الشعوب العربية بطبيعة الحال .

أحسست بنهاية البرنامج انى قد أديت دورى بما أرضى ضميرى .. لكنى لم أكن أتوقع عند خروجى من مبنى التليفزيون أن ألقى عشرات

من البيروانيين من أصل سورى ولبنانى وفلسطينى كانوا ينتظرون خروجى ليحتفوا بى وليهنئوننى على حسن أدائى .. واحتشدوا من حولى مصافحين أو معانقين.. ورافقنى جمع كبير منهم إلى دار سفارتى فى موكب ضم عدة سيارات . وقد زادت هذه المناظرة التليفزيونية من التفاف الجاليات العربية فى بيرو حول السفارة المصرية وحول سفير مصر . واستمر الحال على هذا المنوال إلى ما بعد نقلى من بيرو ووصول خلفى .. إلى أن تم توقيع معاهدة السلام بين مصر واسرائيل ففتر حماس الجاليات العربية أو انقلب إلى نقد صريح لسفارتنا هناك ..

ولاحظت بالمثل أن رجال وزارة الخارجية البيروانية قد تأثروا من مشاهدتهم لتلك المناظرة التليفزيونية وهنأنى عليها وكيل الخارجية كارلوس جارسيا بيدويا عندما زرته مستأذنا فى السفر إلى مصر بسبب استدعائى . كما زرت وزير الخارجية ورئيس الوزراء مستأذنا فى السفر بسبب استدعاء حكومتى لى .. وقد تمنوا جميعا لمصر ولى حظا سعيدا .

إلا أنه عندما التفتنا إلى حجز تذاكر السفر وتحديد طريق العودة فوجئنا بمن يخبرنا بأن مطار القاهرة مقفل أو قد يكون مقفلا بعض أوقات النهار، فقررنا التوجه أولا إلى لندن ومتابعة الموقف من هناك..

وعندما وصلنا لندن فوجئنا بوقوع غارات جوية على مطار القاهرة

.. ثم بحدوث «الثغرة» والتطورات اللاحقة .. ومن ثم فان سفارتنا فى لندن أوصت بسفرنا إلى طرابلس وبنغازى فى ليبيا وترقب الأحداث من هناك .. فقد يمكن قيام طائرات من بنغازى أو طرابلس إلى القاهرة .. أما إذا لم يمكن فقد يستدعى الحال السفر من بنغازى إلى مصر بالطريق البرى بالسيارات .

وكنا عدة سفراء مصريين وعائلاتهم فى الطائرة من لندن إلى طرابلس يوم ١٩٧٣/١٠/٢٠ بعضنا عائد من الاجازة إلى مصر ، أما أنا فقد كنت الوحيد المسافر فى مهمة رسمية . ويبدو أن الليبيين لم يكونوا راضيين عن توقف القتال فى جبهة قناة السويس وحدوث الثغرة إلخ فلم يحسنوا استقبالنا فى طرابلس أو بنغازى فبقينا فى المطارات عدة ساعات وقوفا لم نجد مقعدا نجلس عليه نحن وزوجاتنا كما لم نجد وسيلة إلى شراء فنجان قهوة أو فنجان شاى أو شطيرة جبن .. إلا أنه لحسن حظنا لم تطل إقامتنا فى ليبيا سوى ساعات معدودة .

وقبل منتصف الليل بقليل أعلن عن افتتاح مطار القاهرة والسماح بهبوط طائرات ركاب بها فركبناها وهبطت بنا فى مطار القاهرة المظلم تماما بسبب ظروف الحرب ، بعد منتصف الليل بساعة أو بساعتين صبيحة يوم ١٩٧٣/١٠/٢١ .

توجهت صباح اليوم التالى إلى وزارة الخارجية ، كان السيد اسماعيل فهمى وزير السياحة قائما بأعمال وزير الخارجية المتغيب فى

نيويورك .. وكان من المتوقع والشائع أن يتولى منصب وزير الخارجية قريبا جدا ولعله كان يعلم ذلك ويستعد له .. وقد اذن لى بمقابلته بمجرد أن طلبت المقابلة .. رحب بى قائلا أنه لم يطلب حضورى لكنه يعتقد أن رياسة الجمهورية هى التى استدعتنى حسبما سمع لتولى منصب رئيس هيئة الاستعلامات بدرجة نائب وزير ونصحنى بالتوجه إلى الرئاسة .. اخبرته بدهشتى الشديدة لهذا النبأ . ولما كنت أعلمه عن اسماعيل فهمى من شغف وحب بالدبلوماسية – فهو دبلوماسي محنك منذ سنة ١٩٤٦ – فقد أسررت إليه بعدم سرورى لسماع ذلك النبأ حيث أنى من هواة الدبلوماسية ومتمسك بالبقاء فى السلك الدبلوماسى الذى أحببته واندمجت فيه منذ سنة ١٩٤٨ .

وأضفت أنى كنت أفضل لو كانوا قد سألونى رأيى قبل استدعائى من بيرو اذن لأخبرتهم بتفضيلى لمنصب السفير ..

فنصحنى اسماعيل فهمي بالتوجه إلى الرياسة لمعرفة حقيقة الأمر .. على أن أعود لزيارته قبل سفرى إلى بيرو . وأضاف أنه لا يؤمن بانتداب السفراء من الخارج لتولى مهام طويلة الاجل فى مصر مع احتفاظهم بمهامهم فى الخارج . وأنه علىّ أن أختار ما بين منصب السفير فى الخارج أو أى منصب آخر فى مصر ولو كان بدرجة نائب وزير .. توجهت إلى مكتب السيد / محمد حافظ اسماعيل مستشار الأمن القومى للرئيس وكان مقره فى سراى عبد المنعم فى مصر

الجديدة واجتمعت بمساعدى السيد حافظ اسماعيل . وكانوا أكثر علما بتفاصيل موضوعى واشاروا علىّ بالتوجه إلى مبنى التليفزيون لمقابلة الدكتور أشرف غربال المستشار الصحفى للرئيس السادات (١) والدكتور أشرف غربال مثله مثل السيد / اسماعيل فهمى دبلوماسى قديم محنك منذ سنة ١٩٤٦ وتجمعنى به زمالة قديمة واعجاب متبادل . وكان حينئذ يشغل منصب المستشار الصحفى للرئيس بدرجة وزير .

استقبلني د. أشرف غربال – المستشار الصحفى لرئيس الجمهورية في مكتبه المؤقت بمبني التليفزيون بوابل من العتاب الأخوى ..

أهكذا تأخرت في العودة إلى مصر منذ ٧ اكتوبر إلى ٢١ منه ؟ أهكذا تركته يعمل وحيدا في ظروف الحرب الاعلامية الصعبة وكان أمله أن أشد أزره ونعمل سويا ؟ واضاف أن السيد الرئيس السادات (رحمه الله) كان قد وافق على أن يتولى د. أشرف غربال مهام وزير الاعلام بمجرد نشوب حرب اكتوبر وأن يوجد من حوله كل من السفير سمير أحمد كرئيس لهيئة الاستعلامات وان يعود الاستاذ محمد عبد الجواد من جديد لرئاسة وكالة أنباء الشرق الأوسط (كان محمد عبد الجواد قد ترك الوكالة ثم عاد إليها فعلا) .

شرحت له أسباب تأخيرى في العودة مثلما سبق القول . لكنى

(١) السفير د. أشرف غربال كان يشغل منصب المستشار الصحفى للرئيس السادات بدرجة وزير ثم عين بعد ذلك سفيرا لمصر فى واشنطن وظل بها إلى سن التقاعد وهو من ألمع سفراء الخارجية .

اضفت بأنى لم أكن أعلم بسبب استدعائى فلم يذكر فى البرقية .. وانه لو كانوا سألونى رأيى لاخبرتهم بتفضيلى البقاء فى منصبى بالخارج بالسلك الدبلوماسى اجابنى د. غربال بأن الأمور قد حلت نفسها بنفسها على أى حال وسيبقى هو فى منصبه كسفير بالخارجية ومنتدب كمستشار صحفى للسيد الرئيس كما سأظل أنا فى موقعى اذا شئت .. لكنى ما دمت قد حضرت إلى مصر فلا أقل من أن أمضى شهرى الانتداب فى العمل فى نفس الفريق برفقته (وتحت أشراف د. عبد القادر حاتم) فى مقابلة الصحفيين الاجانب وتزويدهم بالانباء وتحديد خطوط السياسة الاعلامية اليومية فى ظل الحرب القائمة وقد كان وهكذا أمضيت شهرى الانتداب من ٢١ اكتوبر إلى ٢١ ديسمبر ١٩٧٣ . وما أن انتهت مهلة الشهرين الا وبدأت استعدداتى للعودة لتولى سفارتى فى ليما ببيرو وتذكرت تعليمات السيد / اسماعيل فهمى (الذى أصبح وزيرا للخارجية فى تلك الاثناء بعد تعيين المرحوم / الدكتور محمد حسن الزيات مستشارا للرئيس للشئون الخارجية) بالمرور عليه قبل مغادرتى إلى ليما وبمجرد نهاية الشهرين ففعلت .

استقبلنى وزير الخارجية الجديد باسما وسألنى لم العجلة فى السفر إلى ليما ؟

فذكرته بتعليماته السابقة بأنه لا يرضى عن انتداب السفراء بالخارج فى مهام طويلة بمصر وأن عليهم أن يختاروا ما بين البقاء فى رياسة سفارتهم وبين المناصب الرفيعة فى مصر ، فلا يمكن الجمع بين

الاثنين وهأنذا الآن انفذ تعلمياته بالعودة إلى منصبى بالخارج بمجرد نهاية مدة الانتداب وأنى كما اخبرته لا أرضى عن منصبى بالسلك الدبلوماسى بديلا ..

انفرجت أسارير وجه السيد أسماعيل فهمى وأخبرنى وهو يودعنى ويأذن لى بالسفر بأنه ينوى عدم تركى فى ليما طويلا وأنه ينوى نقلى سفيرا فى بلد «أكثر أهمية لمصر وأكثر جدارة بى» . شكرته بطبيعة الحال لكنى ذكرته بانى لم أكد أمضى شهرين فى ليما ورجوته أن يتركنى بها لأكمل السنة على الاقل مراعاة لشعور المسئولين البيروانيين لكن آخر كلماته لى قبل سفرى كانت العودة لتأكيد نيته على نقلى من بيرو للاستفادة منى فى موقع آخر فى قلب الأحداث .

عدنا إلى بيرو بالطائرة فوصلناها أواخر ديسمبر ١٩٧٣ لكن كلمات إسماعيل فهمى جعلتنا وكأننا سائحون فى ليما بيرو وادركنا أنه لن يكتب لنا الاستمرار فيها طويلا .

ورغم ذلك مرت الشهور الواحد تلو الآخر وليس هناك ماينبىء بقرب النقل فلما جاء ديسمبر ١٩٧٤ أى بعد مرور عام كامل على ذلك الحديث ولم ننقل من بيرو ظننا بأن السيد وزير الخارجية قد غير رأيه أو أنه اقتنع برجائى بتركى أمضى مدتى بأكملها فى بيرو مراعاة لشعوره المسئولين بها ..

وهكذا طلبنا من وزارة الخارجية المصرية السماح لنا باجازة

نمضيها بالقاهرة .. وتأكد ظننا بشأن الغاء أو تأخير النقل حين وافقت الوزارة على طلب الاجازة . لكن عند وصولنا للقاهرة استقبلنا بالمطار أحد زملائنا بوزارة الخارجية (١) ليزف إلينا - في المطار - نبأ صدور القرار الجمهوري بتعييني سفيرا ومندوبا مناوبا لدى الأمم المتحدة في نيويورك .. وكأن السيد / إسماعيل فهمي أراد أن تكون زيارتي للقاهرة هذه المرة زيارة تشاور وتزود بتعليماته قبل التحاقي بوظيفتي الجديدة في نيويورك ..

أمضينا أجازتنا بالقاهرة ثم عدنا إلى ليما بيرو للاستعداد لتنفيذ النقل إلى نيويورك بعد شهرين أو ثلاثة .. كانت شهور الاستعداد للسفر من أصعب المهام . كنا قد اقمنا صلات صداقة وطيدة بكثير من أفراد الجاليات اللبنانية والفلسطينية والسورية في بيرو وبينهم عائلات جحا وديدوب وبرهومي وغيرهم كثيرون.. وكان فراقهم بهذه السرعة مدعاة لأسفي وأسفهم .. وقد أرسل بعضهم برقيات وخطابات للقاهرة لمحاولة التمسك بي سفيرا لمصر في ليما لكن دون فائدة .

أمضينا هذه الشهور القليلة في حضور حفلات الوداع التي أقيمت لتكريمنا في منازل السفراء الأجانب وكبار الجاليات العربية وأصدقائنا من البيروان وقد أقام لنا وزير الخارجية ميجيل انخيل دى لافلور باللى مأدبة عشاء كبيرة في مقر وزارة الخارجية في قصر تورى تاجلى بمناسبة تسلمي أحد الاوسمة البيروانية الراقية وقد انعموا به علىّ

(١) السفير الاستاذ محمد سعيد البنهاوى سفير مصر حاليا في سريلانكا .

استثناء من القاعدة التى تقضى بعدم تسليم نياشين بروانية الا لمن أمضى من السفراء الأجانب سنتين على الأقل فى بيرو . أما وكيل الخارجية الدائم أى السفير جارسيا بدويا فقد أبدى «شكره لوزارة الخارجية المصرية لتعيينها لسفير من طبقتى سفيرا لمصر فى بيرو ولو لمدة وجيزة» .

أما الأخوة Giha(حجا) فقد أقاموا تكريما لنا حفل غداء Pachamanca"س فى عزبتهم التى تقع مائة كيلو متر جنوبى ليما قرب مدينة بيسكو ودعوا إليها أصدقائى من السفراء الأجانب وأعضاء السفارة المصرية والأصدقاء من الجاليات العربية وبصفة خاصة أعضاء البرنامج العربى فى إحدى محطات ليما الاذاعية .

أما الـ Pachamanca هذه فلم تكن الا «المسقوف» الذى تعرفه العراق وبعض البلاد العربية جيداً وهو يستلزم حفر حفرة عمقها متر وأكثر ويضع فى أسفلها الفحم والأخشاب الموقدة شديدة الحرارة وفوقها طبقة من ورق بعض الاشجار العريضة كالموز مثلا ويضع فوقها الخروف قطع اللحم والدجاج وتغطى هذه بطبقة أخرى من أوراق الاشجار العريضة وتهال فوقها طبقة من الحجارة والرمال لسد الحفرة تماما وكأنك بهذا تطهو الخروف واللحم والدجاج فى حلة بخار Pres-sure Cooker فينضج بعد ساعتين أو اكثر وعلى مهل وتصبح اللحوم والدجاج طرية حسنة الطهى لذيذة المذاق . وقد أعجب السفراء الأجانب كثيرا بهذا الطريقة العربية البيروانية .

وفى انتظار تنفيذ النقل فى الموعد المحدد زرنا معالم ليما الشهيرة كلها ومنهـا متحف الذهب Museo de Oro (١) فـى إحـدى ضواحى ليما وقصورها التاريخية وكاتدرائيتها رائيتها وبقية احيائها التى لم نكن قد عرفناها .. وكنا نمضى عطـلات نهاية الاسبوع سعيا وراء الشمس . فعنـدما تغطى ليما بطبقة سميكة من السحاب المنخفض بفعل اصطدام التيارين البارد (همبولت) والدافىء (نينو) أمام سـواحلها – فى شـهر يوليـو عز الشتاء – ليس أمام الراغبين فى الاسـتمتاع بالشـمس سـوى تسلق سـفوح الجبال أو التلال التي تقـع خلف ليما والتي تـؤدى إلى مرتفعات جبـال الانديز ويعـد نصف سـاعة (بالسـيارة) على الاكثر من تسلق تلك المرتفعات خلف ليما وعلى ارتفـاع ٨٠٠ متـر تقريبا عن سطح البحـر – توجد سلسلة من الاحيـاء السكنية الجبلية الراقيـة أهمـها حى كاليفـورنيا . وهنا فى كاليفورنيا يوجد عـدة نوادٍ رياضية واجتماعية أهمها نادى لوس كونـدوريز نادى النسـور الجبلية وهـو نادٍ راقٍ يضم خلاصة أو صفوة المجتمع البيروانى فى ليما وأعضاء السلك الدبلوماسـى ، وبه ملاعب تنس وجولف وحمام سباحة وحدائق غناء ومطعم راق يتميز بخدمة راقية ويتيح للاجانب تذوق أهم ألوان الطعام البيروانى . ومن هـذه الاطعمة اللذيذة طبـق الـ سفيتشى وهو عبـارة عن قطع من لحم

---

(١) يضم هذا المتحف قطعا ذهبية أثرية من عهد الإنك تذكرنا بالتحف الفرعونية النادرة.

الاسماك النيئة وتترك فى عصير الليمون عدة ساعات حتى يتم نضجها بفعل عصير الليمون وتؤكل مع شرائح البصل .

ومن محاسن نادى النسور هو إنه بعد نصف ساعة من ترك مدينة ليما تحت غطاء كثيف من السحب المنخفضة ، تكون قد اخترقت هذا الحاجز الذى يحجب شمسا مدارية محرقة تدعوك إلى الاستمتاع بمياه حمام السباحة ، وبعد تمضية سحابة النهار تحت هذه الشمس الساطعة يمكنك العودة إلى شتاء ليما ورطوبتها المعتادة فى فصل الشتاء .. وتجدر التذكرة بأن شتاء ليما هو فى المدة من يونيو إلى سبتمبر أو أكتوبر لأنها فى النصف الجنوبى من الكرة الأرضية وشتاء ليما بارد رطب لكن صيفها حار جاف .

ولما كنت محبا للحضارات القديمة ، وكان هذا أحد أسباب سعيى وراء ليما منذ البداية ، فكان لزاما علينا قبل مغادرتها نهائيا أن نزور مدنها القديمة التاريخية .. اركيبا المدينة الثانية فى بيرو - وكوسكو عاصمة الانكا وماتشوبتشو التاريخية الشهيرة وكلها تقع فوق جبال الانديز جنوب ليما وقرب حدود بيرو مع شيلى وبوليفيا ..

تقع اركيبا - وأصلها كلمة من لغة الـ Quechua الهندية معناها «لنقف هنا لنستريح برهة» ويقال أن أحد ملوك الانكا قالها فى إحدى تنقلاته من كوسكو إلى الساحل فحط عصا الترحال عند البقعة التى

اسميت مدينة اركيبا Arequipa ثاني مدن بيرو حاليا وهي تقع فوق جبال الانديز على بعد ثلاثمائة كيلو متر تقريبا جنوبي ليما - وقد اتجهنا جنوبا فى الطريق السريع الساحلى وهو جزء من شبكة الطريق Pan American Highway الذى يوصل مدن أمريكا اللاتينية بعضها بالبعض الآخر (وهذا الطريق السريع الدولى حسن فى بعض البلاد وسيئ فى مواضع أخرى ، لكنه فى بيرو يمتد بحذاء الشريط الساحلى) إلى نقطة لا تبعد كثيرا عن حدود شيلى ثم بدأنا الصعود فوق جبال الانديز مسافة مائة كيلو متر أخرى إلى أن وصلنا اركيبا وهى مدينة متوسطة الحجم (٣٠٠ ألف - ٤٠٠ ألف نسمة) بها أحياء قديمة من عهد الحكم الاسبانى وعدة كنائس وكاتدرائية ، مبنية من الحجارة البركانية وعلى أى حال فلم تستوقفنى كثيرا ..

لكن أهمية اركيبا تكمن فى قربها من كوسكو التى تقع على ارتفاع ٣٥٠٠ متر عن سطح البحر فوق اركيبا فى اتجاه شمال شرق تعدادها حاليا حوالى ٢٠٠ ألف نسمة لكنها تعتبر متحفا مفتوحا . يكفيك التجوال فى شوارعها لتذوق رشفات الجمال والابداع الفنى والمعمارى . إذ كانت كوسكو عاصمة الإنكا ثم مركزا مهما فى عهد الحكم الاسبانى للقارة اللاتينية . وأقام فيها الاسبان الأوائل عديدا من الكاتدرائيات والكنائس والقصور الفخمة فيما يسمى Stilo Colonial كلها من

الحجارة البيضاء الوردية أو الوردية البيضاء المأخوذة من الجبال المحيطة وترجع كاتدرائية كوسكو إلى القرن السادس عشر والسابع عشر ، وكذا متحفها الفخم قلعة ساكسا هوامان فإنها تعود إلى عهد امبراطورية الانكا قبل الفتح الاسبانى فى القرن السادس عشر بقرن كامل . وتشتهر كوسكو بكرنفالها الفريد اللون الذى يسبق فترة الصيام إذ يجمع ما بين الطقوس الدينية الهندية الحمراء التقليدية والطقوس الاسبانية البدائية الكاثوليكية (١) ، وفى فترة الكارنفال تغص المدينة بالسائحين الاجانب (أمريكيين وكنديين ولاتنيين) وسكان اركيبا وكوسكو وليما ..

يشعر الضيف الغريب عند وصوله كوسكو بشعور غريب أيضا .. بسبب شدة الارتفاع وشحة الأوكسجين فى الهواء الذى نستنشقه .. كثيرا ما يشعر الزائر باشتداد خفقان القلب وبالتعب السريع أو بالصداع الذى يسمونه هناك صداع الارتفاع Sa-roche .. وعلاج أهل كوسكو لهذه الظاهرة هو الراحة فى السرير عدة ساعات بعد الوصول مباشرة وتناول فنجان أو أكثر

---

(١) جدير بالذكر أن الهنود الحمر فى أمريكا اللاتينية بعد أن اضطرتهم أسبانيا إلى التحول إلى الكاثوليكية مازالوا متمسكين بطقوسهم الهندية وأصبحت عباداتهم تحوى خليطا من الطقوس الكاثوليكية والهندية الأصلية .

من شـــراب أوراق الكوكا الساخن مثل الشاى فتـأثيره مهدى للأعصاب ..

ومن كوسـكو فإن أهم وسـيلة لزيارة مدينة متشوبتشو التاريخية هى ركوب قطار صغير مثل قطارات مدن الدلتا الصغيرة يتسلق بك الجبال من ماتسوبتشو إلى كوسكو أو بالأحرى يهبط بك من كوسكو على ارتفاع ٣٥٠٠ متر إلى مدينة ماتشوبتشو على ارتفاع ٢٠٤٥ مترا فوق سطح البحر وتقع ١٣٠ كيلو مترا شمال كوسكو وسط جبال الأنديز ولم تكتشف الا سنة ١٩١١ إذ لم يحفل بها الغزاة الاسبان وأهملوا ذكرها رغم أنها كانت من أهم مدن امبراطورية الانكا بل لعلها تعتبر مدينة الانكا المقدسة لما بها من آثار وحصون مهمة صنعت كلها من قطع من الحجارة البركانية متوسطة الحجم الواحدة منها ٢ - ٢,٥ متر مكعب وقد تفوق فى الحجم قطع الجرانيت التى صنع منها الهرم الأكبر فى الجيزة .. كانت مدينة مثالية وحصينة من مدن الأنكا ويقدر عدد سكانها فى أزهى عصورها بما لا يقل عن عشرين ألف نسمة أو أكثر وهى حاليا غير مسكونة إذ تعتبر متحفا فى الهواء الطلق ويؤمها آلاف السياح يوميا .

ومن أطرف ما يحكى عن تاريخ الأنكا والحضارات الهندية الشبيهة ما يتردد حول منطقة ناسكا التى تقع فوق سفوح الانديز قريبا من

الشريط الساحلي في القطاع الجنوبي من بيرو ما بين ليما واركيبا .
فقد اكتشفت في العشرينات من هذا القرن آثار حضارة ناسكا ويعود
تاريخها إلى سنة ٢٠٠ قبل الميلاد وامتد حتى سنة ٦٠٠ بعد الميلاد .
وبطريق الصدفة المحضة اكتشفت إحدى الطائرات المحلقة فوق تلك
المنطقة خطوطا هندسية منتظمة تمتد في بعض المواضع لمسافة
خمسمائة متر وفي بعض المواضع الأخرى إلي مسافة ثمانية كيلو
مترات ظنها الطيار أول الأمر ممرات جوية Runway لمطار قديم تم
إهماله وإغلاقه .. وقد أبلغ المسئولين بما رآه فارسلوا فريقا من رجال
الآثار والكشافين تسلقوا الجبال ووصلوا إلى ذلك الموقع .. ولشد ما
كانت دهشتهم أن وجدوا أن علامات تلك الممرات تحددها صفوف من
تماثيل حجرية قديمة لعديد من الحيوانات مثل القردة أو الخراف أو
بعض الطيور والنسور . ولم تكن تلك الخطوط الهندسية الممتدة ولثمانية
كيلو مترات لتعنى الكثير بل كانت صعبة الفهم اللهم إلا إذا قبلنا
بالنظرية القائلة بأنها فعلا كانت حدود ممرات جوية لارشاد الطيارين ..
لكن أية طائرات وأى طيارين ؟ تقول تلك النظرية بأن آثار ناسكا إنما
كانت ممرات لهبوط سفن فضائية تحمل زوارا من الفضاء الخارجي
اختاروا تلك البقعة السحيقة لهبوطهم لزيارة أرضنا فيما بين القرن
الثاني قبل الميلاد والقرن السادس بعد الميلاد . وليس هناك من تفسير

مقنع آخر لتلك الخطوط التى هى فى الواقع أقرب شيئ إلى حدود مهابط الطائرات فى عصرنا هذا (١) .

وإلى جانب تلك الممرات الجوية وجدت فى ناسكا «جبانات» (مدافن) لموميات تحللت وأقمشة ملونة زاهية .. ومازال سرناسكا إلى اليوم يثير الكثير من الجدل والتكهنات وقد قامت نظريات كثيرة تضمنتها كتب عديدة تحاول اقامة الدليل على زيادة رواد من الفضاء الخارجى لعالمنا هذا عبر عدة عصور وفى مواقع مختلفة من الكرة الأرضية منها مصر (عصر بناة الأهرام) وبدليل علماء الفلك والكيمياء والطب والزراعة ورواد التقدم العلمى المدهش فى مصر فى عالم كان مازال يغط في ظلمات الليل .. - فما عدا مصر - وظلت بقية العالم تسبح فى الظلام ومنها ناسكا وربما المكسيك فى عصور لاحقة وتحاول بعض هذه النظريات

---

(١) اقرأ كتاب The chariots of the gods by Erich von Daniken .

وكتاب Los Secretos de la Gran Pyramide de Guiza لمؤلفه رودلفو بنافيديس وكلاهما يذهب إلى أن بناة الاهرام جاءوا من الفضاء الخارجي وأن قدماء المصريين اكتشفوا امريكا الجنوبية وهم أصل السلالات والحضارات القديمة بها .

وجدير بالذكر أن العالم البريطانى الشهير سير ايزاك نيوتون (مكتشف الجاذبية الأرضية الخ) يؤمن هو الاخر بأن الحضارة المصرية القديمة أتت من الفضاء الخارجى قبل عهد الطوفان .

اقامة الدليل على وجود عدة عوامل أو صفات مشتركة ما بين قدماء المصريين أو بالأحرى كهنة قدماء المصريين وزوار الفضاء الخارجى الذين أورثوهم العلوم والمعرفة ، وامتدت آثارهم من بعد مصر إلى المكسيك وبيرو (١) .

خلاصة القول إن هناك الكثير من عناصر الشبه ما بين مصر وبيرو (والمكسيك أيضا) مما قد يثير الدهشة حقا . فإلى جانب تشابه الحضارات القديمة : عبادة الشمس «رع» (الأله أتون والأله أمون) وبناء الاهرام في مصر والمكسيك و (ماتشوبيتشو) وتقدم فنون صياغة الذهب ونسج وتطريز الأقمشة تذهب بعض النظريات إلى أن لغات بعض القبائل الهندية الامريكية مأخوذة أصلا من الهيروغلوفية مما قد يدل على وصول المصريين القدماء إلى امريكا الجنوبية قبل البرتغاليين والاسبان فى سفن مصنوعة من الغاب أو البوص وهو ما أثبت تور هايردال إمكان حدوثه وفعله حقا على سفينته المسماة RAA المصنوعة من البوص (الغاب) وعبر بها المحيط الهادى (٢) .

وقد ضمن كتابه عن رحلات المركب دراسة تفصيلية لأوجه التشابه ولتأثير مصر على حضارات أمريكا الوسطى والجنوبية إلى جانب ذلك

---

(١) اقرأ اسرار هرم الجيزة الأكبر بالاسبانية وترجمة إلى لغات أخرى لمؤلفه رودلفو ينافيديس وكتاب chariots of the Gods لمؤلفه اريك فون دانيكين .

(٢) The Raa Expechition لمؤلفه النرويجى تور هايردال .

فإن مناخ ونبات الشريط الصحراوى الساحلى فى بيرو يشابه وادى النيل تربة ومناخا وانتاجا .. حتى القطن طويل التيلة فإن بيرو مشهورة بانتاج نوع من القطن طويل التيلة اسمه PIMA .

ثم انظر إلى ثورة العسكريين الاشتراكية بقيادة الجنرال خوان فيلاسكو الفارادو سنة ١٩٦٨ (عبد الناصر بيرو) ذات الاصلاحات الاجتماعية والاشتراكية الطابع ، والتى تبعتها فترة اتجاهات يمينية معتدلة بقيادة الرجل الثانى فى ثورة بيرو العسكرية الجنرال فرانسيسكو موراليس برموديز (أنور السادات بيرو) بعد وفاة خوان فيلاسكو الفارادو !!

ولئن كانت هناك أوجه تشابه - حقيقية كانت أو مصادفة - ما بين البلدين فان التشابه يقف عند حد كثرة الزلازل فى المكسيك وبيرو وخلو مصر من هذه الظاهرة وضعفها النسبى والحمد لله .. فقد شاءت الاقدار أن نشهد ونحضر زلزالين كبيرين وقعا فى بيرو واهتزت لهما ليما كثيرا أثناء اقامتنا القصيرة بها .

كانت المرة الأولى ليلا .. فى وسط الليل وظلمته .. كنا نياما .. واستيقظنا مروعين على صوت قطار أو عدة قطارات تسير من تحت حجرة نومنا بدأت أصوات القطارات بعيدة أولا ثم اقتربت منا كثيرا ثم مرت من تحتنا تماما وزاد صوتها وضوحا وزادت الحجرة بما فيها اهتزازا وتأرجحا حتى السرير نفسه .. ثم بعدت القطارات

تدريجيا وخفضت معها الأصـوات إلى أن تلاشت تماما بعد دقيقة أو أكثـر .

كانت قوة هذا الزلزال قريبة من الثمانية درجات على مقياس ريختر أى أنه كان زلزالا شديدا بكل المقاييس .. ومروعا حقا لمن لم يعتد هذه الظاهرة .. وقد فكرنا أول الأمر في مغادرة السرير مهرولين . لكن إلى أين ؟ فبقينا فى أماكنا ولم تحدث اضرار هامة في سفارتنا لكن حدثت اضرار كثيرة فى أحياء ليما الفقيرة .

أما المرة الثانية فكنت قد تناولت طعام إفطارى وتهيأت للذهاب إلى مكتبى بدار مكاتب السفارة .. وفى الطريق إلى المكتب كانت اهتزازات السيارة المعتادة تغطى ما يحدث من هزة أرضية أخرى .. ولم نحسها (السائق وأنا) إلا بعد توقف السيارة فى أحد مفارق الطرق . وكان سبب توقف السائق البيروانى أنه رأى بعض المارة يجثو على ركبتيه وسط الطريق ويصلى ويدعو الله أن تمر تلك الهزة دون أضرار كثيرة .. وما أن توقف السائق إلا وأخذت السيارة البويك الكبيرة تهتز وترتجف وكأن عشرات من الرجال يتبادلون هز السيارة .. بقيت فى السيارة لا أحير حراكا فى حين كان البيروان فى الطريق يخرون على ركبهم فى الشارع من حولى مصلين وداعين .. وما أن انتهت الهزات العنيفة إلا وعاد بنا السائق إلى دار السكن .. كان الخدم البيروان يرتجفون من فرط التأثر بعضهم يبكى ويطلب منى الاذن بمغادرة الدار للتوجه إلى مساكنهم لتفقد حالتها وما صارت إليه حال زوجاتهم وأولادهم ..

والبعض الآخر يجمع قطع الزجاج أو الكريستال نتيجة لوقوع الكوبات والفازات من أماكنها إلى الأرض بفعل الهزات الأرضية .. وبعضهم يعتذر على نسيانهم ما آلت إليه حال زوجتى (السيدة السفيرة) فقد نسوها فى غمرة تأثرهم وانشغالهم بأمورهم .. كانت زوجتى تأخذ «دوشا» وأخبرتنى أنها رأت المناشف تسقط على الأرض من مشاجبها ثم رأت النجف الكريستال المعلق فى حجرة النوم يهتز يمينا ويسارا والأرض تميد من تحتها فادركت ما يحدث فأسرعت بارتداء ملابسها ونزلت إلى الدور الأرضى لتجد بعض التحف واقعا أو مكسورا على الأرض .. غادر السفارة معظم الشغالين عائدين إلى بيوتهم لتفقد أمورهم .. أقفلت جميع المحال التجارية لنفس السبب .. لم يعد للناس حديث شاغل إلا تقدير اضرار الزلزال الرهيب الذى هدم بيوتا عديدة فى الاحيـاء القديمة وأدى إلى أضرار مادية ليست بالقليلة ..

وعندما نقلت إلى نيويورك ألح علىّ طاهى السفارة المصرى (الحاج محمود) بأن يصحبنى إلى نيويورك ويعمل طاهيا فى دار سكنى هناك .. حاولت اقناعه بأن ظروف المعيشة فى ليما أكثر مناسبة له من نيويورك حيث الغلاء الشديد وصعوبة السكن فضلا عن أنه اعتاد الحياة في ليما ولم يسبق له معرفة نيويورك . لكنه ألح علىّ أن أصحبه قائلا إنه لا يود تكرار تجربة الزلازل مرة أخرى ..

ولم يكن أمامى إلا أن أصحبه معى إلى نيويورك حيث استمر معى طيلة مدة بقائى هناك .

زيارة إلى كل من :
«بنما - اكوادور - شيلى - بوليفيا - الأرجنتين - أورجواى - البرازيل - فنزويلا»

ثانيا : كان من حظنا العمل فى ثلاث سفارات فى أمريكا اللاتينية : بوجوتا (كولومبيا) من ٥٨ - ١٩٥٩ والمكسيك من ٥٩ - ١٩٦٠ وليما (بيرو) ٧٣ - ١٩٧٥ .

وقد انتهزنا فرصة وجودنا فى القارة اللاتينية فى تلك المناسبات الثلاث لنزداد تعارفا ومعرفة بهذه القارة الفاتنة ، الغنية الفقيرة ، المتقدمة المتأخرة المستنيرة والغاشمة .. الحاوية لكل شئ ..

وقد قمنا بجولتين فى القارة زرنا فيها عدا البلاد التى كنا نعمل بها: بنما - أكوادور - شيلى - بوليفيا - الأرجنتين - أوروجواى - البرازيل - وفنزويلا .

ولا أزعم أن زيارة لبلد ما أو لعاصمة ما تكفى للادعاء بمعرفة هذا البلد معرفة وثيقة ، لكنها تكفى للخروج «بانطباعات» عن تلك العاصمة

وعن الحياة فيهـا والانطباعات تكون عـادة نتيجة لتجارب شخصية ومشـاهدات وتأمـلات أثارتها تلك الزيارة .. وقد تكون الانطباعات صادقة تماما كمـا قـد تكون فيها درجـة من التجنى أو المبالغة أو سـوء التقدير .. لكنهـا انطباعات تصـدر عـادة عن حسن نية وصورة صادقة لا سيما إذا صحبتها قراءات ودراسات لأحوال تلك البلاد !

(١) بنما : Panama

تقع جمهـورية بنمـا فى جنوب برزخ أمريكا الوسطى (البرزخ شريط أرضى ضيق تحده المياه شرقا وغربا يفصل ما بين أمريكا الجنوبية والوسطى) وتقع على خط عرض عشرة شمالا (أى ما يماثل خط عرض جيبوتى أو نيجيريا) فهى منطقة شديدة الحرارة وشديدة الرطوبة ، تنمو بها الغابات القريبة من الاستوائية وتكثر مستنقعاتها وأمراضها مثل الحمى الصفراء والملاريا التى عانى منها ومات بسببها الآلاف من العمال الذين شقوا قناة بنما فى مطلع القرن العشرين لتوصل ما بين البحر الكاريبى «المحيط الأطلسى» من ناحية والمحيط الهادى من ناحية أخرى وهما يحدان بنما شرقا وغربا على التوالى ..

وقصة شق قناة بنما تستحق التنويه .. فإن شقها كان لخدمة

مصلحة التجارة الامريكية (أقصد الولايات المتحدة الأمريكية) خاصة والتجارة الدولية عامة .. لكن تم ذلك بتدبير ومخطط من الولايات المتحدة التي شجعت على انفصال إقليم بنما عن جمهورية كولومبيا سنة ١٩٠٣ . ولما تم لبنما استقلالها منحت امتياز شق القناة للولايات المتحدة التي أبرمت مع بنما اتفاقا يخولها إدارة القناة وحمايتها بابقاء قوات أمريكية مرابطة حول القناة في ثكنات وقواعد مازالت تحتلها الولايات المتحدة إلى اليوم ولعل القارئ يذكر قصة صدام رئيس بنما الجنرال نورييجا مع الولايات المتحدة وغزو الأخيرة لبنما ١٩٨٩ والقاءها القبض على نورييجا وحمله إلى الولايات المتحدة لمحاكمته بتهمة تهريب المخدرات إلى الولايات المتحدة . وكان قبل ذلك عميلا للمخابرات الأمريكية!!

إني أذكر للقارئ تلك القصة من أجل الوصول إلى هذه النتيجة وهذا الاستخلاص : إن شعب بنما حديث العهد وليس له تقاليد وأصالة شعوب دول أخرى في أمريكا اللاتينية . فقصة دولة بنما إنما تعود إلى سنة ١٩٠٣ ومازال الشعب البنامي ينشد هويته ويحاول تكوين شخصيته وتقاليده ، فهو أبعد ما يكون عن العراقة بعد .. ولم يمر بعد بأى تجربة ديمقراطية حقيقية .. وهو خليط من الزنوج الافارقة الذين سيقوا إلى الأمريكتين زمن العبودية والرقيق وتعج بهم الدول المحيطة بالبحر الكاريبي بالذات كما هو خليط من سلالات الأسبان والهنود

الحمر والسود .. وأجناس أخرى .. لكن يغلب عليه الدم الأفريقى والهندى ..

ودولة بنما إذن عبارة عن قناة بنما التى تسير بين الأدغال والأحراش والتلال الخضراء والوديان الغائرة . فالأرض ليست مستوية مثل الحال حول قناة السويس ومن ثم فإن السفن العابرة فى قناة بنما يجب عليها المرور فى عدة أهوسة .. وقناة بنما أضيق كثيرا من قناة السويس ، وتحيط بالقناة فى بنما بعض المناطق المرتفعة والجبال متوسطة الارتفاع التى تمثل مراكز سياحية يهرع إليها الأمريكيون المقيمون فى بنما بين الحين والآخر هربا من الرطوبة والحرارة الشديدة فى الأراضى الواطئة ..

أما الحياة فى دولة بنما فتتركز في مدينتين : كولون (اسم كريستوفر كولومبوس بالأسبانية) عند المدخل الشرقى للقناة ، ومدينة بنما عند المدخل الغربى لها .. وكولون ميناء «حر» FREE Port لكن التجارة فى أيدي التجار الهنود (١) بصفة عامة ، وقد اكتسبوا الجنسية البنمية . ويصل بين المدينتين قطار يقطع المسافة فى حوالى الساعة .. وقد ذكرتنى مدينة كولون ببورسعيد قديما منذ أكثر من خمسين عاما .. أما مدينة بنما قد زرتها مرتين مرة سنة ٥٩ وأخرى سنة ١٩٧٣ .

(١) أقصد المهاجرين من الهند وليس الهنود الحمر .

ووجدت أنها نهضت نهضة سياحية كبيرة وبدأت المدينة تتخذ طابعا ما بعد أن كانت أقرب إلى العشوائية . وأهم ما يميزها حاليا العمارات الحديثة العالية والمراكز التجـارية الحديثة والمطاعم ودور اللهو وغيرها من مستلزمات المـــــدن السياحية ومـــدن تجارة الترانزيت وخدمة الجنـــود الأمريكيين .. وترتبط بنما برابطـــة فريدة هـــى مزيج من الحـــب والكراهية للـــولايـــات المتحدة الأمريكية ولعل أسباب ذلك تبدو واضحة .

(٢) كيتو عاصمة اكوادور :

تقع جمهورية اكوادور على ساحل المحيط الهادى وتحدها كولومبيا شمالا وشرقا ، وبيرو جنوبا ، وعاصمتها كيتو فى النصف الشمالى من الدولة تقع تماما على خط الاستواء بينما تقع جوايا كيل أهم ميناء على المحيط الهادى جنوب خط الاستواء بقليل .. ومن ثم فإن الدولة كلها تقع فى المنطقة الاستوائية الحارة الرطبة .. إلا أن كيتو العاصمة تقع على هضبة أعلى جبال الانديز وعلى ارتفاع ٩٥٠٠ قدم - (كما هو منتظر - فجوها معتدل لطيف بسبب الارتفاع وشمسها استوائية قوية لكن أمطارها كثيرة طبعا والخضرة يانعة والأشجار والأدغال الاستوائية فى كل مكان .

تتميز كيتو بمناظرها الطبيعية الخلابة لأنها مقامة على عديد من

التلال الخضراء والوديان العميقة والمدينة الحديثة أمريكية الطابع عليها آثار النعمة الحديثة لأن الاكوادور من دول الأوبيك المصدرة للبترول مصدر ثروتها الحديثة لكنها كانت تعتمد أيضا فيما مضى علي تصدير الموز والبن والدخان والسكر والكاكاو والفضة وصناعات الفضة والنحاس والقصدير .. وتشتهر كيتو بصناعات الفضة ذات الطابع التاريخى ..

أما المدينة القديمة : كيتو التاريخية فعليها آثار الأصالة والنعمة التاريخية إذ كانت مقرا مهما للاستعمار الأسبانى لأمريكا الجنوبية وبها كنائس وكاتدرائية فخمة من الطراز «الكولونيال» وعدة أبنية تاريخية جميلة .. وهى مدينة جذابة «خفيفة الدم» .

وقريبا من مدينة كيتو أقامت الدولة نصبا تذكاريا على هضبة عالية يذكر السائحين أنهم يقفون تماما على خط الاستواء وإن كانوا لا يشعرون بحرارته بسبب الارتفاع الملطف للجو .

(٣) سانتياجو عاصمة شيلى :

تقع جمهورية شيلى على ساحل المحيط الهادى أقصى جنوب القارة اللاتينية وهى عبارة عن شريط طويل جدا وضيق يمتد من خط ٢٠ جنوبا (ما يماثل أسوان) إلى المنطقة القطبية الجنوبية (ما يماثل شمال السويد!!) ...

ومن هنا فإن التغير الشديد فى المناخ من أقصى الشمال إلي أقصى الجنوب في شيلى يصحبه تفاوت عظيم فى النباتات من أشواك المناطق الصحراوية فى شمال شيلى إلى نباتات المناطق الباردة وفواكه المناطق الباردة جنوبا . أما المناطق الصحراوية الشمالية فتشتهر بثرائها فى مادة نترات الجير الشيلى الطبيعى التى تستخدم كسماد للأراضى ..

أما سانتياجو العاصمة فتقع على سفوح جبال الانديز على خط عرض ٣٣ جنوبا (خط عرض تونس أو طنجة أى منطقة معتدلة) ويزيد الارتفاع من اعتدال مناخها فهى إذن من ألطف عواصم أمريكا الجنوبية جوا ومن أخفها دما ومن أكثرها نظافة وأصالة وأهلها خليط من السلالات الأسبانية والألمانية والايرلندية ويشتهرون بجمال البشرة .. ويكثر الشعر الأبيض بين رجال شيلى (والأرجنتين) الذين تشتعل شعورهم مبكرا !!

وأسماء السكان نفسها مازالت تدل على أصولهم الألمانية أو الايرلندية إلى جانب الأصول الأسبانية .. لكن الجميع طبعا يتكلم نوعا من الاسبانية بلهجة مختلفة ربما فيها اثار هاتين اللغتين الأجنبيتين ..

وهناك فى سانتياجو يوجد تمثال كبير جدا للعذراء مريم يطل على

المدينة من فوق سفح أحد الجبال المشرفة على سانتياجو ويشير أهل سانتياجو إلى تمثال العذراء ضاحكين وقائلين : «إنها العذراء الوحيدة فى سانتياجو» .

La Unica Virgin de Santiago

هذا وتعتبر شيلى وسانتياجو بالذات من مراكز الصناعة المهمة فى أمريكا الجنوبية بسبب تقدم أهلها ونشاطهم واعتدال المناخ وانتشار التعليم وارتفاع مستوى المعيشة نسبياً .. ومن أهم الصناعات : المنسوجات والملابس والمأكولات والأسلحة والمصاغ وخلافه . أما مصايف مدينة سانتياجو «فتقع على البحر حول الميناء المهم فالبارايزو» Valparaiso (ومعناه وادى الجنة) والذى يقع على بعد مائة وخمسين كيلو مترا من سانتياجو ويربطهما خط سكة حديد إلى جانب طريق سريع يهبط بك من الانديز إلى الشاطئ .. وحول ميناء فالبارايزو تقع سلسلة من الشواطئ الجميلة ومراكز السياحة مثل Vina del Mar حيث أقام الأغنياء «شاليهات» لهم .

لكن جنوب شيلى حافل بالبحيرات الرائعة الجمال والجبال العالية التى تكسوها الثلوج فى شتاء النصف الجنوبى (مايو – سبتمبر) وهناك مراكز للتزحلق على الجليد ورياضيات الشتاء وركوب الزوارق إلى جانب مراكز الاستشفاء فى الفنادق المهمة ..

وسانتياجو من ألطف مدن أمريكا الجنوبية جوا وأخفها ظلا لكنها أيضا أبعدها عن بقية العالم جغرافيا !!

(٤) لاباز La Paz عاصمة بوليفيا : ومعناها «السلام»

أما بوليفيا فمعناها دولة «بوليفار» (سيمون بوليفار محرر أمريكا الجنوبية من الاستعمار الأسبانى) .

وبوليفيا دولة مغلقة لا تطل على البحر منذ أن فقدت منفذها فى حرب الباسيفيكى ضد شيلى . وتقع كلها إذن فوق جبال الانديز الشاهقة حول خط عرض ١٨ - ٢٠ جنوبا (مثل أسوان وادى حلفا) . إلا أن لاباز العاصمة تقع فوق القمة على ارتفاع ١٢٠٠٠ قدم على خط عرض ١٨ .. ويلطف الارتفاع الشديد من الحرارة بل أنها تميل للبرودة ليلا وكذا فى الأيام غير المشمسة لكن شمسها عمودية محرقة .

ولما كان ارتفاع المدينة شاهقا فإن الطائرة تنزل بك فى مطار لاباز على ارتفاع ١١٠٠٠ قدم ثم تصعد بك السيارة من المطار إلى لاباز حيث تجد الأوكسجين شحيحا طبعا .. ويتعين عليك بمجرد وصولك إلى الفندق أن تمضى ساعتين أو ثلاث فى السرير للراحة والاستعداد للحياة على هذا الارتفاع الشاهق .. وسوف ينصحونك بعدم الإسراع فى

المشى أو تسلق السلالم .. وبعدم الإسراف فى تناول المشروبات الكحولية لأن تأثيرها أقوى جدا من تأثيرها على مستوى سطح البحر ! وقد تحتاج إلى أن تطلب من الفندق تزويدك بشراب «الكوكا» مثل الشاى لكنه مهدئ للأعصاب ولضربات القلب .. وقد تأخذ اسبرينه مع «الكوكا» للشفاء من الصداع Saroche الذى سببه لك الارتفاع !

أما بعد ذلك عند نزولك إلى المدينة فسوف تلاحظ أن مركز المدينة أو الحى التجارى بها قديم وغير أنيق ورواده يغلب عليهم الطابع الهندى الأحمر وازياء شبيهة بأزياء الهنود الحمر «المسالمين» ! قبعات سوداء أو بنية اللون يلبسها الرجال منهم والنساء ، المتشحون والمتشحات «ببطاطين» فاقعة الألوان يغلب عليها اللون الأحمر ، فوق ظهورهم لحمايتهم من برد الجبال .. هندسة المبانى نفسها تعكس الطابع الاسبانى «الكولونيال» القديم .. والمختلط مع الهندسة البوليفية الهندية .. حتى الدين الكاثوليكى الذى يمارسه هنود بوليفيا يختلط بكثير من الشعائر والتقاليد الهندية القديمة .

وفى الحى التجارى : وسط البلد .. تجد دكاكين أو أركان صغيرة افترشها الرجال والنساء الهنود الحمر يبيعون فيها صناعاتهم من الأوانى «الفضية» المطروقة باليد .. لكن حذار فإن كمية الفضة فيها

قليلة ، ربما فوق السطح ، مصنوعة غالبا من النحاس أو الرصاص المطليين بالفضة .. وبوليفيا على أى حال بها أغنى مناجم الفضة والرصاص والزنك والقصدير والنحاس .. هذا ما وهبتها الطبيعة لتعويضها عن فقرها فيما عدا ذلك .

لكن لاباز بها أحياء سكنية للأغنياء لا تقل جمالا عن مثيلاتها فى بوجوتا أو كيتو مع الفارق أن بوليفيا فى مجملها أقل تقدما .. ولعلها واحدة من أقل بلاد أمريكا الجنوبية تقدما .

وعند عودتك إلى الفندق سوف تجد الزهور التى أرسلها إليك أصدقاؤك فى الصباح لتحيتك قد ذبلت تماما وكادت تموت من جراء قلة الأوكسجين فى الجو فلم تستطع العيش سحابة نهار واحد .. فلماذا إذن إرسال الزهور ؟!

بعد أن زرنا لاباز فى يوم واحد ماذا نستطيع عمله فى اليوم التالى ، هناك زيارة ممكنة إلى بحيرة «تيتى كاكا» Titi Kaka واسمها هندى أحمر كما هو واضح .. الطريق إليها شاق بعض الشئ وطويل والبحيرة خالية من كل شئ إلا من بعض قوارب صيادى الأسماك من الهنود الحمر يرمون بشباكهم .. لكن زيارتى كانت بسبب حرصى على رؤية القوارب التى يستعملها هؤلاء الهنود فهى مصنوعة

من الخوص أو البوص Rceds وهو نفس البوص الذى استعمله قدماء المصريين فى صنع قواربهم .. بل إن الرحالة العالمى تور هايردال Thor Hayerdal قد أثبت (١) نظريته القائلة بأن قدماء المصريين بقواربهم أو سفنهم المصنوعة بطريقة معينة من البوص استطاعوا اجتياز المحيطات وهم أول من نزل فى أمريكا الجنوبية وعلموا أهلها صناعة السفن من البوص من ضمن ما علموه لأهل أمريكا .. أثبتها هايردال بأن صنع قاربا مشابها من البوص فى مصر على طريقة قدماء المصريين وسافر بالقارب من المغرب إلى أمريكا الجنوبية معتمدا على التيارات المائية والقلاع البدائية ..

وحول بحيرة تيتى كاكا سوف تجد نفس البوص ينمو «شيطانيا» وسوف تجد سفن الصيد من البوص بنفس طريقة المصريين القدماء ؟ هل أسطورة أم حقيقة ؟

وهل بعض هؤلاء الهنود الحمر حقا من سلالة المصريين القدماء؟ .

(٥) بوينس آيرس Buenos Aires : عاصمة الأرجنتين :

تقع الأرجنتين فى الجهة المقابلة تماما لشيلى وتطل على المحيط

---

(١) Thor Hayerdal تورهايردال وهو نورويجى الجنسية The Raa Expedition .

الأطلسى لكنها أكبر كثيرا من شيلى فى المساحة كما أنها أكثر غنى وثراء وتقدما صناعيا .. وهى من أكبر مصدرى القمح واللحوم والصوف التقليديين منذ القرن التاسع عشر ومطلع العشرين حيث جمعت ثروات طائلة من وراء هذه الصناعات . وأهلها مزيج من سلالات الأسبان والايطاليين والبريطانيين . لكن بصفة خاصة فى العاصمة بوينس إيرس يكثر الايطاليو الأصل .. ويطلقون على سكان بوينس إيرس اسم سكان الثغر Los Portenos .

ومعنى بوينس إيرس الهواء الطيب لكنها أكذوبة كبيرة فالعاصمة تقع على خليج مائى داخلى شديد الرطوبة يصب فيه نهر لابلاتا مما يجعلها حارة جدا صيفا وباردة شتاء .. أما أثرياء المدينة وأثرياء الأرجنتين وهم بالآلاف من أصحاب الضياع الشاسعة التى تنتج القمح أو تستخدم كمراعى لتربية الحيوانات يقضون أجازات الصيف أما فى أوروبا ، وأما في شواطئ دولة أوروجواى القريبة من شاطئ يونتادل إستى القريب من العاصمة مونتفيديو punta del este .

حيث يفصل بوينس إيرس عن مونتفيديو عاصمة أوروجواى رحلة بحرية تستغرق سبع ساعات .

وأما فى شواطئ الأرجنتين نفسها جنوبى العاصمة على المحيط

حيث الهـــواء الطيب حقا Mar del Plata وكازينوهات القمار واللهو واللعب ..

★★★

أما مدينة بوينس إيرس فهي أعظم مدن أمريكا الجنوبية وأكثرها أصالة وفخامة ويسمونها باريس أمريكا اللاتينية من حيث أناقتها وجمال تخطيطها ورقيها وامكانيات اللهو فيها .

فيها شوارع طويلة فسيحة فخمة تحاكي الشانزليزيه في باريس أهمها Nueve de Julio وبها مبنى البرلمان المستوحى من مبني الكونجرس الأمريكي وبها حي تجارى ملئ بالحركة والحياة حول Via Florida طريق فلوريدا .. كما أن بها متجرا شهيرا اسمه Harrods لا يمت بصلة القربى لهارودز الشهير في لندن لكنه أن دل على شئ فعلى أن أهل بوينس إيرس يحاولون محاكاة أوروبا (باريس ولندن) فى كل شئ ويحـــــاولون إيهـــام أنفســـهم أنهم أوروبيون أكثر منهم لاتينيون . والمعلوم أن الأرجنتين وشـيلى وأوروجـــواى وكوستاريكا هى أهـــم دول أمريكا اللاتينية التى خـلت تقريبا من الجنس الهندى أو الأفريقى ..

بماذا تشتـهر بوينس إيرس؟.. فى مطاعمـها تقدم أكبر وأشـهى بوفتيك Steaks حيث أن لحم عجول الأرجنتين له شـهرة خاصة وهى

من أكبر مصدرى اللحوم فى العالم . ويقدمون البوفتيك أحيانا على قطعة من الخشب السميك بدلا من الاطباق المعتادة .. ولكن صادفت إحدى زياراتنا لبوينس ايرس فترة منعت فيها الحكومة ذبح العجول وبيع اللحوم أسبوعين من كل شهر من باب الاقتصاد !!

كذلك تشتهر بالمنتديات أو الكازينوهات التى تقدم عروضا طويلة على يد محترفى رقصة التانجو التى اختلقها ايطاليو بوينس إيرس فى مطلع القرن العشرين .. ويحسن أهل بوينس إيرس هذه الرقصة كما لا يحسنها غيرهم .

وتشتهر بوينس إيرس بالمثل بصناعات جلود التماسيح Croco-dile (حقائب وأحزمة ومحافظ وأحذية .. إلخ) وبالمنسوجات الرقيقة حسنة الذوق فالطبقات الراقيــة هناك تتشبه بأهل باريس ولندن .

وقصــة الأرجنتين قصـــة نجاح وفشل ، قصة صعود وهبوط مستمر ، فقد سبقت كل دول أمريكا اللاتينية فى التنمية والتطوير بفضل التركيبة السكانية أولا والثروة الطــارئة القــديمة التى صاحبت صعود الأرجنتين على رأس قائمة مصدرى اللحوم والجلود والصوف والقمــح أثنــاء الأزمــات الدوليــة العــالمية مثل الحربين الأولى والثانية .. لكن كان يصاحب تلك الفترات فترات اسراف وتبذير أرجنتينى كانت تنتهى دائما بالكساد والضيق والبطالة والأزمات الاجتمــاعية الداخليــة التى أدت إلى قيــام البيــرونية Peronism :

(ظاهرة الجنرال بيرون وتحالف الجيش مع العمال ضد أصحاب العمل) .. وقد أدى تكرار حدوث هذه الدورات Cycles إلى تكرار تدخل الجيش وتململ العمال وإيقاف مسيرة التقدم الاقتصادى والعمرانى والسياسى .

أما حاليا فالأرجنتين من الدول التى ترزح تحت هم الديون الأجنبية الثقيلة (١٠٠ مليار دولار) ورغم عودة الديمقراطية فإن البلاد أبعد ما تكون عن الاستقرار السياسي والاقتصادى بعد ..

كانت دول A. B. C. (وهى ترمز إلى الأرجنتين - البرازيل وشيلى(١)) قائدة مسيرة دول أمريكا اللاتينية سياسيا واقتصاديا وعمرانيا وانضمت إليها المكسيك أيضا .. ومازال التنافس على قيادة أمريكا اللاتينية بين الأرجنتين والبرازيل مستمرا وكلاهما دولة متقدمة فى أبحاث الذرة وإن كانتا على شفا الافلاس أيضا .. أما شيلى فقد خرجت بالكاد من عقدين من الحكم العسكرى الدكتاتورى ومازالت تتلمس طريقها إلى الحياة الديمقراطية من جديد ..

(٦) مونتيفديو عاصمة الاوروجواى (٢) :

تقع شمال مدينة بوينس إيرس مباشرة ولا يفصل بينهما إلا الخليج

---

(١) Argentina, Brazil, Chile

(٢) مونتفيديو Nontevideo معناها الحرفى «أرى جبلاً» وهى عبارة نطق بها أحد المستكشفين الأول لهذه المنطقة .

«فم نهر لابلاتا» الذى يعبره السائحون الأرجنتينيون فى سبع ساعات للاصطياف على شواطئ الاوروجواى المفتوحة على الأطلس .. والاوروجواى أصغر دول أمريكا اللاتينية حجما لكنها من أكثرها ديمقراطية وتقدما من الوجهة السياسية والانسانية وأهلها كلهم من الجنس الابيض .. وكان لها تاريخ مشرف فى نواحى التعليم وممارسة الديمقراطية الغربية حتى بدأت الثورة الاجتماعية العنيفة فى أواخر الستينات ومطلع السبعينات «ثورة المدن» أو ثورة Tupamaros (نسبة إلى اسم زعيم هندى قديم) وتميزت بأعمال التخريب داخل المدن وكانت أول ظاهرة من نوعها قبل انتشار موجات العنف المماثلة فى مدن العالم الأخرى (بيرو - كولومبيا - ايطاليا - اليابان - المانيا .. الخ) وقد اضطر ذلك الجيش الأوروجواى إلى إمساك مقاليد الحكم بيده فترة من الزمن ضحى فيها بالحريات وبأساليب الديمقراطية التى اعتادتها الاوروجواى .. لكن بعد القضاء على ثورة التوباماروس عاد الجيش إلى ثكناته من تلقاء نفسه وسلم مقاليد الحكم إلى الحزبين السياسيين التقليديين الحزب الليبرالى والحزب المحافظ اللذين يتبادلان فترات الحكم ..

وأوروجواى حديثة العهد بالاستقلال نسبيا عن جيرانها فقد اتفق على اقامتها فى القرن التاسع عشر كحاجز أو حائط أمان يفصل ما بين الأرجنتين والبرازيل ليمنع المنافسة على امتلاك منطقة أوروجواى والمواجهة والاصطدامات فيما بينهما ..

وأوروجواى أرضها مراعى معتدلة المناخ واقتصادها يقوم على نتاج المراعى وتصدير الصوف واللحوم هو الآخر .. وأهلها تغلب عليهم صفات الاقتصاد والحرص وعدم الاسراف ربما بسبب أصولهم البريطانية والاسكتلندية بما يتضح فى حياتهم اليومية وفى عاصمتهم مونتى فيديو Monte Video .

فهى عاصمة أوروبية نظيفة لكن دون مبالغة فى الفخامة أو الأناقة أو مظاهر الثراء .. لكن ما يجذب السائحين إلى المنطقة هو الشواطئ الرملية الممتدة على طول مائتى كيلو متر بحذاء المحيط الأطلسى مباشرة فى Punta Del Este (١) والتى تنعم بنسمات البحر بعيدا عن حرارة ورطوبة بوينس إيرس صيفا .. فالاوروجواى تعيش فى ظل وفي كتف بوينس إيرس التى حمتها من ابتلاع البرازيل لها وتورد لها السائحين صيفا .

(٧) ريودى جانيرو عاصمة البرازيل السابقة :

البرازيل كبرى دول أمريكا اللاتينية وعملاق القارة الجنوبية حاليا ومستقبلا

تمتد من خط الاستواء جنوبا حتى خط عرض ٣٠ جنوبا (وهو ما يماثل المسافة من بحيرة فكتوريا فى هضبة البحيرات وسط أفريقيا إلى

(١) معناها اللسان (أو الشريط) الشرقى .

مدينة القاهرة ، وتكاد تصل من المحيط الأطلسى شرقا حتى قرب المحيط الهادى غربا لا يفصلها عن الأخير إلا شريط دولة بيرو الساحلى ، وتشتهر البرازيل بغابات نهر الأمازون الشهيرة .. الغنية بالأشجار والمعادن ..

وتتميز البرازيل أيضا بأنها الدولة الوحيدة فى أمريكا اللاتينية التى تتكلم البرتغالية وليست الأسبانية ، فقد كانت مستعمرة برتغالية فى حين أن بقية دول أمريكا اللاتينية خضعت للحكم الأسبانى .. ومرت البرازيل بعد ذلك بمرحلة تجربة «امبراطورية» فقد نصب أحد الأمراء البرتغاليين نفسه امبراطورا على البرازيل لكن انتهت التجربة سريعا بالفشل وبإعلان الجمهورية . وكانت العاصمة فى ريودى جانيرو (معناها نهر شهر يناير : لأن المنطقة اكتشفت فى شهر يناير) ولكن قررت حكومة البرازيل من خمس عشرة سنة الانتقال إلى عاصمة جديدة داخل القارة هى برازيليا وتبعد عن ريودى جانيرو ألفى كيلو متر تقريبا من أجل تشجيع اكتشاف وتنمية المناطق الداخلية وتعميرها ، ولأن ريودى جانيرو كانت ، أو قد أصبحت ، مدينة يغلب عليها طابع اللهو والمرح وجو «المصيف» طوال العام مما لا يشجع العمل المثمر !!

فمدينة ريودى جانيرو تقع على خط عرض مدار الجدى (مايوازى مدينة أسوان) فمناخها حار ورطب طوال العام بسبب وقوعها على

المحيط الأطلسى . لكن ما يعوض ذلك هو تمتعها بسلسلة طويلة من الشواطئ الرملية الجميلة والمتسعة . إما حول الخليج (شواطئ بوتافاجو - وفلامنجو - وايكاراى - وساكودى سان فرانسيسكو) أو على المحيط مباشرة (شواطئ كوبا كايانا - فيرميلا - ايبانيما - ليبلون - جلنفييا) وكلها أصبحت مرتعا للفتيات الكاريوكاس Cariocas (أى أهل ريودى جانيرو) .. وفتيات البرازيل عامة وريودى جانيرو خاصة لهن شهرة طبقت الآفاق فهن يتميزن بالرشاقة التامة وكمال الأجسام وخفة الظل والسمرة الخفيفة وبكثير من الخلاعة .. ويتفنن فى تصغير حجم «بذلة البحر» أو «المـــايوه» حتى وصل أو كاد إلى حجم ورقة التوت ولا عجب فهـن فتيات كارنفـــال ريـودى جانيرو الشهير الـذى يجرى لمدة ثلاثة أيام قبل فترة الصيام Lent فى شهر فبراير ويظل أهل ريودى جـــانيرو يرقصـون ويمـــرحـون ويعربدون ثلاثة أيـــام بلياليـهـا يغسلون فيها همـومهم وآلامهم ويبدءون بعدها سنة جديدة بقلب خال على حد قولهم !!

وأهل البرازيل خليط غريب من سلالات البرتغاليين والعبيد الافارقة الذين جئ بهم للعمل فى المزارع .. ولا تفوق نسبة الجنس الأبيض الخالص فى البرازيل عشرة فى المائة من مجموع السكان البالغ عددهم أكثر من مائة وخمسين مليونا ، وأما البقية فأغلبها من الـ Mulattos نتيجة الاختلاط والامتزاج بين السود والبيض .. ومن هنا فسوف يجد

الزائر البرازيليات (والبرازيليين) الشقراوات (نسبة قليلة) والخمريات وما هن أقرب إلى الزنجيات (نسبة كبيرة) وتسكن نسبة كبيرة من الطبقات الارستقراطية البيضاء القديمة ريودى جانيرو - وسان باولو - والأخيرة تقع على هضبة مرتفعة فجوها معتدل يشجع على النشاط والعمل الجاد .. ومن هنا فإنها المدينة التجارية الصناعية الكبرى فى البرازيل .. مدينة أصحاب الأعمال وأصحاب المصانع ورجال التجارة والبنوك .. يبدأ بها تجربة كل جديد لكنها لا تهمل التقاليد .. ويسمونها بالقاطرة التي تجر وراءها أعباء وثقل البرازيل (مثلما يقال عن ميلانو في ايطاليا أيضا) .. وساوباولو هى أقرب إلى المدن الامريكية فى الولايات المتحدة وهى مزدحمة بناطحات السحاب .. ولئن تحدثنا عن المرح واللهو فى ريو فيجب ألا ننسى أن البرازيل أصبحت قلعة صناعية ضخمة تصدر السيارات والطائرات والأسلحة وتلهو بتجارب الذرة وآخر المستحدثات العلمية والألكترونية .

لكن البرازيل هي ريودى جانيرو : حيث الحرارة والدفء واللهو والمرح والكارنفال فريودى جانيرو هى قلب البرازيل النابض ولشد ما استاء الدبلوماسيون الأجانب المعينون فى البرازيل عندما قررت حكومتها نقل العاصمة إلى مدينة «برازيليا» الجديدة في أعماق البرازيل، واضطروا إلى أن يتركوا خلفهم كل هذا الرصيد من المرح والفتنة .. والجمال الخلاب أقصد جمال الطبيعة .

فمدينة ريودى جانيرو تحتل منطقة من أجمل مناطق العالم قاطبة فقد بنيت على الشاطئ الجميل الملتف حول خليج رائع ثم على سفوح وفى أحضان جبلين اشمين من الصخر وراء المدينة الـ Pano de Qzucat (قمع السكر) Corcovado وممكن للسائح تسلقهما بالفنوكلير لمشاهدة منظر من أروع مناظر العالم .

وبالإضافة إلى جمال الطبيعة الخارق استطاع الكاريوكاس (أهل ريو) اضفاء لمسات جمال تدل علي فن وخيال البرازيليين الخصب .. وهناك عدد من الطرق الساحلية الأنيقة Corniches تلتف حول كل ما سبق ذكره من شواطئ ريودى جانيرو ولكن أشهرها Copa Caba-na الشاطئ الرائع الجمال حقا .. وقد اصطفت عليه سلسلة لا تنقطع من العمارات والفنادق العالية الفاخرة .. إنها حقا مدينة جميلة ساحرة.. لكن ؟ هل يستطيع المرء تمضية أكثر من أيام معدودة فى اللهو والمرح؟ إن اللهو والمرح إذا استمرا طوال العام لفقدا طعمهما ولذتهما !!

ويؤكد الكاريوكاس أنهم قوم جادون ويعملون طوال النهار لكسب عيشهم بسبب ارتفاع تكاليف المعيشة .. ومعظم سكان ريو ليسوا أغنياء طبعا لكن .. الواقع أن جو «ريودى جانيرو» جو الاصطياف المستمر واللهو المستمر أيضا ..

فقد قال لى زميل دبلوماسى يقيم فى ريو عندما كنت أزور ريودى جانيرو لأول مرة قادما من لندن للسياحة: قال لى ألا يدفع المرء القادم من لندن مثلك عشر سنوات من عمره ليقضى بقية حياته فى ريودى جانيرو؟! «وقد أجبته فى نفسى فى التو واللحظة بكلا ثم كلا.. كفى المرء يومين أو ثلاثة فى ريو للاستمتاع بها.. فهو الحد الأقصى.. ولا يستطيع المرء أن يأكل إلا كميات محدودة من العسل أو من البقلاوة ! فان الجو السائد فى ريودى جانيرو رغم كونها مدينة ضخمة تعدادها حوالى ٥ ملايين وبها طبعا مجالات للعمل الجاد لمن شاء العمل - لكن الجو السائد بها هو جو الصيف وجو اللهو والمرح على البلاجات.. فهى إذن قلب البرازيل الحقيقى أو هى العاصمة الروحية للبرازيل بأكملها - حتى مفارقاتها ومتناقضاتها (الفقر والثراء) إن هما إلا مرآة حقيقية للحياة فى البرازيل.. تزامل ناطحات السحاب الضخمة والاحياء الحديثة الثرية مع أحياء العشش والاكواخ Las Fave llas بريودى جانيرو والحاوية لمئات الآلاف من البرازيليين السود الفقراء.. عشاق السامبا ودعامة الكرنفال.. أهل الفقر والموسيقى والرقص..

أما أين تقضى سهرتك هذا المساء فى ريو؟ ليس هناك طبعا إلا مدارس السامبا Escolas de Samba وهناك عشرات بل مئات الكازينوهات المسماة «مدارس السامبا» حيث يتمثل العرض فى أستاذ

أو أساتذة - يمسكون بالعصا فى يدهم - يعلمون الفتيات الكاريوكات الجميلات جدا والرشيقات جدا السمراوات جدا أصول هز الأرداف على أنغام السامبا، وفى النهاية تتفوق التلميذات على الأستاذ فى هز الأرداف.

لكن.. هل يستطيع المرء أن يراقب هذا المشهد، نفس المشهد المتكرر طوال الليل؟!

وعندما كنت سفيرا فى استراليا تصادقت مع زميلى سفير البرازيل بها وكان دبلوماسيا قديرا محنكا ذا خبرة طويلة ونظرة ثاقبة وقد اعتاد أن يدعو سفراء المجموعة الافريقية فى كانبرا إلى حفلات غداء فى منزله بين الحين والآخر.. وكان يحاول جدا التقرب إليهم قائلا لهم إن البرازيل بلد أفريقى!!

ولما دهش بعضهم وسأله مزيدا من الايضاح أجابه سفير البرازيل مؤكدا أن غالبية البرازيليين من أصل افريقى زنجى وأن تقاطيعهم وأخلاقهم وطريقة حياتهم افريقية بل أن مستوى معيشتهم والمشاكل التى تواجههم كلها مشاكل افريقية الطابع ورغم امكانيات البرازيل الطائلة فى الثروات الطبيعية والمعدنية والزراعية ورغم تقدمها العلمى والذرى والصناعى فمازالت فى جوانب كثيرة من حياتها دولة ينقصها توسيع رقعة التنمية لتشمل أغلب السكان.. أما حاليا فهى دولة نامية فى كثير من مناحى حياتها وحياة الغالبية من سكانها وهى دولة افريقية

أكثر منها برتغالية.. ومازالت طبقات الشعب الفقيرة - السوداء - تعتقد في سحر الفودو Voodoo الأفريقي وتمارسه!! لكن حجم ديون البرازيل الخارجية يفوق حجم ديون أفريقيا السوداء مجتمعه فهو أكثر من مائة وعشرين بليونا من الدولارات.. وأن ننسى لا ننسى أن السامبا نفسها رقصة البرازيل المفضلة رقصة أفريقية حملها معهم إلى البرازيل البرازيليون الأفارقة الوافدون من غرب أفريقيا.. وانتقلت بعد ذلك من مقاطعة باهيا.. Bahia في شمال البرازيل حيث يكثر الزنوج انتقلت بعد ذلك.. إلى ريودى جانبرو.. فكل العالم..

(٨) كاراكاس عاصمة.. فنزويلا Caracas :

تتوسط فنزويلا أقصى شمال أمريكا الجنوبية وتطل على البحر الكاريبى جزء من (المحيط الأطلسى) من خط الاستواء جنوبا إلى خط عرض ١٠ شمالا: فتقع إذن فى المنطقة الاستوائية الحارة الرطبة.. لكن بها بعض المرتفعات التى تلطف حيثما وجدت - من حرارة الجو.. مثال ذلك في كاراكاس العاصمة.. وميناؤها لاجوايرا La Guaira.

فالميناء - على البحر طبعا - شديد الحرارة والرطوبة.. لكن يأخذك الطريق إلى أعلى رويدا رويدا حتى يرتفع بك إلى قرابة خمسمائة متر أو أكثر فتبدأ الاحساس بالراحة والنشاط من جديد.. بعد نصف ساعة من مغادرتك للاجوايرا.

وقد وصفت كاراكاس فنزويلا بأنها تذكرنى ببعض دول الخليج البترولية.. فقد كانت حياتهم تقوم على المراعى وثمرة المراعى فقط

وأهلها رعاة يعيشون على الفطرة.. وكانت تمثلهم اجمل واصدق تمثيل الاغنية الفنزويلية الجميلة المفضلة والمسماة «روح المراعى»(١) Alma Lianera أى المراعي.. ولم تكن حياتها الاجتماعية والثقافية أو الفكرية تبدي سوى روح المراعي هذه هى الاخرى، وكانت مدينة كاراكاس تبدى هى الاخرى طابع وروح عاصمة دولة من أصحاب المراعي البعيدين عن الانغماس فى نفحات العراقة أو لمسات الجمال أو الاصالة أو الثقافة.

ثم مالبث البترول أن اكتشف بكثرة شديدة ووفرة.. فقلب كل شيء بفنزويلا رأسا على عقب.. وأصبحت من أكثر مصدرى الأويك.. وبدأ اقتصادها كما بدأت مدينة كاراكاس تتخذ الطابع المصاحب لطفرات وثروات البترول الطارئة.. وامتلأت كاراكاس بالمراكز التجارية الحديثة البراقة اللامعة وامتلأت بناطحات السحاب والعمارات الفخمة والسيارات الامريكية الفارهة.. وأخذ الفنزويليون يقودون سيارات الكاديلاك والبويك وهم ينفثون دخان . السيجار الهافانا الفاخر، ويجلسون فى بارات الفنادق الكبرى يرشفون أقداح الويسكى منذ الصباح أو الظهيرة ومع ذلك فقد بقيت كاراكاس دون طابع مميز لها فى نظرى سوى نفحات الدولارات البترولية .. رغم حسن نيتى ومحاولاتى الجادة لرؤية مناحى الجمال الجديدة أو الفن أو الذوق فقد خرجت بنتيجة أنه يحسن انتظار الاجيال القادمة التى سوف تكون بلا شك أكثر أصالة ونبلا وعراقة.

★★★

(١) وتنطق «ألما يانيرا» - و «لوس يانوس».

الفصل الرابع

سفير لدى الأمم المتحدة

وصلنا نيويورك قادمين من ليما بالطائرة فى يوليو ١٩٧٥ أى فى الوقت المناسب للإعداد لدورة الجمعية العامة السنوية التى تبدأ فى يوم الثلاثاء الثالث من سبتمبر من كل عام.. كانت هذه هى المرة الثالثة التى عملت بها بالبعثة الدائمة لدى الأمم المتحدة إذ كانت المرة الأولى من ٦٠ ـ ١٩٦٢ إذ عملت بها كمستشار للبعثة، أما المرة الثانية فعندما نلت زمالة Fellow Ship مركز الشئون الدولية بجامعة هارفارد ٦٥ ـ ١٩٦٦ فقد كنت رسميا مقيدا على بعثتنا فى نيويورك كمستشار للبعثة وكنت كثير التردد على بعثتنا فى نيويورك بين الحين والحين، أما المرة الثالثة فكانت عند تعيينى هذه المرة فى البعثة كسفير ومندوب دائم مناوب لدى الأمم المتحدة . ومن هنا لم تكن الأمم المتحدة أو نيويورك تمثل فى مخيلتى رهبة أو طرافة المجهول بل كانت أعلم مقدما بما ينتظرنى سواء من ناحية نوعية العمل فى البعثة أو فى الأمم المتحدة أو من ناحية حياتى الخاصة وسكنى ومعيشتى.. إلا أن وجه الخلاف

الأكبر(١) كان يمكن فى اختلاف وظيفتى ودرجتى عن المرتين السابقتين ففى هذه المرة كنت «سفيرا» وقد سبق لى رئاسة سفارتنا فى ليما ببيرو وكنت سأعمل كالرجل الثانى فى البعثة كمندوب دائم مناوب أى المعاون الأول لمندوبنا الدائم لدى الأمم المتحدة، وكان (السفير) د. عصمت عبدالمجيد (نائب رئيس الوزراء ووزير خارجيتنا بعد ذلك)(٢) وهو صديق قديم لى وزميل عزيز يتمتع بحب وتقدير جميع أعضاء السلك الدبلوماسى وجميع من اتصل به لأدبه المفرط ودماثته وحكمته ورجاحة عقله وخبرته الطويلة بالعمل الدبلوماسى منذ سنة ١٩٤٦ فى أهم المواقع.

وتجدر الاشارة إلى أن معظم بعثات الدول إلى الأمم المتحدة يرأسها سفير واحد هو المندوب الدائم وتعاونه هيئة قد تتكون من وزير مفوض أو مستشار كالرجل الثانى وبعض المستشارين والسكرتيريين. لكن عددا صغيرا من الدول منها الدول العظمى (الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى وبريطانيا على سبيل المثال) جعلت الرجل الثانى فى بعثتها لدى الامم المتحدة بدرجة سفير.. بل إن وفد الولايات المتحدة يرأسه

---

(١) كانت زوجتى ومازالت شديدة التعلق بنيويورك مثلها فى ذلك مثل كل زوجات الدبلوماسيين الذين عملوا بالمدينة أما أنا فرغم تقديرى لأهمية الموقع ولثراء التجربة فقد كنت شديد الأسف لتركى ليما بتلك السرعة.

(٢) حاليا أمين عام جامعة الدولة العربية

سفير يعاونه أربعة أو خمسة سفراء آخرون فضلا عن عدد كبير من الوزراء المفوضين والمستشارين . ولم يكن نظام السفير / المندوب المناوب لوفد مصر لدى الامم المتحدة معمولا به قبل سنة ١٩٥٨ إذ كان الرجل الثانى فى وفد مصر بدرجة وزير مفوض إلا إنه بعد تمام الوحدة مع سوريا ١٩٥٨ أصبح السفير المندوب الدائم السورى سفيرا ومندوبا دائما مناوبا لوفد الجمهورية العربية المتحدة، واستمر هذا النظام معمولا به حتى بعد انفراط الوحدة واستمر حتى سنة ١٩٨٨ ولم يكن ذلك بفعل ما اعتاده وفدنا منذ ايام الوحدة فقط بل لعل السبب أيضا كان يكمن فى أهمية العمل الدبلوماسى بالنسبة لمصر فى ميدان الأمم المتحدة فقد كانت السنوات من ١٩٥٨ وحتى أوائل الثمانينات سنوات حافلة بالمشاكل والقضايا السياسية الهامة المطروحة أمام الأمم المتحدة ومنها قضايا تأميم القنال والعدوان الثلاثى ومحاولة ازالة آثاره وقوات الطوارىء التابعة للأمم المتحدة التى اوفدت إلى سيناء (ومازالت قوات الطوارىء التابعة للأمم المتحدة فى لبنان والجولان وهناك قوات طوارىء دولية فى سيناء إلى يومنا هذا) ثم قضايا الكونغو وبيافرا وتصفية الاستعمار والابارتايد وناميبيا ثم حرب الأيام الستة ١٩٦٧ وما تبعها من آثار ومنها إعادة إرسال قوات الطوارىء الدولية الى سيناء ثم قضية احتلال اسرائيل لسيناء من ١٩٦٧ وحتى انسحابها النهائى ١٩٧٩ وهناك قضية حرب العبور سنة ١٩٧٣ وما

تلاها من دبلوماسية مصرية مكثفة لم تنته إلا بعد سنة ١٩٧٩ إن صح أنها انتهت حقا.. كل ذلك وضع عبئا دبلوماسيا ثقيلا جدا على كاهل السفير المندوب الدائم استلزم فى رأى وزارة خارجيتنا ان يكون المعاون الاول للسفير المندوب الدائم هو الآخر بدرجة سفير حتى يستمر تمثيلنا على نفس المستوى فى حالة غياب المندوب الدائم أو انشغاله بأعمال أخرى.

وفى أيام الوحدة مع سوريا كان السفير المندوب الدائم المناوب دبلوماسيا سوريا وكان السفير رفيق العشا ثم يليه السفير فريد الشحلاوى إلا انه بعد أن صفيت الوحدة صار المندوب «المناوب» دبلوماسيا مصريا.. وقد تبوأ هذا المنصب دبلوماسيون مصريون على جانب كبير من المقدرة منهم على سبيل المثال لا الحصر السفراء الدكتور محمد حسن الزيات والمرحوم الدكتور عبد الله العريان ود. أحمد عثمان ثم كاتب هذه السطور ومن بعدى السفير عبدالحليم بدوى ود. نبيل العربى والسفير عمرو موسى والسفير محمد شاكر، ثم عاد بعضهم مثل د. نبيل العربى والسفير عمرو موسى لتولى رئاسة البعثة كسفير ومندوب دائم(١)، وقد رأس هذه البعثة باستمرار ايضا سفراء على درجة كبيرة من المقدرة الدبلوماسية منهم أيضا على سبيل المثال

---

(١) عمرو موسى حاليا وزير الخارجية.

لا الحصر الدكتور محمود فوزي، والسفراء عمر لطفي ومحمد عوض القوني ومحمود رياض ومحمد حسن الزيات وأحمد توفيق خليل وعبدالحليم بدوي وعمرو موسى .. ود. نبيل العربي فقد اخرجت مدرسة الأمم المتحدة بعض مشاهير الدبلوماسية المصرية وأسمائها اللامعة يحضرني منها على سبيل المثال لا الحصر أسماء السادة/ اسماعيل فهمي والمرحوم محمد رياض وعبد الحميد عبدالغني (عبد الحميد الكاتب) ود. أشرف غربال وعمر سري وعمران الشافعي وعبدالرؤوف الريدي وسعد الفرارجي ووفيق حسني وأحمد صدقي ومحمد شاكر وأحمد حجاج ومحمد الذئيبي. وهكذا وكلهم أصبحوا من أساطين الدبلوماسية المصرية ومن أعلامها .. فالأمم المتحدة مدرسة أي مدرسة لمن شاء الاستزادة والاستفادة من مناهلها ولمن كان يملك الاستعداد الكافي.

ولكن كما سلفت الاشارة فإن أهمية القضايا المطروحة أمام الأمم المتحدة تختلف من سنة إلى أخرى أو من فترة إلى أخرى صعودا أو هبوطا سواء أكان ذلك بالنسبة إلى دولة معينة (كمصر مثلا) أو لمجموع أعضاء الأمم المتحدة. فقد كانت السنوات من الستينات الى اوائل الثمانينات حافلة بشتى القضايا السياسية المطروحة أمام الأمم المتحدة هذا بالاضافة الى قضايا الحرب الباردة والمواجهات العنيفة بين الدولتين العظميين أو بين حلفي الأطلنطي ووارسو.

ولكن تبع ذلك فترة شلل أو وهن أصاب الامم المتحدة وأضعف من مكانتها بسبب تفضيل الدولتين العظميين عدم طرح قضاياهما السياسية والساخنة أمام الأمم المتحدة وإنما تفضيل محاولة حلها بالطرق الدبلوماسية التقليدية خارج دائرة الأنوار بعيدا عن المواجهة الصريحة فى الأمم المتحدة.. ومن ناحية أخرى فإن مصر بعد توقيع معاهدة السلام مع اسرائيل لم تعد فى حاجة إلى الأمم المتحدة لتصفية قضية مصيرية مثل احتلال اسرائيل لسيناء وايجاد حل سلمي للشق المصرى من النزاع العربى الإسرائيلى وقد تم تصفية هاتين القضيتين بالمثل بالمفاوضات المباشرة خارج الأمم المتحدة..

ومن ثم فقد قررت وزارة خارجيتنا منذ سنة ١٩٨٨ العودة إلى النظام السابق لقيام الوحدة مع سوريا وجعل منصب الرجل الثانى فى البعثة الدائمة لدى الأمم المتحدة فى نيويورك بدرجة وزير مفوض (١) وليس درجة سفير مناوب.

وليس معنى هذا الانتقاص من أهمية الأمم المتحدة أو من قدر حاجة المجموعة العربية إلى وساطة الأمم المتحدة واستمرار مسئولياتها لتصفية ألشق الآخر من النزاع العربى الاسرائيلى وإحقاق حقوق الشعب الفلسطينى.. لكن الملاحظ أن التركيز فى الآونة الاخيرة أصبح

---

(١) درجات السلك الدبلوماسي من أسفل السلم تبدأ بملحق ثم سكرتير ثالث فسكرتير ثان فسكرتير أول فمستشار فوزير مفوض ثم سفير وأخيرا أعلي السلم سفير ممتاز (الدرجة الممتازة).

على ضرورة قيام مفاوضات مباشرة بين اسرائيل وممثلى الشعب الفلسطينى وكل من سوريا ولبنان فى نطاق مؤتمر دولى عن الشرق الاوسط وهو ما أقرته مؤتمرات القمة العربية ويسعى اليه المجتمع الدولى حاليا..

ورغم استمرار مسئولية الأمم المتحدة عن تصفية قضايا الابارتيد والتفرقة العنصرية فى جنوب افريقيا واتمام تحرير إقليم ناميبيا تحت اشراف الأمم المتحدة ، فإن الجديد فى هذه القضايا كان بدء الاعتماد على المفاوضات المباشرة ما بين جنوب افريقيا ودول المواجهة الست ، ومابين جنوب افريقيا وكل من انجولا أو موازمبيق ليس داخل نطاق الأمم المتحدة وإنما خارجها وعن طريق وساطة دول مثل الولايات المتحدة.

حتى فى قضايا المواجهة السافرة مابين العملاقين حول التسلح النووى ونزع السلاح وحرب الكواكب وافغانستان وجرينادا وما إلى ذلك فإن تفضيل العملاقين كان ولا يزال إتمام مفاوضات سرية مباشرة بينهما وبعيدا عن الضوضاء والأضواء ضمانا لحسن سير المفاوضات وعدم افشالها أما باستعمال أحد الطرفين حق الفيتو أو بسبب بعد جو الأمم المتحدة البعيد عن الدبلوماسية السرية.

ومن ثم فإن السنوات الاولى لقيام الأمم المتحدة بل وفى خلال الحقب الثلاث الاولى منها شهدت الامم المتحدة ذروة الاهتمام بالقضايا السياسية الساخنة والتى سبقت الاشارة اليها، ثم ما لبث أن ظهر

تفضيل الدول الكبرى لحل قضاياها السياسية الساخنة بالطرق الدبلوماسية التقليدية بعيدا عن أضواء الامم المتحدة، وضجيجها، بعيدا عن تأثير سيطرة الغالبية العددية الهائلة لدول العالم الثالث، والتى نتج عن استقلالها وانضمامها لعضوية الامم المتحدة اختلال الموازين الدقيقة وحسابات الدول العظمى القديمة داخل تلك المنظمة. لكن بدأت منذ ٩١ - ٩٢ تعود للأمم المتحدة بعض أهميتها بتفكك امبراطورية الاتحاد السوفييتى واحتمال اختفاء الحرب الباردة وآثارها القديمة.

إلا أن قلة المسائل السياسية الشائكة المطروحة أمام الأمم المتحدة فى نفس الآونة قد صاحبها زيادة ضخمة فى المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والفنية والادارية التى ظهرت اهميتها وطغت على اهتمامات دول العالم الثالث بل والعالم اجمع داخل نطاق الأمم المتحدة، بمعنى انه بعد أن نالت أغلب دول العالم الثالث استقلالها وتم تصفية قضايا الاستعمار (باستقلال ناميبيا أخيرا) فقد فرضت الظروف الأقتصادية والاجتماعية على دول العالم الثالث المطالبة بضرورة قيام نظام اقتصادى عالمى جديد أكثر عدالة وبضرورة تصفية قضايا مديونية العالم الثالث بشكل واقعى لا يهدد أقتصاديات تلك الدول ويدمر حياتها السياسية والاجتماعية وبضرورة نقل التكنولوجيا الحديثة مع رءوس الأموال الاجنبية اللازمة وهكذا طغى على اهتمامات الأمم المتحدة السياسية (كما حدث فى الحقب الثلاث الاولى) طغى عليها الآن اهتمامات فنية جديدة مما زاد من نشاط الوكالات المتخصصة التابعة

للامم المتحدة مثل منظمة الاغذية والزراعة FAO والصندوق الدولى للتنمية الزراعية IFAD منظمة التنمية الصناعية Unido والبنك الدولى، وصندوق النقد الدولى وبرنامج الامم المتحدة للتنمية UNDP كما زاد نشاط منظمات الامم المتحدة الاجتماعية المهتمة بحقوق الانسان وحقوق الانسان الافريقى ECOSOC الخ.. وبعض هذه الوكالات المتخصصة يقع فى جنيف أو فيينا أو واشنطن أو روما وقليل منها فى نيويورك ومن ثم فقد توزع أيضا جانب كبير من هذه الانشطة خارج مدينة نيويورك.

وهذا لا ينفى استمرار أهمية منظمة الأمم المتحدة حتى فى الجانب الاصلى السياسى منها كمحفل دولى ممثل فى الجمعية العامة للامم المتحدة التى حتى وان كانت قراراتها تعتبر مجرد توصيات (ليست ملزمة مثل قرارات مجلس الامن) فإنها مازالت تمثل الضمير العالمى.

ومع ذلك فإن الأمل معقود على انه مع الاتجاهات الحديثة الحالية نحو كسر حدة أو إنهاء الحرب الباردة والاتجاه إلى المهادنة ومزيد من التعاون ما بين الدولتين العظميين.. بعد ازالة الستار الحديدى والتغيرات الجذرية المهمة التى حدثت فى دول شرق اوروبا فإن ذلك قد ينعكس بالتالى على اجواء الامم المتحدة.. والمنتظر والمأمول ان تعود اجهزة الامم المتحدة السياسية (مجلس الامن ـ الجمعية العامة) الى سابق نشاطها والى بعض فعاليتها السياسية السابقة.. وقد لا تكون هناك ضرورة فى المستقبل الى لجوء واحد من المعسكرين الشرقى أو الغربى الى استعمال الفيتو العتيد لشل نشاط مجلس الامن؟

تلك هى اذن الأمم المتحدة التى قدمت اليها فى يوليو ١٩٧٥ كسفير وممثل دائم مناوب لمصر كان لى هذه المرة حق الاستمتاع بسكن حكومى يعمل به طاهى وعامل آخر (جرسون) لزوم المآدب الرسمية.. وكان السكن يقع فى حى انيق أى فى بارك افينو مع تقاطعه مع شارع ٧٢ فى حين كانت مكاتب البعثة فى شارع ٦٧ أى انه كان يمكننى قطع المسافة بينهما على الاقدام فى مسيرة خمس دقائق..

من أهم ذكرياتى فى هذه السنوات استمتاعى بالعمل فى رفقة الزميل والصديق د. عصمت عبد المجيد والافادة من عظيم خبرته وحنكته السياسية(١) كما سعدت برفقة فريق من الم‍ع واكفأ دبلوماسى مصر سبقت الإشارة إلى أسماء بعضهم كما أتيحت لى فرصة الاجتماع مع د. كورت فالدهايم سكرتير عام الامم المتحدة فى ذلك الحين والذى انتخب بعد ذلك رئيسا لجمهورية النمسا. كما سعدت بلقاء خافيير بيريز دى كويللار سفير بيرو ومندوبها الدائم لدى الأمم المتحدة والذى انتخب بعد ذلك خلفا للدكتور - فالدهايم - سكرتيرا عاما للأمم المتحدة..

---

(١) مما هو جدير بالذكر أن السفراء فى الامم المتحدة يقدمون أوراق اعتمادهم بامضاء من وزير الخارجية وليس رئيس الدولة وتقدم الى سكرتير عام الأمم المتحدة كذلك تقدم اسماء الوفود اثناء دورات الجمعية العامة الى سكرتير عام الأمم المتحدة ويمكن فى حالة العجلة ارسال أوراق الاعتماد أو أسماء الوفود بطريق البرق الى السكرتير العام.

ومما يذكر ان خافيير بيريز دى كويللار يتمتع بذاكرة فذة حقا فضلا عن فضيلة التواضع والدماثة. فبعد تركى منصبى فى نيويورك سنة ٧٦ لم تتح لى فرصة العودة لرؤية بيريز دى كويللار لسنوات طويلة فى سنة ١٩٨٦ أى بعد عشر سنوات كاملة جاء بيريز دى كويللار يزور استراليا فى زيارة رسمية بصفته سكرتير عام الأمم المتحدة.. واقيم حفل غذاء على شرفه فى نادى الصحافة فى كانبرا عاصمة استراليا شهده السلك الدبلوماسى الاجنبى فضلا عن جيش من الصحفيين وفى وسط هذا الجمع الحاشد لمحنى بيريز دى كويللار من على بعد فتذكر اسمى وتهلل ووجهه بشراً وهو يرحب بى أمام هذا الجمع بحرارة ادهشت الكثيرين كما ادهشنى شخصيا.. ولاشك ان مثل هذه الذاكرة الفذة القادرة على الاحتفاظ بصورة واسم الصديق حتى بعد عشر سنوات لهما من أهم الصفات ذات الفائدة الكبرى للدبلوماسيين ورجال السياسة والصحافة.

وذات يوم خلال سنة ١٩٧٦ اثناء تغيب الدكتور عصمت عبد المجيد خارج نيويورك وصلتنى رسالة رسمية مهمة من رئاسة الجمهورية بالقاهرة لابلاغها الى دكتور هنرى كيسنجر وزير الخارجية الامريكى «وصديق» الرئيس الراحل انور السادات.. وقد أفادنى وفد الولايات المتحدة فى نيويورك بان د. كيسنجر كان يقيم فى الجناح المخصص لوزير خارجية أمريكا فى فندق والدورف استوريا الشهير فى نيويورك وتحدد لى موعد للالتقاء به فى فندقه صعدت الى الطابق الذى يقيم به فى أحد ابراج الوالدورف

أستوريا ومررت بعدد من رجال ادارة التحقيقات الفيديرالية FBI المكلفين بحراسة الجناح.. والمشهور عن دكتور هنرى كيسنجر انه شديد الاعتزاز بنفسه وانه جاف فى تعامله مع مرءوسيه أحيانا أو إذا شئنا الاختصار فانه ليس شخصية ظريفة ناعمة أو هكذا سمعت أو قرأت عنه فيما سبق.. ومع ذلك فقد استقبلنى بلطف وترحاب شديد واصر على تقديمى الى السيدة زوجته التى كانت فى حجرة مجاورة لصالون الضيوف فإذا به يطلب اليها الحضور للتعرف على سفير مصر.. وادار الحديث بلباقة وظرف شديدين عن مصر وعن شدة اعجابهما بآثارها الخالدة وبجوها واعتزامهما العودة لزيارتها قريبا.. وقد أكدت هـذه الواقعة ايمانى بان الانسان مخلوق شديد التعقيد وانه مكون من عدة شخصيات وأن الظروف والملابسات هى التى تظهر جانبا معينا من شخصية الانسان ومن هنا فقد لايتفق اثنان فى الرأى حول شخصية رجل معين فى حين قد يكون الاثنان على حق فى تقديرهما.. فكل منهما قد يكون إنما رأى جانبا واحدا بعينه من شخصية ذلك الرجل! وسواء كان د. كيسنجر ظريفا حقا أم لا فقد خرجت بانطباع اكيد عنه انه رجل شديد الذكاء يتمتع بشخصية جد قوية ولم اعد أدهش بسبب اختيار الرئيس الراحل له كالصديق هنرى!!

من ميزات العمل فى وفد من وفود الدول لدى الامم المتحدة إمكان

التردد على الأمم المتحدة : اقصد مبانى السكرتارية وبها مكتبة الأمم المتحدة فضلا عن المبانى الملاصقة التى تضم قاعات الجمعية العامة ومجلس الأمن ومجلس الوصاية وقاعات اللجان المختلفة، والاستماع الى أعظم خطباء العالم (١) المفوهين . ومنهم احيانا رؤساء الدول ووزراء الخارجية والسفراء ومعاونوهم.. كذلك الاستمتاع باستراحة المندوبين Delgates lounge وهى أقرب الى منتدى المندوبين بما تضمه من بوفيه يقدم بعض الشطائر والمشروبات وهى تتيح ايضا الفرصة لاجتماع المندوبين بعضهم ببعض فى اوقات الفراغ فيما بين انعقاد الجلسات.. وهذه القاعة بالذات، فضلا عن قاعات اللجان سالفة الذكر، من أهم مميزات العمل بالأمم المتحدة إذ تمكن المندوبين من التحادث والتشاور وقضاء كثير من الاعمال الموكلة اليهم دونما حاجة إلى تحديد مواعيد رسمية لاجتماعاتهم خارج مبانى الامم المتحدة.

والعمل فى المؤتمرات الدولية يتطلب هذا النوع من سرعة الاتصالات ومن التمكن من اجراء المشاورات دون مواعيد رسمية.

كذلك يوجد فى مبانى الامم المتحدة اكثر من مطعم وكافتيريا

---

(١) تترجم الخطب فوريا إلى واحدة من اللغات الرسمية للأمم المتحدة وهى الانجليزية والفرنسية والاسبانية والروسية والصينية والعربية بالنسبة لاهم الاجتماعات أى فى الجمعية العامة ومجلس الامن الخ.. أما فى الاجتماعات الاقل رسمية فلغات العمل عادة هى الانجليزية والفرنسية.

لموظفي سكرتارية الامم المتحدة وللمندوبين.. اما المطعم الرسمى الانيق فهو مخصص للمندوبين وحدهم ولمدعويهم.. ويعتبر أيضا مكانا ووسيلة لاجراء الاتصالات والمشاورات اليومية حول مائدة الغذاء (فهو مقفل فى العشاء).. ويحاول مطعم المندوبين أحيانا تقديم ألوان مختلفة تمثل بعض مناطق العالم المختلفة.

من ميزات العمل بالمثل فى الأمم المتحدة بنيويورك الاستمتاع بما تتيحه رابطة الامم المتحدة من تسهيلات . وهى جماعة مكونة من فضليات سيدات المجتمع الراقى فى نيويورك وازواجهن تكونت بغرض اقامة صلات الصداقة والتعاون مع دبلوماسيى الامم المتحدة أعضاء وفود الدول الاجنبية وتقديم جميع التسهيلات الممكنة لهم وتعريفهم بالولايات المتحدة وبأعضاء المجتمع البارز النيويوركى.. فضلا عن كل التسهيلات والميزات سالفة الذكر.. وهى ليست بالقليلة .. فإن الرابطة كثيرا ما تدعو اعضاء الوفود وبخاصة رؤساء الوفود إلى رحلات جماعية برفقة بعض أعضاء الرابطة لزيارة معالم نيويورك بالاضافة إلى أماكن أخرى أو مدن قصية فى امريكا مثل سان فرنسيسكو والساحل الغربى أو فلوريدا أو نيواورليانز وهكذا..

وكان من حسن حظى أن الرابطة دعتنى ذات مرة أنا وزوجتى فى رحلة نظمتها لسفراء الدول العربية المعتمدين لدى الأمم المتحدة الى

مدينة نيواورليانز فى ولاية لويزيانا فى أقصى جنوب الولايات المتحدة على خليج مكسيكو.. ومدينة نيواورليانز مدينة امريكية ذات طابع خاص إذ إنها كانت تقع فى اقليم لويزيانا الذى كان خاضعا للحكم الفرنسى وظلت مدينة نيواورليانز محتفظة بطابعها الاستعمارى الفرنسى وكثير من أهلها من سلالة فرنسية وتقدم مطاعمها وجبات فرنسية قديمة الطابع وتشتهر بالاسماك والجمبرى المطهى بطريقة خاصة.. كذلك تقام فى نيواورليانز مهرجانات وهى كرنفال مثل كرنفال ريو دى جانيرو تجىء ثلاثة أيام قبل بدء فترة الصيام عند المسيحيين فى شهر فبراير من كل عام Mardi yras .

وقد تضمنت تلك الرحلة زيارات إلى بعض المزارع القديمة ذات السرايات منذ العهد السابق لالغاء الرق وهى المزارع التى كانت تشتهر بزراعة القطن وكان تستخدم الزنوج العبيد فى جمع القطن الخ.. وبعض تلك السرايات مازال قائما ويوحى بثراء وجاه قديمين منذ القرن الثامن عشر لكن كان بعض السفراء العرب المرافقين لنا يبدون تململهم من زياراتنا لتلك القصور وكانوا يبدون الضجر والسأم ويصرحون برأيهم أن هذه القصور لا تعنى شيئا ذا اهمية بالنسبة لما يوجد فى العالم العربى.. سواء من ناحية الفخامة والقدم ولم يكن هذا ليرضى مضيفينا من الامريكيين الذين يعتزون بآثارهم التاريخية التى لا يتجاوز عمرها مائة وخمسين أو مائتى عام..

ومن أهم ذكرياتي فى هذه الفترة فى الأمم المتحدة (١٩٧٥ ـ ١٩٧٦) زيارة الرئيس الراحل أنور السادات للأمم المتحدة والقائه لخطاب مهم أمام الجمعية العامة هذا ويجمع السفراء لمختلف الدول على أن زيارة «رئيس الدولة» لمقر عمل سفير دولته قد تقفز بذلك السفير الى أعلى كما قد تعصف به..

A visit by the head of state Can make or break an AmPa ssador

وذلك إنما يتوقف على انطباعات رئيس الدولة حول نشاط سفيره فى الخارج ومدى قدرته على انجاح تلك الزيارة من عدمه.

وهناك أمثلة كثيرة – لدى مختلف البلاد ـ لزيارة رئيس دولة اعقبها إما نجاح سفيره وتبوؤه لمناصب أعلى أو على العكس اعقبها انزال السفير من عليائه والحاق بعض الضرر به(١).

---

(١) اثناء زيارة احد رؤساء فرنسا إلى احدى الجمهوريات الناطقة بالفرنسية فى افريقيا اعجب الرئيس بدبلوماسى شاب فرنسى كان يعمل رئيسا لبرامج المعونة فانتقاه ليرأس ادارة المراسم فى رياسة الجمهورية ووزارة الخارجية فى باريس لمدة سنتين أو ثلاث ثم اوكل اليه سفارة من اكبر سفارات فرنسا فى الخارج بعد ذلك ومازال هذا الدبلوماسى الشاب فى مقتبل العمر.. لكن يحدث احيانا ان يتسبب السفير أو قرينته فى اغضاب رئيس الدولة أو ق. ننته.. فيحدث عكس ماحدث للدبلوماسى الفرنسى الشاب تماما..

وقد سبق وصول السادات الى نيويورك وصول رجال الامن والمراسم الرئاسية وكبار رجال الصحافة والاعلام وقد سمح رجال الامن والمراسم الامريكيين للسفير د. عصمت عبد المجيد وقرينته ولى وقرينتى وللقنصل العام المصرى فى نيويورك وقرينته بانتظار السيد الرئيس عند مهبط الطائرة.. واصطف بقية اعضاء الوفد الدائم والمصريون مسافة أخرى بعيدا .. وتوجه ركب الرئيس سريعا إلى نيويورك بمرافقة المندوب الدائم.. وكان خطاب الرئيس السادات أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة خطابا تاريخيا نظرا لما احاط عملية السلام في الشرق الاوسط من اهتمام وضجة.. وقد تسابق اصدقاء مصر من بين وفود الدول الاخرى والامريكيون بل والمصريون لرجائنا تدبير التصريحات الخاصة بالجلوس فى قاعة الجمعية العامة للاستماع الى الخطاب .. وقد غصت القاعة على سعتها ولم تعد هناك أماكن للجميع.. وكان هذا مدعاة لاسف او غضب الكثيرين من الاصدقاء أما لعدم حصولهم على تذاكر للدخول وأما لجلوسهم فى أماكن خلفية بعيدا عن الصفوف الأولى ورغم محاولات وفدنا لارضاء الجميع فلم يكن ذلك في وسعنا على الاطلاق، وقد آثرت زوجتى اختيار مقعد خلفى لجلوسها وتنازلت عن المقعد الامامي لغيرها من الضيوف .. ووجدت نفسها جليسة الى جوار هيرمان آيلتس سفير أمريكا بالقاهرة وقتئذ الذى طار الى نيويورك لنفس المناسبة لكن هذا لم يمنع زوجة احدى مساعدى سكرتير عام

الامم المتحدة سيدة عربية من معاتبتها على عدم اهتمام وفدنا باجلاسها فى الصفوف الامامية والمهم ان وفدنا خرج من هذه التجربة مرفوع الرأس مستمتعا برضاء الرئيس فقد تمت جميع مراسم وتفاصيل الزيارة الرسمية على أتم مايرام . لكن ارضاء جميع من وفد الى نيويورك من القاهرة مرافقا للسيد الرئيس أمر شاق بل مستحيل ولاشك ان بعضهم أو بعضهن عاد الى القاهرة ولم ينل ما كان يطمع فيه من اهتمام او لطلبات خاصة.

نعود الى «عم محمود» طاهى سفارتنا فى ليما بيرو والذى ألح علىّ لمرافقتى الى نيويورك لقد تعلم بسرعة اين يحصل على أجود المشتروات باقل الاسعار.. لكنه ظل يردد الى نهاية المدة دهشته لارتفاع اسعار المأكل فى نيويورك عنها فى بيرو وكان يسكن مع بعض العمال المصريين الآخرين العاملين فى بعثتنا فى الطابق الاسفل (البدروم) لمكاتبنا وذات يوم جاء الىّ هاشا باشا يزف إلىّ نبأ عثوره على ثلاجة كهربائية نقلها الى غرفته.. سألته عن ثمنها راجيا الا يكون قد دفع ثمنا اكثر مما يطيق راتبه.. فاجابنى ضاحكا لقد عثرت عليها مهجورة على الرصيف قرب بعثتنا فنقلناها الى حيث نسكن وجربناها فوجدناها تعمل بكفاءة.. أهكذا ؟ وقد تأكدت من صدق كلامه.. فقد جرت عادة الامريكيين على ترك مالا ينفعهم (ثلاجات أو أفران أو مايشبه) على الرصيف وكثيرا ما كان هذا الذى لم ينفعهم ذا نفع

لغيرهم من محدودى الدخل.. وقد نعم عم محمود بهذه الثلاجة طوال مدة اقامته فى نيويورك .. مجانا..

أما نحن زوجتى وأنا فقد انتقلنا من «شقتنا» القديمة التى ورثناها عن سلفى الى شقة اكثر اتساعا فى نفس المبنى، كانت اكثر مناسبة لنا فى اقامة المآدب الرسمية، لكن لم نكد نمضى فى نيويورك ١٤ شهرا إلا ووصلنا نبأ تعيينى سفيرا لمصر فى روما عاصمة إيطاليا!! مرة أخرى تمكن اسماعيل فهمى من مفاجأتنا مفاجأة تامة!!

مرة أخرى ذلك الشعور المزدوج بالاسف لمغادرة المكان الذى ألفناه وأحببناه ولترك أصدقائنا ومعارفنا بهذه السرعة الى مكان آخر.. أقل ما يقال عنه إنه لا يمكن رفضه أو الاسف على الذهاب اليه؟! لكن لماذا كل هذه العجلة؟ كثيرا ما تساءلت عما إذا لم يكن أحد الاسباب هو علم وزارتنا بأنى وزوجتى «دون أولاد» وأن تنقلنا اسهل من نقل ذوى الاولاد المرتبطين بالمدارس وخلافه، أم لعل وزارتنا قد أحست بأنى من محبى كثرة السفر والترحال وانى إنما دخلت السلك الدبلوماسى لكى ارى العالم أم أن السيد اسماعيل فهمى يرى فىّ اصلح سفراء مصر للخدمة فى روما عاصمة ايطاليا؟!

لكن لماذا «روما بالذات» إنى لا اتكلم الايطالية بعد! فى حين أنى أجيد الاسبانية. لماذا لم يرسلونى الى مدريد حتى استطيع مزاولة

عملى فورا لاجادتى لغة البلد وطالما اشتقت الى العمل فى مدريد لكن دون فائدة ! إذن فلتكن روما على بركة الله.

لكن لابد أن اتعلم الايطالية قبل ذهابى الى روما! وقد التحقت فعلا بمدرسة برليتز للغات فى نيويورك ورجوتهم اعطائى برنامجا مركزا شديد السرعة لمدة شهر او اكثر بدلا من ثلاثة أشهر أو ستة شهور إذ كانت الفسحة أمامى لتنفيذ النقل عبارة عن شهرين وبعد أول يومين من بدئى دروس الايطالية على يد استاذة ايطالية ذهبت الى مدير مدرسة برليتز شاكيا شرحت له أننى ذاهب الى روما كسفير لمصر وإن حاجتى الى الكلمات الايطالية هى ما يحتاجه الدبلوماسى فى أحاديثه مع الساسة الايطاليين والدبلوماسيين وليس حاجة التلميذ الصغير الى معرفة اسماء القلم والنافذة والاستيكة!! بعد ذلك استبدلوا استاذتى باستاذ واستبدلوا المنهاج القديم بآخر أكثر ملاءمة لاحتياجاتى.. وبعد شهر من ذلك المنهاج المركز اصبحت قادرا على التفاهم بالايطالية.

وقد أقام لنا سفير ايطاليا ومندوبها الدائم فى نيويورك حفل عشاء تكريما ووداعا لنا قبل الذهاب الى بلده.. وتبادلنا فيه الخطب والانخاب وتمنى لى التوفيق فى روما كما تمنيت له استمرار التوفيق فى نيويورك.. وكان قد شغل منصب المندوب الدائم فى نيويورك مرة قبل

تلك المرة، ثم نقل سفيرا لايطاليا فى موسكو، ثم عاد بطريقة أو اخرى سفيرا لبلاده فى الامم المتحدة!! إذ لم يكن يرضى عنها بديلا..

واثناء حفل العشاء في داره قالت زوجته موجهة حديثها الى زوجتى سوف تجدين الايطاليين شعبا صعب الارضاء فقد رأوا كل شىء من قبل .. !! Ils Ont tout vu

تقصد أن الشعب الايطالى شعب ذو تاريخ وحضارة طويلة وقد مرت عليه كل التجارب.. فأجابتها زوجتى ضاحكة: لا عليك فإن المصريين أيضا اكثر قدما من الشعب الايطالى.

فاستدركت سفيرة أيطاليا ووافقت زوجتى على أن المصريين أقدم من الايطاليين حضارة!! وفى نوفمبر ١٩٧٦ طرنا الى روما لنبدأ عهدا جديدا أو قل حلقة جديدة من تلك السلسلة الطويلة من الترحال والتجوال.



«الايطاليون[1] وسفير مصر فى إيطاليا

حقا أنا مدين للسيد/ اسماعيل فهمى نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية الاسبق اذ انه هو الذى اختارنى لملء منصب سفير مصر فى روما وهو المنصب الذى اصبح شاغرا فى سبتمبر ١٩٧٦ بنقل السيد السفير محمود صلاح الدين حسن الى منصب وكيل وزارة الخارجية بالقاهرة.. ويبدو ان السيد/ اسماعيل فهمى كان يختارنى لملء كل منصب شاغر يشعر إنه يحتاج إلى شخص سريع الحركة لا يعترض على كثرة التنقل.. فقد اختارنى أيضا فيما سبق لملء منصب السفير او المندوب المناوب فى نيويورك بعد بقائى فى بيرو حوالى ١٤ شهرا ، ثم نقلنى الى روما بعد ١٤ شهرا من بقائى فى نيويورك ولا يسعنى إلا شكره فكلا المنصبين ذو أهمية ومكانة بارزة..

أما منصب سفير مصر فى إيطاليا فكان قد شغله من قبلى سفراء

---

(١) «الإيطاليون» عنوان أحسن كتاب عن ايطاليا كتب بقلم: إيطالى / امريكى اسمه لويجى بارزينى The italians

متميزون حقا منهم السادة عبد العزيز بدر ود. نجيب هاشم، ود. ثروت عكاشة.. والسيد/ محمد حافظ اسماعيل والسيد محمود صلاح الدين حسن.. وكفاني فخراً إني خلفتهم في تلك السفارة وفي هذا البلد.. إيطاليا .. مهد الرومان القدامى.. والامبراطورية الرومانية.

وإيطاليا ليست غريبة على مصر ، فقد اقترن تاريخ البلدين منذ عهد كليوباترا وكل من يوليوس قيصر، ومارك انطونيو ثم عندما أصبحت مصر مستعمرة رومانية ابتداء من سنة ٣٤ قبل الميلاد ولمدة ستة قرون من الزمان انتهت بالفتح العربي لمصر سنة ٦٤٠ بعد الميلاد وفي العصور الوسطى قامت علاقات تجارية وقنصلية بين مصر (تحت حكم المماليك) وبعض المدن الايطالية المستقلة مثل أمالفي والبندقية (فينيسيا) وجنوا.. أما في السنين القريبة الماضية فمن منّا لايتذكر مئات الآلاف من الايطاليين المصريين الذين استوطنوا القاهرة والاسكندرية وبورسعيد وكانوا يتكلمون العربية بلهجتنا المصرية ولم يهاجروا من مصر إلا بعد التأميمات والتمصيرات سنة ١٩٦١!

وكان الملك فؤاد قد أتم تعليمه في إيطاليا ويجيد التحدث بالايطالية وله فيها صداقات وطيدة حتى ان ملك إيطاليا الراحل «فيكتور عمانويل» لجأ الى مصر اثناء الحرب العالمية الثانية ومنحته مصر قصرا يعيش فيه في الاسكندرية طوال مدة منفاه في عاصمتنا الثانية.. أما فاروق فقد اختار هو الاخر ان يعيش منفيا في روما عاصمة ايطاليا بعد خلعه

عن العرش سنة ١٩٥٢ وذلك لانه كان يتكلم الايطالية وكانت له صداقات وميول ايطالية ليس اقلها ولعه بعيشة الترف الرغدة التى يعشقها الشعب الايطالى هو الاخر La dolce vita.

وإيطاليا ـ بعد اليونان ـ أقرب دول أوروبا الى مصر جغرافيا لكنها ربما كانت أقرب شعوب أوروبا إلى مصر روحيا وخلقيا.

والمسافة بين مصر وصقلية أقرب الجزر الايطالية الى مصر تقطعها السفن فى يومين كما تقطع الطائرات الحديثة المسافة بين القاهرة وروما فى أقل من ساعتين ونصف لكن أوجه الشبه بين الايطاليين والمصريين كثيرة حقا فإن الحضارة المصرية القديمة الفرعونية أقدم حضارات حوض البحر الابيض المتوسط كان لها تأثيرها على حضارة الاغريق (اليونان القديمة) ومن ثم على حضارة الرومان (الذين سكنوا ايطاليا من قبل الميلاد الى القرن السادس الميلادى).. ويحب الايطاليون المزاح والفكاهة مثلما يجيدهما المصريون ويعبرون عن مشاعرهم بتحريك الايدى تماما كما نفعل وهم كثيرو الصخب والضوضاء.. كما هو حالنا، وهم أهل الفنون إذ برعوا فى فنون النحت والرسم والبناء والتشييد والموسيقى والغناء مثل حال المصريين قدامى كانوا أو معاصرين ، ويفضل الايطاليون المعاصرون السلام والمسالمة والحياة الناعمة على قسوة الحروب وجبروتها رغم أن المصريين الفراعنة والايطاليين الرومان كانوا فيما سلف من أكبر الغزاة الفاتحين فى

العصور الخوالى ودانت لهم أركان العالم القديم.. كذلك فمن صفات الايطاليين الكرم وسعة العيش وحسن وفادة الغريب..

والمجتمع الايطالى مفتوح تماما للسلك الدبلوماسى الاجنبى كحال مجتمع القاهرة بالنسبة للسلك الدبلوماسى الاجنبى فى مصر الذى يشيد هو الآخر بكرم وانفتاح العائلات المصرية الراقية وإن ننسى لا ننسى صفة أخرى مشتركة بين الايطاليين والمصريين ألا وهى حب كليهما للالقاب و«التفخيم» فكل الناس فى مصر أما دكتور أو باشمهندس (حتى السباك وعامل التليفزيون وميكانيكى السيارات) أو بك أو باشا، اما فى ايطاليا فكل متعلم منهم اسمه دكتور وكل رجل محترم(١) Commandatore وكل رجل ثرى أو قوى(٢) صاحب سعادة Eccelenza وهكذا..

والشعب الايطالى ، مثله مثل الشعب المصرى، خليط من عدة أجناس ولعل اكبر آثار اختلاط الايطاليين «بالجنس العربى» تبدو فى جزيرة صقلية التى خضعت لحكم العرب طيلة ثلاثة قرون تقريبا من القرن التاسع الى الثالث عشر وفى جزيرة ساردينيا.

أما فى إيطاليا نفسها فقد امتدت آثار هذا الاختلاط شمالا عبر كالابريا - بوليا حتى منطقة مدينة نابولى ، ففى الجزء الجنوبى من شبه

---

(١) كوماندا تورى : الذى يأمر .

(٢) اتشيلنز أى صاحب السعادة .

الجزيرة الايطالية وتسمى أيضا الحذاء الايطالى يبدو السكان اكثر سمرة وهم أقصر قامة من أهل الشمال ويميل شعرهم إلى الخشونة أما شمال روما فإن الايطاليين أكثر بياضا وطولا وشعورهم أكثر نعومة وقد تكون عيونهم زرقاء أو ملونة ويقال على سبيل الفكاهة فى ايطاليا ذاتها أن أوروبا تبدأ أو تنتهى عند مدينة روما.. جنوبها تبدأ افريقيا وشمالها أوروبا! هذا وتختلف لهجات اللغة الايطالية كثيرا من منطقة إلى أخرى وبصفة عامة فإن لغات أهل الجنوب (نابولى وساردينيا وصقلية) صعبة الفهم حتى بالنسبة لايطالى الشمال إذا تدخلها كلمات كثيرة عربية الاصل أو كلمات مشتقة من لغات أخرى فى البحر الابيض كالفينيقية مثلا.. ومع ذلك فهناك بعض أهل صقلية مما يبدون وكأنهم من أهل السويد والنرويج مثلا وذلك حق إذ أن الحملات الصليبية مرت ونزلت بصقلية ذهابا وإيابا وكان كثير من قوات الصليبيين من أهل ألمانيا وانجلترا وفرنسا وشمال ايطاليا فضلا عن أن صقلية خضعت لحكم الاسبان والفرنسيين.

ويمكننا القول بصفة عامة بالمثل أن التشابه بين سكان الجنوب الايطالى وبين عرب حوض البحر الابيض لم يقف عند حد الشكل أو الخلقة بل تعداه الى الخلق أيضا فإن سكان الجنوب الايطالى مازالوا يحملون كثيرا من صفات المجتمعات العربية القديمة مثل الكرم والشهامة والنخوة والدم الحار «والشرف» أو الغيرة على الشرف والثأر والانتقام والتماسك العائلى الشديد والولاء للاسرة والعشيرة.

وكتمان السر أو تكتم أنباء العشيرة والأسرة.. وكان من آثار تلك العادات المتأصلة قيام المافيا ويقال فى إيطاليا ربما على سبيل الفكاهة أن اصل الكلمة عربي «مافى» لا يوجد! وصارت «مافيا» فعند سؤال رجال البوليس لسكان موقع ما عن المسئول عن ارتكاب حادثة ما تكون إجابة السكان «مافى» - لا يوجد - لا نعرف .. وصارت «مافيا» .

ويقال إنه بعد زوال الحكم العربى من صقلية وبعض مناطق جنوب ايطاليا خضع أهلها بطبيعة الحال لحكم غير عربى. حكم الصليبيين المسيحى ثم الايطاليين أو الاجنبى (اسبانيا - فرنسا-الخ) .. ومن هنا ظهر تماسك اهل الجنوب بما يجرى فى عروقهم من دم عربى حار وعادات عربية ضد المحتل الاجنبى وبالتدريج تحول هذا الشعور الى شعور عام شمل الاهالى كلهم يعبر عن عدم ثقتهم وعدم احترامهم للحكومة. أيا كانت.. وعدم التعاون معها فى دفع الضرائب المستحقة أو الكشف عن الجرائم.. فعند محاولة الحكومة جباية الضرائب كان رد الاهالى «مافى» وعند الاستفهام عن اية معلومات عن مرتكبى مخالفات او الجرائم يكون الرد ايضا مافى !! الصمت التام.. وتشكو الحكومة الايطالية الى يومنا هذا من مخالفة كثير من الايطاليين وتهربهم المستمر من دفع الضرائب حتى إنه قد قدر أن ما يضيع على الحكومة الايطالية سنويا من ضرائب مستحقة لا يقل عن الاربعة بلايين من الدولارات !! «مافى» !!

وللمرأة مكانة فريدة فى المجتمع الايطالى سواء أكانت زوجة أو صديقة أو خليلة فلها كل الرعاية والاعجاب إلا أن للأم مكانة وسلطة حقيقية فوق أفراد العائلة وهى مصدر الالهام والدافع والحافز وهى المسيرة لحياتهم اليومية ولكن ذلك لا يمنع أن رب الاسرة مازال حتى فى ظل هذا النظام يتمتع بمكانة رب العائلة بما تحمل من احترام ومهابة.. ولكل مجتمع صغير فى جنوب ايطاليا زعيم أو أب روحى IL Padrino يسيطر على مصائر عدة عائلات أو عشائر بفضل شخصيته وعمره ومكانته وقد كان هذا أساس ظاهرة العصابات المنظمة سواء فى ايطاليا أو فى الولايات المتحدة التى هاجر اليها الآلاف المؤلفة من أهل جنوب ايطاليا اذ اشتهر منهم آل كابونى وغيرهم من زعماء الجريمة المنظمة فى أمريكا وبخاصة فى عهد تحريم صناعات الخمور حتى الثلاثينات ومازالت هذه الاخلاقيات اساس ظاهرة اختطاف الاغنياء وبخاصة فى جنوب ايطاليا - واطلاق سراحهم نظير فدية تدفع الى هذه العصابات.. ومازالت الحكومة الايطالية تجد أن أهم الموانع والعراقيل لكسر شوكة المافيا هى ظاهرة الصمت والكتمان والتكتل العائلى.. والخوف من انتقام وثأر La Mafia La camorra فلكل منها منطقة نفوذه .

تلك الصفات الغالبة على أهل جنوب ايطاليا بالاضافة إلى تأخر

الجنوب اقتصاديا وعمرانيا عن الشمال الايطالى جعل أهل الشمال يطلقون على الجنوب الايطالى (من روما جنوبا Mezzo Giorno ويعنى ذلك منتصف النهار) بمعنى أنه لم يستكمل تقدمه بعد وما زال فى ظلمات الليل !! كذلك يصف أهل الشمال أنفسهم بأنهم مثل قاطرة السكة الحديد تجر وراءها ثقل ايطاليا وهى المسئولة عن تقدمها.. والواقع أن هذا صحيح الى حد كبير فان الحكومات الايطالية المتعاقبة أقامت مؤسسة خاصة بتنمية الجنوب الايطالى(١) وخصصت مبالغ طائلة من الميزانيات المتعاقبة للاسراع بتنمية الجنوب لكى يلحق بالشمال.. ومع ذلك ورغم التقدم الذى طرأ على الجنوب الايطالى ورغم إقامة كثير من الصناعات الحديثة به ومنها فروع لمصانع فيات للسيارات وما أشبه، إلا أن الشمال مازال هو مقر أغلب الصناعات .

ورغم كل ذلك فقد حققت ايطاليا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية تقدما هائلا نحو مجتمع الكفاية والصناعات الحديثة.. فقد كانت ايطاليا قبل الحرب الثانية دولة زراعية بل زراعية أقل تقدما بكثير عن فرنسا وألمانيا فى ميدان الزراعة لكنها الآن أصبحت واحدة من أغنى سبع دول فى العالم.. أى عضو منتدى الدول الصناعية والمتقدمة وهى الولايات

Casa Del Mezzo giorno (١)

المتحدة واليابان وألمانيا وبريطانيا وكندا وايطاليا وفرنسا وذلك بفضل ذكاء الايطاليين ومقدرتهم على العمل الشاق وتصميمهم على اللحاق بركب الدول المتقدمة فزاد الانتاج الصناعي ثلاثة أمثال ما كان عليه قبل الحرب ورغم أن الأراضي الصالحة للزراعة بايطاليا ٤١٪ فقط من المساحة الكلية فإنها أصبحت دولة مصدرة للمأكولات ومنها القمح والدقيق والارز والعنب والنبيذ والزيتون والحمضيات والخضراوات.. رغم هجرة عمال الزراعة من الريف.. ويعمل حاليا ٣٠٪ من مجموع القوى العاملة في الصناعات والتجارة في حين تعمل نسبة كبيرة من القوى العاملة في خدمة الحكومة والخدمات الأخرى المصرفية والسياحية.. وقد بلغ دخل إيطاليا من السياحة سنة ٨٩ عشرة بلايين من الدولارات (خمسة أمثال دخل مصر من السياحة سنة ١٩٨٩) ويبلغ انتاج ايطاليا من الكهرباء ١٨٠ بليون كيلو وات/ ساعة سنويا وهو يمثل ١٢ مثلا لانتاج مصر من الكهرباء.. وكان إنتاج إيطاليا للصلب الخام ٢٥ بليون طن مترى وهو ما يعادل ٢٦ مثلا للانتاج المصرى من الصلب. كما يبلغ الناتج القومى السنوى ١٩٨٩، ٣٥٠ بليون دولار سنويا احد عشر مثلا للانتاج المصرى لكنه ثلث الناتج القومي الفرنسي .. هذا وكان متوسط دخل الفرد في ايطاليا سنة ٨٩ سبعة آلاف دولار سنويا وهو ايضا يماثل عشرة أمثاله في مصر.. فالنسبة محفوظة ومتكررة إيطاليا أغنى من

مصر عشر مرات في حين أن عدد السكان في البلدين واحد ٥٥ مليون نسمة .

ورغم هذا فكانت السنوات من ١٩٧٠ - ١٩٨٠ سنوات عنف سياسي يساري شهدت اغتيال رئيس الوزراء ألدو مورو ونشاط الألوية الحمراء الثورية وجماعة النضال المستمر وذلك بسبب تفاقم ظروف المعيشة بالنسبة للطبقات الكادحة نتيجة لارتفاع اسعار البترول العالمية وتضخم الغلاء في ايطاليا تبعا لذلك ومن مظاهر الاتجاه نحو اليسار في ايطاليا فوز الحزب الشيوعي في انتخابات سنة ٧٨ باربعة وثلاثين في المائة من الأصوات وكان هذا أوج قوته التي أخذت بعد ذلك في التقلص في حين فاز الحزب الديموقراطي المسيحي بثمانية وثلاثين في المائة منها فقط . كذلك من مظاهر الانحراف نحو اليسار انه في سنة ١٩٧٦ تم تعديل الكونكوردات أي المعاهدة بين الدولة الايطالية والفاتيكان بحيث لم تعد الكاثوليكية دين الدولة الرسمي كما صوت الايطاليون بنسبة ٣ إلى ٢ من أجل اقرار حق الطلاق وبنسبة مرتفعة أيضاً من أجل الابقاء على حق الاجهاض مما يعني ان تأثير الدين في ايطاليا لم يعد بنفس قوته كالماضي .. رغم أن روما كانت في الماضي المدينة الكاثوليكية المثالية بحكم وقوع مدينة الفاتيكان (مقر البابا) وسط روما ذاتها أي أنه توجد دولتان ممثلتان في روما هما إيطاليا والفاتيكان .

والفارق كبير ما بين شمال ايطاليا وجنوبها حقا .. إن شمال ايطاليا يعتبر ثقافيا وحضاريا قطعة من وسط اوروبا ينتمي إلى سويسرا والمانيا والنمسا اكثر من انتمائه إلى البحر الابيض .. وأهل الشمال مختلفون عن أهل الجنوب فأهل الشمال اكثر برودة وجدية ونشاطا والتزاما ويعملون أكثر من أهل الجنوب كما أنهم اكثر ليبيرالية ومدن الشمال الصناعية معقل اليسار الشيوعي ميلانو وتورينو وجنوا لكن أهل الجنوب أقرب إلى شعوب البحر الأبيض ومنهم العرب بطبيعة الحال حتى ماكل أهل الجنوب يعتمد كثيرا على التوابل الشرقية الثوم والبصل «والصلصات الفنية والطعم الحاد الواضح» (١) لكن المأكل أو المطبخ الايطالي بأكمله شماله وجنوبه اكثر مطابخ اوروبا قربا إلى ذوقنا الشرقي (ربما فيما عدا المطبخ اليوناني المتأثر بالتركي) وقد أصبحت أنواع المكرونة وهي كثيرة جدا في ايطاليا وأنواع البيتزا اطعمة عالمية طبقت شهرتها جميع الآفاق ..

وبمناسبة الحديث عن المكرونة فمن صفات الايطاليين الطريفة إنه في البيوتات الكبيرة وبعد حفلات العشاء الفاخرة التي تحفل بما لذ وطاب وإذ تمتد السهرة إلى منتصف الليل يقدم الداعي عند بلوغ

---

(١) صدق أو لا تصدق .. لقد اكتشفنا أن الفلاحين في منطقة بوليا Puglia بجنوب ايطاليا يصنعون «المش» ويأكلونه .. لكن مع بعض الفارق طبعاً!!

منتصف الليل مائدة أخرى جديدة يسمونها «مائدة سباجيتى» (١) مخصصة لأنواع الاسباجتى فقط وغالبا ما يصنعها المضيف بنفسه !!

ويتفنن طهاة ايطاليا فى تنويع طبق الاسباجيتى : بالصلصة الـ Bolognesi نسبة إلى مدينة بولونيا أى بصلصة اللحم المفروم .. واسباجيتى Alla Carbonara بالكريمة وقطع الجامبون الصغيرة واسباجيتى Mare Monte «البحر والجبل (بها قطع ثمرات البحر وعش الغراب) واسباجيتى بصلصة الشيطان أى حريفة (فلفل أحمر) - اسباجيتى alle Vongole مع أم الخلول - هذا فضلا عن أنواع كثيرة جدا من المكرونات ذات الحشو الخاص .. كذلك فإن البيتزا أنواع كثيرة تنسب إلى المدن وطرقها المختلفة أشهرها بيتزا نابولى نابوليتانا، أما البيتزا الريفية فهى تتميز عن البيتزا الأخرى بأنها أكثر سُمكا وأنها أكثر رخاوة .. كذلك تشتهر ايطاليا بأنواع السلامى Salami والمورتاديللا و الجامبون دى بارما Iambon di Parma إلخ ... ومئات أنواع الجبن التى تتفق مع الذوق المصرى مما جعل المطبخ الايطالى من أهم المطابخ العالمية .. ولما كانت شهرة الإيطاليين أنهم يجيدون الأكل الطيب ، والحياة الرغدة الناعمة وأنهم أهل طرب ومزاح

La Spage tta ta (1)

وفكاهة فإن تلك الشهرة قد جذبت إلى إيطاليا عشرات الملايين من السائحين سنويا (٤٠ مليون سائح سنة ١٩٨٩) كما جعلت سفن الركاب الايطالية التى تقوم بنزهات معينة فى البحر الأبيض أو الكاريبى محل إقبال الطبقات الثرية المنعمة إلى اليوم .

أما السائحون الأجانب فيحجون إلى ايطاليا سعيا وراء مشاهدة آثارها القيمة التاريخية الرومانية أو التى تعود أيضا إلى القرون الوسطى أو عصور النهضة فضلا عن مدنها وقراها التاريخية والحديثة على حد سواء .

ومن مدن ايطاليا التاريخية القديمة التي تعتبر تحفا فنية كاملة والتى تعود بك الى القرون الوسطى مدن فلورانسا بها ٢٢ متحفا وفينسيا ٢٦ متحفا وسيينا Sienna وبيزا Piza ذات البرج الشهير المائل - وسبوليتو Spolelto - Todi واورفيتو وجوبيو واسيس Assissi وبادوا Padua

أمـا مدينة فلورانسا فهى مهد عصر النهضة والثورة الفنية والثقافية فى العالم وبها الـ Duomo أى القبة بمعنى الكاتدرائية وقصر السنيوريا وجاليريا اوفيزى وقصر Pitti والجسر القديم وبها ٢٢ متحفا اما مدينة بيزا فيها ميدان الكاتدرائية والبرج المائل الشهير.

وسيينا من اروع مدن العصور الوسطى بكاتدرائيتها الشهيرة ويقام فيها سنويا سباق الخيل بالملابس التقليدية القديمة Il Paleo di Sienna ومدينة بيروجيا على ارتفاع ١٥٠٠ قدم تطل على نهر التيبر وهى من أجمل مدن العصور الوسطى وبها جامعة بيروجيا الشهيرة ومنذ سنة ١٣٢٠ وبها قسم خاص بالأجانب .. كما أنها مشهورة بالشوكولاتة التى تحمل نفس اسم بروجيا . ومدينة Assissi مسقط رأس سان فرنسيس وهى لؤلؤة بيضاء على تل عال اخضر اللون وبها بازيليكا سان فرانسيسكو الشهيرة والمدينة كلها تحفة من العصور الوسطى أما Gubbio فهى ايضا مدينة من العصور الوسطى وتقع على تل ١٧٠٠ قدم وبها قصر الدوق الشهير وكاتدرائية شهيرة . Orvieto مثلها مثل أغلب مدن العصور الوسطى فى ايطاليا تقع على صخرة عالية حصينة بها كاتدرائية شهيرة من أجمل التحف الهندسية القوطية فى ايطاليا وقصر الشعب من القرن ١٢ .

أما Spletto فهى مدينة من العصور الوسطى ايضا وتشتهر بمهرجان التمثيل الدولى من نصف يونيو الى نصف يوليو وبعروض الاوبرا والتمثيليات .

وTodi مدينة قديمة على أعلى التل محاطة بسور قديم لحمايتها وبها ميدان الشعب بمبانيه من عصر النهضة والكاتدرائية من القرن

الثانى عشر .. وهناك أيضا مدينة البندقية أو فينسيا Venizzia ملكة بحر الادرياتيكى المبنية على ١١٨ جزيرة ويربط بينها ٣٧٨ جسرا أهمها جسر ريالتو وجسر التنهدات وتشتهر بميدان سان ماركو وما حواه من مبانٍ تاريخية رائعة الجمال .

***

وفيرونا Verona (مهد روميو وجولييت) وغيرها كثيرة جدا .. وتتميز كلها بآيات الفن الجميل ، فن العصور الوسطى وعصر النهضة مع العناية الفائقة بالترميم السليم والنظافة المستمرة .

والمدن فى حد ذاتها متاحف مفتوحة. أى أنها تحفة للناظرين خاصة وأن الايطاليين برعوا فى فن الصيانة والترميم والمحافظة على جمال ونظافة المدن القديمة وكأنها بنيت بالأمس.. والواقع أن السائح يحار «أى المدن التاريخية يرى وأيها يؤجل رؤيته الى الزيارة القادمة؟ من كثرة عدد تلك المدن أو التحف التاريخية .. ومن كثر ة عدد المتاحف المغلقة التى تعج بها تلك المدن.. اما المدن والاثار الرومانية التى ترجع الى سنة ٧٥٣ ق.م مثل مدينة روما Roma على سبيل المثال فهى ايضا اكثر مما يستطيع الزائر أن يستوعبه فى زيارة او زيارتين لايطاليا.. فمدينة روما Roma عاصمة ايطاليا – وتعدادها ٤ ملايين وحدها تستغرق زيارتها ومشاهدة معالمها السياحية الرائعة اسابيع

طويلة.. وفى هذا يقول الايطاليون Per Roma non Basta una Vita لا تكفى حيـاة واحدة للاستمتاع برومـا انـها متحف مفتـوح.. لا داعى لزيارة المتاحف المغلقة في روما وعدها ثلاثة وعشرون متحفا يكفى التجوال فى شوارعها وميادينها .. ستجد الآثار والمبانى الفنية الرائعة على يمينك وعلى يسارك وامامك وخلفك وكلها فى احسن حالات الترميم والنظافة مهما بلغ بها القدم ألف أو الفى سنة ثم هناك من تلك الاثار الرومانية الكوليزيوم والساحة الرومانية وبها تياترو كاراكالا حاليا – سور المدينة (سـور أدريان) البـوابات القديمة السور المعوج وبوابته قرب نهاية شارع فنيتو Via Veneto الشهير هذا فضلا عن المبانى وآثار العهود المسيحية في مدينة الفاتيكان نصف كيلو متر مربع وخارجها.. ميدان سان بيترو San Pietro كنيسة سيستين Sistine Chapel وروائع مايكل انجلو وليوناردو دا فينشى وعشرات غيرها من أعمال كبار النحاتين والرسامين بل إن روما بها ٦٤ كنيسة وكاتدرائية جديرة بالزيارة!! كل هذا دون الدخول الى متحف واحد حتى الآن رغم أن روما بها ٢٣ متحفا مغلقا فضلا عن الميادين والمبانى الشهيرة(١).

---

(١) Piazza Venezzia - piazza Navona-Piazza di Spagna Piazz del Poplo-Il Panthione Castel San't Angelo Fontana فضلا عن عديد من المسلات المصرية القديمة منها واحدة من القرن السادس قبل الميلاد فى بياتزا – مينيرفا تقوم على قاعدة رخامية على شكل فيل.

ولما كانت ايطاليا مشهورة بأنها بلد الموسيقى او الأوبرا الايطالية فإن الزيارة الى ايطاليا لا تكتمل دون زيارة اوبرا ميلانو La Scala di Milano واوبرا نابولى San Carlo وكلاهما من أشهر اوبرات روما كاراكالا بروما واوبرا جنوا وفنيسيا وغيرها.. لكن أروع ما رأيت كان أوبرا فيرونا الصيفية (يوليو واغسطس) إذ أنها تقام فىLArena حلبة فيرونا المفتوحة فهى تياترو رومانى من القرن الأول بعد الميلاد وكانت تقام فيها احتفالات المصارعة الخ.. فى عهد الرومان وهى مازالت فى حالة جيدة جدا إذ أنها تناولتها ايضا يد الترميم الايطالى المستمر.. وتتسع لخمسة آلاف متفرج وعند بدء الاوبرا (وقد شاهدت فيها اوبرا لاترافياتا) تطفأ جميع الأنوار ما عدا خمسة آلاف شمعة كهربائية خافتة تضاء خلف كل متفرج.. ومع أصداء الموسيقى الايطالية الرائعة وسط أنسمة الليل الرطب فى ذلك الجو الشاعرى يقضى السائح أجمل تجربة له فى ايطاليا .. بعد أن يكون قد أمضى النهار فى مشاهدة منزل جوليت والشرفة التى كان روميو يقف تحتها يتناجيان ومدينة فيرونا أجمل مدن ايطاليا التاريخية حقا.. وقد أحسن شكسبير صنعا باختيارها مهدا لقصة حب روميو وجولييت .

لكن جاذبية ايطاليا لملايين بل لعشرات ملايين السائحين لا تعتمد على آثارها التاريخية الخالدة فحسب وانما ايضا وبنفس القدر على جمال الطبيعة وتنوعها فضلا عن جمال مدنها الحديثة وشواطئها

وبحيراتها وجبالها.. فالجبال فى ايطاليا تحتل ثلث مساحة البلد الكلية وتضفى عليها الكثير من جمالها ومظاهر تنوعها.. فهناك جبال الألب فى الشمال والتى تتيح رياضات التزحلق على الجليد فى كورتينا دامبتزو مثلا.. لكن تمتد سلسلة جبال الابنين كعامود فقرى وسط ايطاليا من شمالها الى أقصى جنوبها .. حتى فى صقلية.. اما بحيرات ايطاليا فتعد بالعشرات وتوجد حول وشمال روما حتى أقصى الشمال الى حدود فرنسا وسويسرا والنمسا.. وبالشمال توجد اجمل بحيرات ايطاليا واكبرها بحيرات جاردا وماجيورى وكومو.. وتقع حولها سلسلة من أجمل مصايف العالم منها مدينتا بلاجيو وملاجيو وتشرنوبيو على بحيرة كومو وستريزا على بحيرة ماچيورى وهكذا أما عن شواطىء إيطاليا فهى من التنوع والثراء بحيث يحار السائح فى الاختيار فيما بينها .

وهناك على سبيل المثال الرفييرا الايطالية Riviera Italiana التى تمتد من مائة كيلو متر جنوب شرقى جنوا حتى حدود فرنسا غرب جنوا وأهم مصايفها رايالو وسانتا مارجريتا وبورتوفينو .. وألاسيو - بورديجيرا - سان ريمو . وإذا شاء السائح اختيار شاطئ أكثر دائا وأقل تكلفة فهناك ساحل أما لفى La Costa Amalfitana جنوبى نابولى ويشتهر أيضا بالجمال الخلاب والدفء والتقادم التاريخى، ومن

أهم مصايفها مدن أمالفى وبوزيتانو وسورينتو وإن ننسى لا ننسى جزيرة كابرى نفسها وما يحوطها من شهرة رومانتيكية عالمية ثم هناك شواطئ بحر الادرياتيكي ابتداء من ليدو فنيسيا قرب مدينة فينسيا وحول تريستا ثم جنوبا حتى مدينتى ريمينى وكاتوليكا وفى أقصى الجنوب برينديزى وبارى الخ .. وهى أرخص المصايف ..

إن السائح ليحار ماذا يختار ليملأ أجازته القصيرة فى ايطاليا وماذا يترك ؟ إن سلسلة الطرق الحديثة السريعة (أوتوستراد) كفيلة بنقل السائح من أقصى شمال ايطاليا إلى أقصى جنوبها فى سهولة وراحة ويسر وأمان تام .. ثم أن الطرق الجيدة الأخرى تتيح له أن يمر فى عديد من المدن الصغرى حتى دون أن تكون فى برنامج رحلته فإذا به يدهش لما يراه من جمالها وألوان الفن الحديث والقديم بها وقد كان لنا حظ السفر بالسيارة عبر كل ايطاليا تقريبا واكتشفنا مدنا صغيرة ذات جمال أخاذ وتاريخ رائع مثل Padova - modena - Marostica – فى شمال ايطاليا بل Faenza و Bologna (مركز صناعات الفخار) و Ravenna و Clrbino .

وربما لم يسمع عن هذه المدن أغلب السائحين الأجانب لكن وجدنا في اكتشافها بطريق المصادفة لذة أى لذة ! ففى مدينة ماروستيكا سالفة الذكر استوقف نظرنا أثناء عبورنا وسط المدينة فى أحد ميادينها الرئيسية الحافلة بالأبنية التاريخية التفاف الناس حول اثنين من «الفرسان» المرتدين ملابس العصور الوسطى يلعبان الشطرنج على رقعة قد تبلغ سبعة امتار مربعة رسمت على أرض الميدان .. أما قطع الشطرنج فكانت أيضا من الفرسان المرتدين نفس الملابس التاريخية ! ويجيد الأيطاليون تماما فن استحضار الذوق والطعم التاريخي القديم لمدنهم التاريخية حتى أنهم عند إتمام الترميمات والصيانة الدورية يحافظون على مظهر القدم والأصالة ، ومن لم يتذكر ذلك من السائحين سوف يتساءل لماذا يترك الايطاليون مدنهم وأبنيتهم بهذا القدم ؟ .. أو قد يظن البعض أنها تحتاج إلى طلاء جديد فى حين أنها أعيد طلاؤها بالأمس ؟!

كانت تجربتنا كسفير مصر في روما من أروع تجاربى فى الحياة الدبلوماسية قاطبة وذلك بسبب نوعية الشعب الايطالي من جهة وبسبب نوعية السفارة المصرية فى روما من جهة أخرى .. والمعلوم أن ايطاليا لم «تصبح دولة واحدة متحدة إلا فى أواخر القرن التاسع عشر (١٨٦٠ - ١٨٧٠) على يد جاريبا لدى وكافور garbaldi / Cavour وكانت

ايطاليا قبل ذلك ، ومنذ سقوط الامبراطورية الرومانية ممزقة إلى دويلات وأمارات ودوقيات بعضها يخضع لحكم البابا الذى كان فى العصور الغابرة يتمتع بالسلطة الدنيوية والدينية على حد سواء ، ومن ثم فإن ايطاليا ، بأكملها وروما على وجه الخصوص ، تحوى نوعين مختلفين من النبلاء أو الطبقات الارستقراطية : نبلاء الدولة أى النبلاء المدنيون ونبلاء البلاط البابوى ويطلق على الاخيرين «الارستقراطية السوداء» لأن نبلاء البلاط البابوى كانوا يتشحون بالسواد فى المناسبات الرسمية .. وقد اجتمع فى روما فريقا النبلاء الايطاليين : النبلاء المدنيون والنبلاء الدينيون وكلاهما يحمل ألقابا متشابهة : برنس (أمير) ودوق – مركيز – كونت – بارون الخ .. والغريب فى الأمر أنه حتى بعد إلغاء الملكية عقب استفتاء جرى بعد الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٧ وصوتت فيه غالبية الشعب فى صالح الجمهورية فإن الألقاب مازالت تستعمل ولو بشكل غير رسمى ويفخر بها أصحابها ويفخر أصحابهم بدعوتهم إلى حفلاتهم ومنازلهم . وهذا جانب من أخلاق الايطاليين يكاد يفوق ما يحدث فى انجلترا ذاتها حيث الملكية والارستقراطية مازالتا فى عنفوانهما (١) ..

---

(١) فى ايطاليا لا يمكن توجيه الحديث إلى السفراء إلاّ بكلمة Eccelenza أى صاحب السعادة فى حين أنه فى بريطانيا حيث الملكية مازالت متأصلة ينادون السفراء بكلمة Ambassador مجردة من لفظة صاحب السعادة !

هذا وقد دهشنا حقا لما وجدناه فى مظاهر الثراء الفاحش والجاه العريض التى تجسمت فى أناقة بعض المنازل أو السرايات التى دعينا إليها فى روما وجنوا وغيرهما من المدن (ومن أهمها قصر الأميرة Pavellecini فى روما الذى يفوق أناقة بعض القصور الملكية فى بلدان أخرى .. بل إن كثيرا من هذه القصور مازال يحفل بالخدم والحشم الذين يرتدون أزياء العصور القديمة التاريخية Liveries أثناء الاحتفالات الكبيرة .

ولقد أثلج صدورنا وكان مصدر عون لنا فى مهمتنا فى ايطاليا ما شهدناه من انفتاح المجتمع الايطالى وتقديره وحبه لمصر وحضارتها وتاريخها ومجدها القديم .. كل ذلك ممثل فى شخص سفير مصر .. فإن الايطاليين وإن كانوا يحسون بفقرهم النسبى أو تأخرهم النسبى عن انجلترا أو فرنسا وألمانيا الحديثة فإنهم يعوضون ذلك بافتخارهم بحضارتهم الرومانية القديمة بل الأقدم كثيرا والأرسخ قدما من حضارات تلك الدول الأخرى الأوروبية التى كانت جزءا من امبراطورية الرومان !! وإذا كان الايطاليون يجدون فى التاريخ القديم ملاذا وعونا لهم فى التغلب على ما يعانونه من نقص أو قلق إزاء تلك البلاد الأوروبية الأكثر ثراء وتقدما فمن باب أولى يقف الايطاليون احتراما واعجابا امام الحضارة المصرية الأقدم عهدا من اليونانية والرومانية !

ومن هنا فان مصر تحتل منزلة في ايطاليا لاتعادلها منزلة دولة عربية أخرى أو أى دولة فى العالم الثالث ..

كذلك كانت منزلة دار السفارة المصرية في روما عونا كبيرا لنا فى اداء مهمتنا .. فقد سبقت الاشارة إلى أن الملك فاروق قد أحسن وفادة الملك الايطالى فيكتوريو ايمانويل أثناء إقامته كلاجىء إلى الاسكندرية ووضع قصراً صغيراً تحت تصرفه فى الاسكندرية طوال مدة إقامته بها .. وما ان انتهت الحرب وعاد الملك الايطالى إلى بلاده وتم افتتاح سفارة مصرية فى روما إلا ووضع الملك ايمانويل قصرا صغيرا من قصوره تحت تصرف سفارة مصر فى روما يحتل جزءاً من الحديقة العامة المسماة فيلا أدا الشهيرة Villa Ada (الحديقة العامة حوالى ٣٠٠ – ٤٠٠ فدان فى وسط روما) ومازالت السفارة المصرية تقيم فى فيلا أدا ويطلق عليها أيضا اسم فيلا سافويا نسبة إلى عائلة سافويا العائلة المالكة الايطالية السابقة [١] .. وقد ساعد إلى اتساع صالونات هذا القصر الملكي ومكانته التاريخية على إضفاء مكانة بارزة على سفارة

---

(١) لم تكن فيلا سافويا ملكا لمصر بل إن السفارة كانت تستأجرها من العائلة المالكة وتقوم بتسديد إيجارها شهريا وهو عدة آلاف من الدولارات لكنه سعر بخس بالنسبة لمكانة ذلك القصر واتساعه ومكانته التاريخية ففيه القى القبض على موسولينى فى ١٩٤٣/٧/٢٦ بأمر الملك فيكتوريو إيمانويل الثالث وانتهى عهد الفاشية فى إيطاليا .. لكن تمكنت مصر أخيراً من شراء فيلا سافويا بعد مفاوضات استمرت سنين طويلة مع عائلة سافويا.

مصر فى روما وعلى سفيرها وبالتبعية على مكانته ومكانة مصر فى المجتمع الايطالى فى روما .. وهذا وتقع بعض سفارات الدول الكبرى فى روما فى قصور تاريخية ذات مكانة وشهرة ، ومن حسن الحظ أن السفارة المصرية من ضمن هذه السفارات القليلة العدد .. وكان يمكننى بفضل اتساع صالوناتها وحجرات المائدة بها أن أدعو إلى العشاء (جالسين) أربعين مدعوا ومدعوة .. أما حفلات الاستقبال (الكوكتيل) فكنا ندعو قرابة الثلاثمائة مدعو .. ولحسن الحظ فقد كانت السفارة مزودة بعدد مناسب من العاملين ومن التسهيلات لمجابهة مثل تلك الالتزامات الرسمية .. كذلك زارتنا وفود رسمية مصرية متعددة من الوزراء (الاعلام – الرى – الاسكان – المواصلات – الخ ..) ومن كبار الكتاب (الأساتذة ثروت أباظة ويحيى حقى ود . يوسف إدريس) وذلك لإجراء حوار مع بعض المستشرقين والمستعربين الايطاليين المهتمين بالأدب العربى والأدب المصرى خاصة ..

كما نجحنا فى تأسيس جمعية صداقة ايطالية/ مصرية مقرها ايطاليا ، وتأسست بالمثل جمعية صداقة مصرية/ ايطالية مقرها القاهرة برئاسة الدكتور عادل جزارين باعتباره رئيساً وقتئذ لشركة النصر (فيات) لصناعة السيارات .. والمعلوم أن أول انتاج للسيارات فى مصر كان بمساعدة شركة فيات الايطالية ومازلنا وثيقى الصلة بها .

هـذا وقـد دعت جمعية الصـداقة الايطـالية / المصرية في صقلية د . عـادل جزارين وقـرينته ولفيفـا من أعضـاء الجـمـعيـة في مـصـر وقريناتهم لزيارة صقلية في ضيافة الجمعية الايطالية لمدة عشرة أيام .. وقد تكفلت الجـمعية الايطالية فى صقلية بكل نفقات الاقامة والمأكل والتنقلات فى صقلية طيلة الأيام العشرة .. منذ وصولنا إلى باليرمو عاصمة صقلية إلى حين مغادرتها فى طريق العودة .. وكانت حفاوة الجمعية الايطالية بنا وبالوفد المصرى جديرة حقا بما هو معروف عن كرم الضيافة الايطالية وحسن التنظيم والاهتمام على المستوى الرسمى فى كل المدن فى صقلية بتوثيق الصلات مع مصر سياسيا وثقافيا وتجاريا .

هذا وقد تضمنت تلك الرحلة إلى صقلية زيارة كل معالم مدينة باليرمو (العاصمة) الثقافية والسياحية ومنها كاتدرائية باليرمو التى اقامها النورمنديون سنة ١١٨٥ وتم استكمالها فى القرنين ١٤ ،١٥ وبها صالة أعمدة مأخوذة من المسجد الاسلامى القديم المقام - أسفلها - كذلك كنيسة Cappella Palatina (١١٣٢ - ١١٤٠) المنشأة فى عهد النورمانديين أيضا وبها جدران محلاه بالموزايكو فى قصر النورمانديين الذى كان أصلا قصرا عربيا .. هذا وبأسفل الكاتدرائية دور كامل (بدروم) كان أساس الجامع القديم وتم اقامة الكاتدرائية فوقه وبقى الجزء العربى محتفظا بنقوشه العربية!!

وإلى جانب تلك الآثار العربية الحية فهناك ظاهرة الاسماء العربية الباقية أو التى كانت أساس تسمية بعض البلدان الحالية فى صقلية ومنها مدينة Marsala جنوب غرب صقلية وكان أصل هذه الكلمة «مرسى الله» ومدينة..Mazara وكان أصلها «مزارة» أو مزرعة «الوادى .. كذلك هناك مدينتان فى وسط صقلية هما (قلعة النساء) Calta nissetta و(قلعة جعرانى) . والبعض يعتقد أن مدينة Cifa-lu وتنطلق شيفاللو أصلها «شفاء الله» بسبب جوها الصحى.. وهكذا .

وقد زارت بعثة جمعية الصداقة المصرية مدن باليرمو وكالتانيسيتا وأجريجنتو والأخيرة بها آثار إغريقية ومعابد إغريقية فى حالة طيبة جدا وكانت اجريجنتو مقرا لحضارة إغريقية راقية وكان الإغريق القدماء يلقبون ممتلكاتهم فى ايطاليا وآسيا الصغرى Magna Grecia (اليونان الكبرى) . وبعد ذلك زارت سيراكوزا (وهى من الأماكن القليلة جدا فى العالم خارج مصر التى تنتج نبات البوص Reeds الذى يستخرج منه أوراق البردى Papyrus وصناعة أوراق البردى فى سيراكوزا متقدمة جدا) !!.ثم كاقانيا وأخيرا مدينة تاورمينا Taormi-na التي تطل على منظر من أجمل مناظر العالم السياحية: من ناحية على شاطيء البحر من ارتفاع ١٥٠٠ قدم وتطل على مدن ساحلية كثيرة وشواطيء للاستحمام وخلافه .. ومن ناحية أخرى تتطلع إلى أعلى لتجد قمة بركان Etna الشهير تطل على مدينة تاورمينا من ارتفاع

ثلاثة آلاف متر تقريبا .. وأنتا أكبر بركان في أوروبا ومازال حيا نشطا في فترات متقطعة .



شرفت أثناء رئاستي لسفارة مصر في روما بزيارتين مهمتين إلى روما أولهما كانت زيارة السيد/ حسني مبارك نائب رئيس الجمهورية حينئذ إلى روما وبرفقته السيدة قرينته سنة ١٩٧٨ وقد أجرى سيادته محادثات مهمة مع رئيس وزراء ايطاليا السنيور اندريوتي كان لي شرف حضورها ، تناولت فيما تناولت العلاقات الممتازة القائمة بين مصر وايطاليا وقضية الشرق الأوسط - وكانت سائرة في طريق الحل - والعلاقات بين ايطاليا وبعض الدول العربية مثل ليبيا والعراق ، وقد وصف الايطاليون السيد حسني مبارك بعد المباحثات بأنهم وجدوه « شديد الصراحة » في التعبير عن آرائه دونما لف أو دوران ، وبأنها طريقة مريحة لمن يتعامل مع سيادته حتى وإن أدهشته في البداية!!

أما الزيارة الثانية فكانت زيارة الرئيس الراحل أنور السادات إلى روما في طريق عودته من زيارة لبريطانيا وفرنسا ولعلها كانت أواخر سنة ١٩٧٨ أو مطلع ١٩٧٩ . ولهذه الزيارة ذكريات حية في مخيلتي لما صاحبها من أهمية بالغة ومن بعض الجوانب الشخصية المثيرة! وذلك رغم إنها استغرقت سحابة نهار واحد ..

فقبل وصول الرئيس إلى ايطاليا أنبأتنا السلطات الايطالية بأنه نما إلى علمها وجود مؤامرة تستهدف حياة الرئيس وأفراد عائلته الذين يصحبونه فى الزيارة وانه لهذا قررت الحكومة الايطالية أن تكون تنقلات السيد الرئيس من المطار الحربي تشامبينو Ciampino إلى مدينة الفاتيكان حيث كان سيقابل البابا، بالهيلوكوبتر ثم من الفاتيكان إلى قصر ريفى قرب البحر Ostia حيث سيقابل الرئيس جيوفانى ليونى رئيس جمهورية ايطاليا ووزراءه، بالهيلوكوبتر أيضا ومن القصر إلى المطار الحربي بالهيلوكوبتر وذلك منعا لمرور موكب السيد الرئيس بالسيارات فى طرق روما المزدحمة .. كذلك قررت السلطات الايطالية عدم خروج أبناء السيد الرئيس وكانوا يصحبته فى زيارتيه فى بريطانيا وفرنسا، عدم خروجهم من المطار الحربى، بل أن السلطات الايطالية سوف تقدم إليهم ضيافتها فى استراحة المطار وسوف تعد لهم غداء ايطاليا فاخرا بدلا من خروجهم للغداء فى روما ..

وعلى الفور أبلغت مسئولى الأمن بالسفارة هذه التعليمات ، كما ابلغتها إلى رؤساء المكاتب الفنية التابعة للسفارة (مكتب السادة الملحق الحربى والمستشار الاعلامى والمستشار الثقافى والوزير المفوض التجارى ورئيس أكاديمية الفنون والسيد القنصل العام وهكذا) واتفقنا كلنا فى اجتماع نظمته بالسفارة على وجوب اتباع تلك التعليمات بمنتهى الدقة. وكنا جد شاكرين للسلطات الايطالية على يقظتها ودقة

تنظيمها .. لكن .. ما كنت أجهله حتى ساعة وصول السيد الرئيس إلى روما أن أحد رؤساء تلك المكاتب الفنية بالسفارة كان على اتصال مسبق بأبناء السيد الرئيس تليفونيا فى باريس ووعدهم بدعوتهم إلى حفل غداء فى مطعم الفريدو الشهير فى روما وانه اتفق مع المطعم فعلا على جميع الاستعدادات اللائقة بأبناء رئيس جمهورية مصر الرئيس السادات!! حتى أننا سمعنا بعد ذلك من مدير مراسم إيطاليا بأن كل أبناء الحى الذى يوجد به المطعم كانوا على علم بزيارة أبناء الرئيس السادات للمطعم!!

كنت على رأس المستقبلين المصريين فى المطار العسكرى «تشامبينو» وبعد أن تمت مراسم الاستقبال الرسمية بحضور الرئيس جيوفانى ليونى شخصيا فى المطار قدمت أعضاء الجالية المصرية الرسمية إلى سيادته ثم دعا السيد الرئيس لركوب هليوكوبتر حربى ايطالى نقله إلى الفاتيكان لمقابلة البابا، وتشرفت بمرافقة سيادته فى الهليوكوبتر .. وكان لقاء البابا والرئيس السادات بالفاتيكان عاطفيا وحارا وعبر عن تأييد البابا وسلطات الفاتيكان لسياسة السادات السلمية .. وكان لى شرف مصافحة البابا وتلقى هدية تذكارية صغيرة من قداسته .. وكانت المرة الأولى والأخيرة التى أتيحت لى أثناء اقامتى فى روما الفرصة لدخول قصر البابا بالفاتيكان وجناحه الخاص والتعرف إلى رئيس وزراء الفاتيكان ووزير خارجيته .. وقد تمت المقابلة

طبعا بحضور زميلى السيد سفير مصر بالفاتيكان وقتئذ وكان السفير الشافعى عبد الحميد. لكن فى تلك الاثناء .. بمجرد مغادرتى للمطار برفقة السيد الرئيس بالهليوكوبتر حاول الزميل سالف الذكر (رئيس أحد المكاتب الفنية بالسفارة) بكل وسيلة ممكنة أن يخرج أبناء الرئيس من المطار الحربى بسيارات السفارة حتى يتناولوا الغداء الموعود فى مطعم ألفريدو الشهير .. لكن زوجتى الموجودة بالمطار برفقة زوجة نائب مدير المراسم الايطالية منعتا حدوث هذا الخلل .. كذلك رفض سائق سيارة السفارة الامتثال لرجاء وإلحاح رئيس ذلك المكتب الفنى وذلك تنفيذاً لتعليماتى المشددة المسبقة اليهم قبل مغادرتى المطار .. ومن هنا فقد غضب الابناء وأصروا على عدم مغادرة الطائرة والنزول إلى الاستراحة المعدة لهم بالمطار! وقد صعدت زوجتى إلى الطائرة وشرحت لهم الموقف وحاولت جاهدة انقاذ الموقف وعدم إحراج موقف مصر ازاء السلطات الايطالية وأمام زوجة نائب مدير المراسم التى وقفت تنتظر هبوطهم من الطائرة مدة نصف ساعة أو أكثر دون جدوى!! وأخيرا تمكنت زوجتى من اقناعهم فنزلوا من الطائرة إلى الاستراحة على مضض ظاهر وتناولوا طعام الغداء الذى أعدته لهم السلطات الايطالية فى الاستراحة وهم يتندرون فيما بينهم ويتبادلون النكات المصرية على ايطاليا وعلي سفارتنا فى روما لخوفها ومبالغتها فى الحذر!

بعد زيارة السادات للفاتيكان انتقلنا إلى القصر الرئاسى فى -Os tia والقائم وسط حدائق غناء متسعة آمنة حيث جرت المباحثات حول مائدة متسعة ضمت إلى جانب الرئيس السادات السيد حسن كامل رئيس الديوان والسفير اسامة الباز كما ضمتنى ، ومن الجانب الايطالى ضمت الرئيس جيوفانى ليونى ورئيس الوزراء اندريوتى وكبار رجال الخارجية الايطالية وقد سيطر السادات تماما على جو المباحثات بشخصيته الدرامية الجذابة وبتأكيده لسياسته السلمية وصداقته لايطاليا ولعزمه على كسب معركة البناء والتعمير بمساعدة الاصدقاء فى أوروبا وأمريكا وايطاليا .. وكان الايطاليون شديدى التجاوب لكل هذا الانفتاح ولمظاهر الصداقة والود من جانب السادات .. كانت الزيارة ناجحة تماما بكل المقاييس واستطاع السادات كسب الايطاليين إلى صفه تماما ولم يكن ذلك عسيرا منذ ان كان قد أعلن عن سياسته السلمية قبل ذلك بسنوات ..

لما عدنا إلى المطار مستقلين الهليوكوبتر وأطلعنى أعضاء السفارة على محاولات اخراج أبناء الرئيس خارج المطار تحديا لتعليمات مضيفينا الايطاليين قمت بعتاب الزميل المسئول رئيس ذلك المكتب الفنى بالسفارة كما قمت بإبلاغ السيد/ حسن كامل رئيس الديوان فقد كان على صلة طيبة بذلك الرجل .. لكنى فوجئت بالسيد/ حسن كامل يحاول أن يخفف من أسفى أو غضبى بتفسير ما حدث بأنه إنما تم عن حسن نية وعن رغبته فى إكرام أبناء السادات .. ليس إلا !!

لكن لم تمض شهور على ما حدث إلا وكان السيد وزير .. المسئول عن ذلك المكتب الفنى أو الذى يتبعه ذلك المكتب الفنى قد قام بإنهاء إعارة ذلك الموظف المسئول وإعادته إلى القاهرة ..

لكن تحضرنى ذكرى أخرى طيبة عن زيارة السنيور اندريوتى رئيس وزراء ايطاليا إلى مصر بدعوة من الدكتور مصطفى خليل رئيس الوزراء ووزير الخارجية .. فقد صحبت السنيور اندريوتى إلى مصر كما جرت العادة وحضرت جلسات المباحثات فى مبنى وزارة الخارجية بميدان التحرير .. وحضر المباحثات بالمثل . د بطرس غالى وزير الدولة للشئون الخارجية وكبار المسئولين .. والواقع أنى دهشت لحسن عرض الدكتور مصطفى خليل لمواقف مصر وآمالها وتطلعاتها سواء بالنسبة لقضايا السياسة الخارجية أو الداخلية فقد كان واضحا كل الوضوح وأفكاره مرتبة ترتيبا موفقا للغاية .. وكان واضحا بالمثل تجاوب السنيور اندريوتى التام مع طلبات مصر ولمواقفها . وكان السنيور اندريوتى يصحبه مترجم وزارة الخارجية الايطالية وكان يجيد الحديث بالعربية الفصحى إلى جانب الايطالية طبعا لغته الأصلية .. إلا أنه عند وداع د . مصطفى خليل لستيور اندريوتى فى مطار القاهرة قرر الرئيسان فى آخر لحظة وفى المطار - اقامة مؤتمر صحفى بحضور الرئيسين يجيبان فيه على أسئلة الصحفيين .. ولم يكن المترجم الايطالى موجودا فى المطار .. فبأى لغة يعقد المؤتمر؟ وبأى لغة يتكلمان؟ لأنه أثناء

المباحثات كان كل طرف يستعمل لغته الاصلية أى العربية أو الايطالية .. لكن فى المطار كان يوجد صحفيون مصريون وايطاليون وأوروبيون أيضا ..

ولم ينقذ الموقف إلا تبرعى بالقيام بالترجمة الفورية أثناء المؤتمر الصحفى .. ولحسن الحظ كنت على المام كاف بالايطالية إلى جانب الانجليزية أو الفرنسية .. ومن ثم فقد قمت بترجمة أسئلة الصحفيين وغيرهم إلى العربية أو الايطالية ثم بترجمة اجابات د . مصطفى خليل إلى الايطالية ، كما قمت بترجمة اسئلة الصحفيين المصريين وغيرهم إلى الايطالية وقمت بترجمة اجابات اندريوتى إلى العربية أو الانجليزية وقد كان جزائى أو مكافأتى ابتسامة عريضة من د . مصطفى خليل وشكرا لى على جهدى .. أما عند عودتى إلى روما بعد ذلك فقد كان لهذه الزيارة ولذلك المؤتمر الصحفى ، إلى جانب الزيارتين سالفتى الذكر إلى روما ، كان لها جميعا تأثيرها الطيب على رجال الخارجية الايطالية إذ ضمنت صداقتهم وتشجيعهم لى وتأييدهم لمهمتى فى ايطاليا ..

كانت ، ومازالت العلاقات بين مصر وايطاليا على أحسن ما تكون . وإن كانت فى حاجة إلى شىء ما فانما إلى مزيد من الفهم المتبادل لدواعى أو لحدود الطرف الآخر ، ومزيد من التعاون التجارى والاقتصادى والثقافى .. فى حدود امكانيات الطرفين ..

فان ايطاليا راغبة حقا وترى فائدة محققة فى مساعدة مصر على تأمين سلامتها ووحدة أراضيها ورخائها وكانت ايطاليا بلا شك واحدة من عناصر الضغط ومن دائرة الاصدقاء الذين ضغطوا على إسرائيل للانسحاب من سيناء فان ايطاليا حكومة وساسة وشعبا تؤمن بأن مصر دولة عريقة الحضارة وإنها تتبع حاليا سياسة مسالمة عاقلة تقوم على الحوار المتحضر والتفاوض وسيلة لبلوغ أهدافها وإنها لذلك جديرة بتأييد ايطاليا السياسى والاقتصادى فى حدود امكانيات ايطاليا .. كذلك تدرك ايطاليا أن لمصر مكانة فريدة فى العالم العربى والافريقى والاسلامى وبين دول عدم الانحياز والعالم الثالث .. وكلها تهم ايطاليا وحلفاءها الغربيين أيضا أنه من صالح ايطاليا ودول الغرب منح مصر من المساعدات المادية والسياسية ما كان يقلل من اعتماد مصر على «الاتحاد السوفيتى» وحده وما يمنع مصر من الانحياز لأحد المعسكرين، بل ان تظل صديقة لكليهما ، وان كانت مصر كما تدرك ايطاليا جيدا جزءاً من العالم العربى قلبا ووجدانا بحكم حضارة مصر ودياناتها وثقافتها ومزاجها العام هذا وتدرك ايطاليا ان مصر ليست دولة بترولية ضخمة مثل السعودية أو دول الخليج لكن ايطاليا تدرك جيدا أيضا ان إحتلال مصر لمكانتها الحالية الفريدة الحضارية والثقافية بين كل دول العالم العربى لا تتوقف على مدى ثراء مصر أو امتلاكها للدولارات البترولية ، بل ان قوامها حضارة مصر ووزنها الثقافى

والتاريخي القديم ودورها السياسي الراهن وهو ما يؤهل مصر لاحترام شعب عريق هو الآخر انحدر من سلالة الرومان القدماء .. ومن هنا فان ايطاليا إذ تمد - كما تمد دائماً - يدها لتأييد مصر سياسيا واقتصاديا إنما تفعل ذلك لتقديرها لمصر الحضارة والثقافة والاشعاع الفكري والحضاري والتأثير السياسي في منطقتها وإنها مازالت مفتاح العالم العربي وإنها ملكت وتملك مفتاح السلام ومفتاح القلاقل والحروب .. ومفتاح قنال السويس الذي يهم ايطاليا كثيرا وكان إغلاقه في الماضي ذا تأثير اقتصادي سيىء على ايطاليا ..

لكن كان السياسيون الايطاليون شديدي الالحاح علينا أثناء تولّي سفارتنا في روما لكي تقدر مصر انه رغم تأييدهم الواضح لحقوق الشعب المصري وحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وإنه رغم إدانة ايطاليا لمواقف إسرائيل المتعنتة فان ايطاليا ليست قادرة - وحدها على ممارسة الضغط الكافي على إسرائيل وإنما كانت ايطاليا ومازالت تحاول استعمال دورها وسط المجموعة الأوروبية للتأثير على المتنعين أو المتقاعسين من بينها من أجل اتخاذ المجموعة لمواقف معلنة قوية تعتبر في حد ذاتها عناصر ضغط على واشنطن وتل أبيب فصوت ايطاليا وحدها وإن كان يسرنا إلا أنه ليس مؤثرا بالقدر الكافي ..

كذلك يحاول ساسة إيطاليا إفهامنا وافهام جميع أصدقاء إيطاليا أن ايطاليا لا تحدوها أية أطماع سياسية خاصة فى صداقتها مع مصر أو بقية العالم العربى .. أو الافريقى أو العالم الثالث .. فايطاليا ليست لها من سياسة خارجية سوى انتمائها إلى التحالف الاطلسى والسوق المشتركة إنما ايطاليا لا تبغى من مصر سوى التبادل التجارى والفنى الحر الشريف لمنفعة الجانبين .. ومن هنا ترجو ايطاليا أن تكون هى أيضا جديرة بتأييد مصر لها وإن أيطاليا محتاجة أيضا إلى تفضيل مصر للتعامل التجارى مع أيطاليا أحيانا (حتى على حساب فرنسا أو المانيا أو بريطانيا) فايطاليا نفسها فى حاجة اقتصادية لتأييد دول العالم الثالث لها ولتعاونها مع ايطاليا اقتصاديا وثقافيا وفنيا !!

ولإيطاليا شكوى مستديمة من تفضيل مصر (وبعض الدول العربية الأخرى) للتعامل الاقتصادى والفنى مع فرنسا والمانيا وبريطانيا على حساب ايطاليا أو بدلا من إيطاليا : (صفقات الاسلحة والمعدات والتعاون التكنولوچى) .. وتود ايطاليا الا تنسى مصر صداقة أيطاليا بدورها لتستحق بعض التأييد والفهم من الدول العربية .

هذا وأثناء تولّى سفارتنا فى روما سنة ١٩٧٨ تقدمت شركة فيات الايطالية للسيارات عن طريق وزارة خارجية ايطاليا إلى السفارة المصرية ومنها إلى الحكومة المصرية بمشروع لاقامة ايطاليا لشبكة

أوتوستراد (طرق سريعة) تصل مابين الاسكندرية والخرطوم مرورا بالقاهرة وعواصم الصعيد والمراكز السياحية المهمة فى الصعيد ، وتتفرع من الصعيد إلى موانىء البحر الأحمر ومنها إلى السعودية بطريق خط ملاحى للعبارات بمعنى وصل إيطاليا بمصر بشبكة من العبارات والطرق السريعة ومن مصر إلى السعودية والسودان بروابط اقتصادية وثقافية متينة . وكان العرض يتضمن قيام ايطاليا بتوريد الشطر الاجنبى (العملات الحرة) من قيمة تمويل المشروع على أن تجد مصر الشطر المحلى بالعملة المصرية الا أن أزمة مصر الاقتصادية فى ذلك الوقت لم تساعد مصر على قبول ذلك العرض . رغم أن مصر مازالت أحوج ما تكون إلى مثل هذا المشروع الذى من شأنه ليس مجرد تشجيع السياحة والتنمية العمرانية والحضارية فى مصر والسودان وإنما أيضاً ربط مصر بأيطاليا (والسعودية) بروابط ثابتة قوية تضمن استمرار حسن العلاقات وقوتها للحقبات القادمة .

هذا ولا يسعنى أن اختتم هذا الفصل عن إيطاليا دون أن اسجل شعورى بأن الأبواب فى ايطاليا كانت ومازالت مفتوحة أمام مصر وأمام «سفير مصر بروما» .. فان الشعب الايطالى وساسته يكنون احتراما تاريخيا كبيرا لاسم مصر ولحضارتها بل ولمكانتها السياسية الحاضرة فى العالم العربى والاسلامى والعالم الثالث وفى البحر الأبيض والمتوسط .. ومنذ عهد الرئيس السادات أصبحت إيطاليا تؤيد سياسة

مصر تأييدا يكاد يكون مطلقا ، كما أن إيطاليا من الدول التى تؤيد حق الشعب الفلسطيني فى تقرير مصيره وتنتقد مواقف إسرائيل وتشجبها علانية ابدا ..

وواضح اذن أن ايطاليا سوف تكون جد سعيدة بأية فرصة تتيحها لها مصر لتعزيز أواصر الصداقة والتعاون الفني والتجارى والاقتصادى معها لأنه ليس لايطاليا حاليا من سياسة فى واقع الأمر سوى سعيها وراء مزيد من الأسواق ومن سبل التبادل التجارى والاقتصادى .

وأرى أن أمر تعزيز وتوثيق علاقات مصر مع إيطاليا أمر هين ومرده رغبة مصر ومدى حاجتها ودرجة سعيها وراءه وحسب وأى جهد سوف تبذله مصر فى هذا السبيل لابد وأن يؤتى ثماره فى ايطاليا فانها أرض خصبة سهلة بالنسبة لنا ، خاصة اذا ما استمرت مصر فى سياستها السليمة العاقلة الحكيمة الحالية وجعلت منها نورا ونبراسا وهو ما ارجوه وادعو له ..

هناك جانب آخر لعملى كسفير لمصر فى إيطاليا أحب أن اشير إليه قبل أن نغادر ايطاليا نهائيا .. فان سفير مصر فى روما بحكم منصبه هو أيضا مندوب مصر الدائم لدى منظمة الاغذية والزراعة F.A.O إحدى الوكالات المتخصصة التابعة للامم المتحدة ومقرها فى

روما وبهذا أمضيت فترة السنوات الثلاث فى روما اعمل ايضا كممثل دائم لمصر فى مكتب المنظمة يعاوننى السيد المستشار / الزراعى بالسفارة وكان وقتئذ د . فؤاد رضا وكان زميلا يتمتع الى جانب الكفاءة والمقدرة الفنية بالدماثة ولطف المعشر .. وكان مسئولا عن الجوانب الفنية فى عمل منظمة الاغذية والزراعة فى حين كنت انا مسئولا عن الجانب السياسى والتمثيلى فى المنظمة .. ومن ذلك على سبيل المثال الاتصال المستمر والمنتظم مع د . ادوارد صاوما المدير التنفيذى للمنظمة وقتئذ وهو لبنانى ويشغل منصبه بالانتخاب لمدة ست سنوات وقد أعيد انتخابه ثلاث مرات لما يتمتع به من كفاءة نادرة وقدرة إدارية عظيمة وملكة الاتصالات وحسن التنظيم .. كذلك يتمتع بشخصية شديدة القوة الى حد الاعتزاز الزائد بالنفس .. لكننا كنا أصدقاء وجمعتنا أواصر التقدير المتبادل والتعاون المثمر .. وكان من نصيبى الدفاع عن مصالح مصر فى تلك المنظمة سواء فى شكل البرامج اللازمة المخصصة لمصر أو عدد الموظفين بتلك المنظمة وضمان حقوقهم اذ أن «الوظائف الدولية» فى منظمة الامم المتحدة وبعض وكالاتها المتخصصة تحتاج الى مساندة الحكومات بين الحين والاخر من أجل عدم ضياع تلك الحقوق فى غمرة التزاحم والتنافس بين الدول على تلك الوظائف .

وتشاء الظروف أن أختتم مدة عملى فى روما بحضور جلسات عمل

صاخبة في الجمعية العامة (مؤتمر) لمنظمة الاغذية والزراعة في روما .. فإن الدول العربية أعضاء المنظمة كانت قد قطعت علاقتها بمصر السادات بعد توقيعه معاهدة السلام مع اسرائيل وطالبت تلك الدول العربية منظمة الاغذية والزراعة F.A.O بنقل مقرها الاقليمي من مصر الى دولة عربية اخرى لعلها كانت سوريا أو الاردن .. وقد اتصل بى ادوارد صاوما شارحا لى طبيعة الطلب المقدم من الدول العربية قائلا . إن مصر لا تملك الوقوف فى وجه تلك الرغبة المقدمة من غالبية الدول التى تتمتع بخدمات ذلك المكتب الاقليمى وأن مؤتمر المنظمة سوف يستجيب لطلبات الدول العربية فى مدى خمس دقائق فى الجلسة القادمة ، ولهذا فيجدر بمصر ألا تعارض ذلك الطلب ..

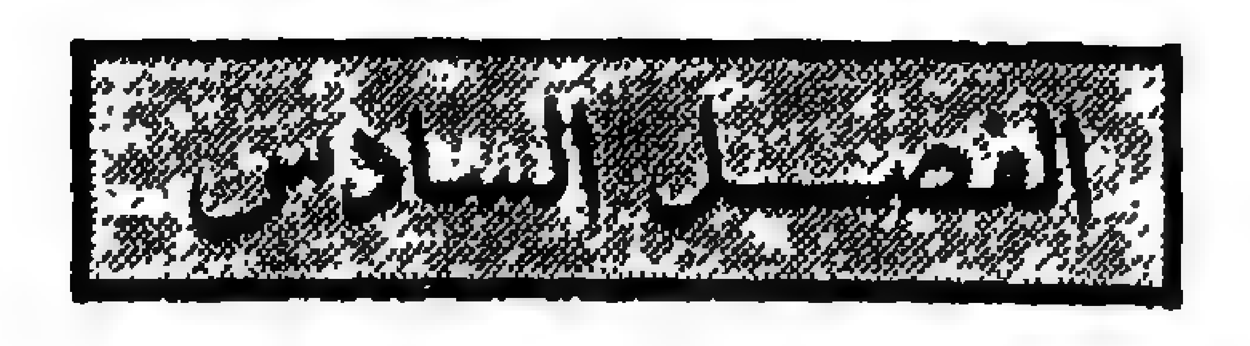
لكن قرار السلطات المصرية كان يقضى بالوقوف أمام تلك الرغبة بأى شكل .. ومن ثم فانى أخطرت صاوما بذلك القرار فأعاد تأكيد رأيه بان اقرار طلب الدول العربية لن يستغرق أكثر من خمس دقائق فى الجلسة ولن يضيع وقت المؤتمر فى المهاترات .. لكنى استعملت تجاربى السابقة فى الامم المتحدة ومعرفتى الطيبة بمناورات الامم المتحدة اعتمادا على اجادة استخدام لائحة الاجراءات التى درستها جيدا فى منع تصويت المؤتمر على طلب الدول العربية نقل المقر الاقليمى من القاهرة وقد اعتمدت على نص لائحة الاجراءات التى تقضى بوجوب

اخطار المنظمة للدول مقر المكتب الاقليمى (أى مصر) قبل سنة كاملة سابقة بقرار نقل المكتب منها وهو مالم يحدث ومن هنا يجب تأجيل البت سنة كاملة .. كذلك بعد شرحى الوافى لاعضاء الجمعية العامة للمنظمة عن ظروف وملابسات القضية وجدت أغلب الدول الغربية تؤيد مصر فى تأجيل البت فى هذا الموضوع سنة كاملة وخلال تلك السنة كنت قد نقلت الى مصر واوفدت وزارة الخارجية السفير عمرو موسى مدير ادارة الهيئات(١) بها الى المؤتمر التالى حيث تمكن هو أيضا من اقناع الدول والمنظمة بالاكتفاء بتجميد مكتب المنظمة الاقليمى فى مصر مؤقتا ونقل اختصاصاته وأعماله الى مقر المنظمة الاقليمى فى روما وهى التى سوف تقوم ـ من روما ـ بتقديم الخدمات العربية بدلا من تقديمها من مصر .. وهكذا لم يتم نقل المكتب الاقليمى الى عاصمة عربية أخرى .

وظلت الحال هكذا الى أن تقرر اعادة المكتب الاقليمى الى مصر ثانية .

---

(١) السفير عمرو موسى تولى بعد ذلك منصب مندوب مصر الدائم لدى الأمم المتحدة فى نيويورك وهو حاليا وزير خارجية مصر .



مصر وافريقيا :
بين سفارة وسفارة : وكالة الوزارة

عندما يرقى أحد كبار الموظفين ليتولى منصب «وكيل الوزارة» في كل الوزارات الأخرى ما عدا وزارة الخارجية ، فإنه يعلم أن وظيفة «وكيل الوزارة» هي نهاية السلم الوظيفي أو نهاية الطريق بالنسبة إليه . وقد يظل وكيلا للوزارة إلى حين بلوغه سن المعاش . أما في وزارة الخارجية فإن من يتولى منصب وكيل الوزارة من بين قدامى سفراء وزارة الخارجية يعلم منذ البداية أنه إنما يتولى هذا المنصب إلى حين يأتيه الدور من جديد ليعود ليرأس سفارة مصرية في الخارج (وهو ما يرحب به كل السفراء) اللهم إلا إذا بلغ سن التقاعد أولا بطبيعة الحال . (١)

(١) وفقا للأنظمة الجديدة لم يعد للخارجية سوى وكيل وزارة واحد (وكيل أول) هو د. أسامة الباز (بقرار جمهوري) ويليه في الأقدمية عدد من «مساعدي وزير الخارجية» يصدر تعيينهم قرار وزاري فقط .

وهذا ما حدث لى أيضا (١) .. فقد تسلمت عملى كوكيل لوزارة الخارجية فى أكتوبر ١٩٧٩ نقلاً من روما بعد أن فرغت من تأجيل النظر فى نقل المكتب الاقليمى لمنظمة الأغذية والزراعة من مصر إلى عاصمة عربية أخرى .. ونجحت مصر فى عدم نقل المكتب إلى دولة عربية أخرى .. وكنت إذن واحدا من أربع سفراء مثلى يتولون فيما بينهم ملء اختصاصات وكلاء الوزارة أما أنا فقد أوكل إلى الاشراف على قطاع مهم من قطاعات وزارة الخارجية شمل الاشراف على الادارات الخمسة التالية :

(١) الهيئات الدولية (ومنها منظمة الأمم المتحدة).

(٢) الادارة القانونية والمعاهدات.

(٣) إدارة المؤتمرات.

(٤) إدارة المعلومات والتقديرات.

(٥) الادارة الافريقية.

أما ادارة الهيئات الدولية فيتضمن اختصاصها متابعة أعمال الهيئات والمنظمات الدولية ومنها الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة وموافاة بعثاتنا لدى مقار الأمم المتحدة فى نيويورك وجنيف وفيينا

---

(١) ظللت وكيلا للوزارة من ١٩٧٩ إلى ١٩٨١ ثم عينت سفيرا لمصر فى أديس أبابا بعد ذلك .

وغيرها حيثما توجد مقار الوكالات المتخصصة ، مؤافاتها بتعليمات وزارة الخارجية بالنسبة للموضوعات الهامة التى تتطلب تعليمات خاصة من القاهرة .، وكان على رأس ادارة الهيئات فى تلك الآونة سفير قدير ذو خبرة طويلة بهذا المجال هو السفير / عمرو موسى (ممثل مصر الدائم لدى الأمم المتحدة بعد ذلك) (١) .. وقد اشتركنا سويا فى تمثيل مصر فى أحد مؤتمرات حركة عدم الانحياز بنيودلهى فى فبراير ١٩٨١ (وكان وفدنا برئاسة الوزير بطرس غالى) كما اشتركنا سويا فى حضور احدى دورات الأمم المتحدة فى نيويورك سبتمبر / أكتوبر ١٩٨١ وفى هذين المجالين كما حدث فى غيرهما شهدت هذه الفترة حملات هجوم شرسة ضد مصر من بعض الدول العربية الشقيقة وغيرها من دول افريقيا اليسارية وبعض دول امريكا اللاتينية بسبب خلافنا حول عملية السلام فى الشرق الأوسط .. وكان من نصيبى ونصيب السفير عمرو موسى فى تلك المؤتمرات التصدى لتلك الحملات الشرسة .. وقد أظهر عمرو موسى مقدرة ومواهب دبلوماسية فذة منذ ذلك الحين .

أما في مؤتمر عدم الإنحياز في نيودلهى فقد كانت بعض الدول العربية تحاول تجميد عضوية مصر فى حركة عدم الانحياز (سوريا -

(١) حاليا وزير خارجية مصر .

ليبيا ـ الجزائر ـ العراق .. الخ) وتصدى لها عمرو موسى بمنتهى المهارة والحزم .

أما الادارة القانونية والمعاهدات فكان يديرها الزميل السفير طاهر شاش وكان قد خلفنى كسفير لمصر فى ليما بيرو وأصبح أيضا فيما بعد مساعدا لوزير الخارجية.. ومهمة هذه الادارة متابعة ودراسة جميع المسائل القانونية الدولية التى تهم مصر أو تدخل فيها كطرف «مثال ذلك قضية طابا» والمسائل القانونية التي تطرح أمام اللجنة السادسة (القانونية) التابعة للجمعية العامة للأمم المتحدة وتحديد مواقفنا فيها.. كما تعنى هذه الادارة بالمثل باعداد مشروعات المعاهدات التى أبرمتها مصر وحفظها والرجوع اليها، أو الرجوع الى جميع السوابق القانونية المهمة بغية الاسترشاد بها فى اتخاذ مصر لمواقف معينة من القضايا المطروحة.

أما ادارة المؤتمرات فكان يديرها السفير أحمد عبد الوهاب سليم سفير مصر فى الصين فيما بعد، ومهمة هذه الادارة الاعداد الفنى والادارى لكافة المؤتمرات الدولية التى تعقد في مصر تحت اشراف وزارة الخارجية بما فى ذلك اعداد المكان المناسب والسكرتارية والمترجمين والأجهزة الفنية وطبع وتوزيع الوثائق وما الى ذلك.

أما ادارة المعلومات والتقديرات فكان يرأسها السفير حسن شاش (سفير مصر فى سنغافورة ثم فى لبنان) ومن بعده السفير صلاح الدين بسيونى (سفير مصر فى موسكو فيما بعد ثم مساعد وزير الخارجية).. وتعنى هذه الادارة بجمع ودراسة وتحليل وتبادل أهم الانباء والمعلومات والتقديرات حول السياسات الخارجية لأهم الدول التى تعنى مصر، سواء عن طريق سفاراتنا فى الخارج أو عن طريق غيرها من مصادر الانباء والمعلومات والتقديرات ومنها هيئة الأمن القومى وأجهزة المخابرات المدنية والحربية وتقوم هذه الادارة بتزويد القيادات السياسية وبعثات مصر فى الخارج بحصيلة معلوماتها ونتائج تحليلاتها أولا بأول فى تقاريرها الدورية بصفة منتظمة.. ويذكر القارىء أنى كنت قد توليت هذه الادارة سنة ١٩٦٤.

مصر وافريقيا (١):

أما الادارة الافريقية فهى الادارة التى كانت تهيمن بصفة مباشرة على منطقة جغرافية محددة، ولكن شديدة الاتساع هى أفريقيا بأكملها وذلك الى جانب عنايتها واختصاصها بمتابعة أعمال منظمة الوحدة الافريقية (وهى بمثابة هيئة الامم المتحدة الافريقية) وحضور جلساتها

---

(١) وفقا لآخر التنظيمات فى وزارة الخارجية فقد انقسمت الادارة الأفريقية حاليا إلى عدة ادارات افريقية ومنها ادارة مختصة بمنظمة الوحدة الافريقية.

الدورية والسنوية فى أديس أبابا مقر المنظمة، واقتراح وتنفيذ سياسات مصر ومواقفها بصدد جميع المشاكل والقضايا الافريقية سواء تلك التى أمام منظمة الوحدة الافريقية أو خارجها. هذا ويمثل مصر بصفة دائمة فى المنظمة باديس أبابا السيد/ سفير مصر فى أثيوبيا الى جانب توليه مهام سفارة مصر لدى أثيوبيا. وكان يدير ادارة افريقيا بوزارة الخارجية فى ذلك الحين السفير/ أحمد جتانة سفير مصر فى تنزانيا سابقا ومساعد وزير الخارجية فيما بعد. ثم من بعده السفير/ سامى ثابت سفير مصر فى اليابان ثم مدير ادارة المراسم بعد ذلك. وقد اشتركنا سويا فى حضور جلسات المؤتمرات الوزارية الدورية ومؤتمرات القمة السنوية فى منظمة الوحدة الافريقية بأديس أبابا. كما سعدت بمشاركتهما لى فى بعض زياراتى الرسمية بصفتى وكيل الوزارة المسئول عن افريقيا الى بعض دول أفريقيا المستقلة والتى سيأتى ذكرها ومنها السنغال وجامبيا، ونيجيريا، وتوجو وسيراليون وغيرها كثير.

لقد كانت تجربتى الشخصية المباشرة الوحيدة مع أفريقيا حين توليت وكالة وزارة الخارجية وأوكلت الى الشئون الافريقية مقصورة على حضورى أول مؤتمر قمة للدول الافريقية المستقلة فى إكرا عاصمة غانا فى ابريل ١٩٥٨ ضمن وفد مصر الذى رأسه المرحوم د. محمود فوزى. لكن مالبثت بعد تولى منصب وكيل الوزارة المسئول عن أفريقيا أن

وجدت نفسى فى مواجهة عدد لايستهان به من القضايا الأفريقية الساخنة ومنها على سبيل المثال الحرب والنزاع ما بين تشاد وليبيا، والعداء القديم بين الصومال من ناحية وأثيوبيا وكينيا وجيبوتى من ناحية أخرى حول مطالب الصومال الاقليمية فى هذه الدول المجاورة، والحرب الإهلية الدائرة فى أثيوبيا بسبب محاولات أقاليم اريتريا وتجرى وأورمو الإنفصال عن أثيوبيا واتهام اثيوبيا لدول مجاورة بمساعدة هؤلاء الثوار، كذلك الحرب الأهلية الدائرة فى جنوب السودان ومحاولات الجنوب الإنفصال عن شماله، واتهام السودان لبعض جيرانها بمساعدة ثوار الجنوب .. هكذا.

كذلك كانت هناك مشكلة النزاع حول الصحراء الغربية ما بين المغرب من ناحية والبوليساريو تساندها الجزائر من ناحية أخرى والخلاف حول ناميبيا وكيفية إستقلالها عن جنوب افريقيا والمواجهات العسكرية ما بين جنوب أفريقيا وكل من انجولا وموزامبيق، بل دول المواجهة الإفريقية بأكملها ومما كان يزيد من هذه الخلافات السياسية بين دول أفريقيا الشقيقة الخلافات الايديولوجية (١) التى عادت الى الظهور فيما بينها من جديد واستغلتها واشعلت نيرانها بعض الدول

(١) الخلافات الايديولوجية ما بين التقدميين «الاشتراكيين» من ناحية والمحافظين او التقليديين من ناحية أخرى.

الأجنبية مما كان يهدد بانقسام خطير ومواجهات غير حميدة العواقب فيما بين الدول الافريقية .

وأثناء تولىَّ منصب وكيل الوزارة للشئون الأفريقية أمكن للوزارة بلورة اهتمامات مصر الافريقية وفقا للأولويات التالية :

أولا : ضرورة اهتمام مصر بتوثيق علاقاتها مع دول حوض النيل الثمانى الأخرى (١) بسبب اعتماد مصر الكلى على مياه النيل حاليا وتزايد حاجتها من هذه المياه مستقبلا وهو ما يدعو إلى إيجاد أوثق الصلات العضوية مع هذه الدول ضمانا لأمن المياه ولترشيد استخدامها والمعلوم أن ٨٤ ٪ من مياه النيل التى تصل إلى مصر تاتينا من أثيوبيا . ومن ثم يتعين على مصر اقامة أطيب علاقات التعاون مع اثيوبيا .

ثانيا : ضرورة توثيق علاقات مصر بالدول المطلة على البحر الأحمر (خارج حوض النيل وهى الصومال ، وجيبوتى) ، كذلك التى توجد قريبا من مداخله فى المحيط الهندى مثل تنزانيا وسيشل ومدغشقر وموريشيوس وجزر القمر بالنسبة لأهمية البحر الأحمر الاستراتيجية لمصر .

ثالثا : وجوب إقامة أطيب علاقات التفاهم والتعاون مع جميع دول افريقيا بغض النظر عن أنظمتها المختلفة ، وبصفة خاصة مع بعض

---

(١) السودان - اثيوبيا - كينيا - اوغندا - رواندا - بوروندى - زائير - تنزانيا .

دول افريقيا القيادية والتى تربطها مع مصر روابط خاصة سياسية أو اقتصادية أو تاريخية .

كذلك تبلورت المبادىء الأساسية التى تحدد سياسات مصر فى أفريقيا فيما يلى :

(أولا) العمل على تأكيد استقلال واستقرار الدول الافريقية ووحدتها الاقليمية وسلامتها .

(ثانيا) تشجيع التقدم والتنمية والتغيير نحو الأفضل بالطرق السلمية التدريجية واستبعاد العنف فى تصرفات وأعمال الدول الافريقية سواء داخليا أو فيما بينها .

(ثالثا) تشجيع حل المنازعات بين الدول الافريقية بالطرق السلمية وتفضيل حلها فى اطار منظمة الوحدة الافريقية قبل الى اللجوء إلى الأمم المتحدة .

(رابعا) اقصاء النفوذ والتدخل الأجنبى لا سيما أنواع التدخل التى تستهدف خدمة المصالح الأجنبية أو الأهداف البعيدة عن مصالح أفريقيا الحقيقية .

(خامسا) تشجيع احترام ميثاق الوحدة الأفريقية فى المعاملات ما بين الدول الأفريقية ، وتعضيد مصر للتيارات المعتدلة فى أفريقيا ولمبادىء عدم الانحياز والبعد عن المعسكرات المتقاتلة أو المتناحرة فى أفريقيا .

(سادسا) تشجيع محاولات التعاون الاقتصادي والفني والثقافي مع استهداف اقامة تجمعات افريقية اقتصادية وفنية وتشجيع مبادىء الاعتماد المتبادل فيما بين دول أفريقيا اقتصاديا والاعتماد على النفس مع إقلال اعتماد افريقيا تدريجيا على المساعدات الخارجية كلما أمكن ذلك .

أما الأخطار التى تهدد أفريقيا منذ تلك الحقبة فكنا نراها متمثلة في التغلغل الأجنبي الايديولوجى والاقتصادى والعسكرى الى حد الوجود العسكرى الأجنبي المتمثل في وجود قوات أجنبية كبيرة العدد أحيانا .. وأخطار المواجهات الأيديولوجية والعسكرية ما بين الصومال وأثيوبيا ، وما بين الجزائر والبوليساريو من ناحية والمغرب من ناحية أخرى وما بين ليبيا وتشاد وما بين أنجولا (وكوبا) وجنوب أفريقيا وما بين الأخيرة وموزمبيق ودول المواجهة والحروب الأهلية فى أثيوبيا وجنوب السودان ، ناهيك بالمجاعات والأوبئة التى تفتك بمئات الآلاف من الأفارقة ولا سيما أثيوبيا في مجزرة مئات الآلاف من الأفارقة من أراضيهم وتجويعهم إلى الدول المجاورة لاوقد بلغ اعداد اللاجئين الأفارقة الفارين من المجاعات المتكررة ، ومن الحروب بين القبائل المتناحرة أو من الحروب الأهلية والدائرة في بلادهم خمسة ملايين أفريقي في ١٩٨٩ مما يضع أفريقيا على رأس القارات التي تواجه أكبر مشاكل لأكبر عدد من اللاجئين في العالم أجمع (١)

(١) من إحصائيات الوكالة الدولية لاغاثة اللاجئين التابعة للأمم المتحدة.

والمجتمعات الأفريقية بصفة عامة في أغلبها مجتمعات قبلية تلعب فيها القبيلة دورا شديد الأهمية شبيها بدور الدولة فى المجتمعات الحديثة .. فولاء الفرد في أفريقيا لقبيلته قبل أن يكون لدولته فالقبيلة هي مقر ومرجع وأساس اللغة والدين والمعتقدات (وبقية العائلة) وكلها تتفاوت تفاوتا واضحا ما بين قبيلة وأخرى فى نفس المنطقة ونفس الدولة ومن هنا ساد التشرذم وسادت الفرقة والخلافات وأحيانا كثيرة الحروب الدامية والمجاعات وسلاسل الهجرات .. ومن ثم مازال الجهل والمرض والفقر من أهم أسباب الفساد وضعف بعض مجتمعات افريقيا المعاصرة

يبقى أن أذكر لك أيها القارئ انطباعاتي عن عدد من المدن والأماكن التي زرتها في أفريقيا وبعض الذكريات التي ما برحت تطوف بمخيلتي ولكنني سأبقي ذكرياتي في أثيوبيا إلى الفصل القادم المخصص لهذا البلد والذي ارتحلت إليه كسفير لمصر في أديس أبابا وكممثل لمصر في منظمة الوحدة الأفريقية - ما بين ١٩٨١ - ١٩٨٤

أول انطباع أذكره عن أفريقيا هو بشأن جغرافيتها وأحوالها العامة .. فمساحاتها شاسعة حقا والمسافات فيما بين دولها ومدنها - ما بين شمالها وجنوبها وشرقها وغربها - أكبر مما يتصوره المرء من دراسته للخريطة .

أكبر مما يتصور المرء من دراسته للخريطة.. ثم ما كل هذا التباين الشاسع فى أحوالها الطبوغرافية! افريقيا بها مناطق شديدة الاتساع تكسوها الغابات الكثيفة الاستوائية، وأخرى تكسوها الأعشاب الصالحة للمراعي. كما أن بها مساحات شاسعة بالمثل تغطيها الصحارى الجرداء والمقفرة.

بعض افريقيا فقير معدم تقريبا وبعضها الآخر فى بحبوحة نسبية وبعضها يعيش فى ثراء ظاهر على ثمرة موارده البترولية الوفيرة ومن هنا لايمكن التعميم بشأن دول افريقيا من هذه الناحية ولا من ناحية التقدم العمراني والحضارى كذلك. وبصفة عامة فإن بعض مدن افريقيا حتى الفقيرة منها أكثر نظافة ونظاما من القاهرة، ومما قد يظن الغريب عن هذه المدن حتى وإن كان بعضها ينقصه الأناقة أو العظمة، لكن بافريقيا بعض مدن غاية فى الجدة والأناقة وحسن النظام وعلى رأسها هرارى عاصمة زيمبابوى وتليها نيروبى عاصمة كينيا ثم لوساكا «زامبيا» وداكار «السنغال» وأبيدجان «كوت دى فوار» وليبرفيل «جابون» وقد زرتها كلها «ماعدا هرارى فمعلوماتي عنها وعن فنادقها نقلا عن زملائى بها» ووجدتها كلها أكثر نظاما ونظافة من القاهرة وبها مطاعم وفنادق وأحياء أكثر أناقة وجدة. وقد قصرت حديثي حتى الآن عن افريقيا «جنوب الصحراء» حيث أن افريقيا شمال الصحراء، المغرب ـ الجزائر ـ تونس ـ ليبيا» معروفة نسبيا لنا وبها مدن الدار البيضاء

والرباط والجزائر وتونس وطرابلس وكلها مدن نظيفة وجميلة وحديثة وبخاصة الدار البيضاء فإنها تضارع بعض العواصم الأوروبية كما تماثل هرارى ونيروبي وداكار وأبيدجان إن لم تفقها جمالا وأناقة، أما مدينة لاجوس عاصمة نيجيريا فهى مدينة ضخمة تعدادها خمسة ملايين وبها مراكز تجارية وصناعية مهمة لكنها تعانى من فوضى ازدحام المرور فضلا عن شدة الحرارة والرطوبة ومن هنا فإنه من ناحية المناخ أيضا لايمكن التعميم عن افريقيا ومدنها. وأحسن مدن افريقيا جوا هرارى ونيروبى ولوساكا وأديس أبابا وكيجالى وتناناريف « مدغشقر » وكلها مقامة على ارتفاعات تلطف من حرارة الجو ومن تأثير الرطوبة الاستوائية لكن أديس أبابا وارتفاعها ٨٥٠٠ قدم لا تناسب الكثيرين الذين يعانون من ضغط الدم أو أمراض القلب. والسفر والتنقل بين مدن افريقيا ليس أمرا سهلا بل قد يكون نوعا من المغامرة أحيانا كثيرة فهناك كما ذكرت اتساع المسافات من شرق افريقيا إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها لايتصوره إلا من قطع هذه المسافات.

ثم هناك قلة عدد الرحلات الجوية بين كثير من هذه المدن بحيث أنه إذا فاتتك بسبب أو لآخر رحلة جوية كان عليك انتظار الرحلة التالية، وقد تكون بعدها بأسبوع كامل ويحدث كثيرا أن يذهب المسافر إلى المطار ومعه تذكرته وعليها الحجز مؤكدا O. K فيجد الطائرة وقد

التقيت أو لا يجد مكانا فى الطائرة لأن بعض شركات افريقيا تبيع أعدادا من التذاكر أكثر من عدد مقاعد الطائرة اعتمادا على أن البعض سوف يلغى رحلته فى آخر لحظة (١).

وهنا تحضرنى واقعة طريفة للدلالة على المقولة سالفة الذكر. فقد كنت متوجها إلى تناناريف عاصمة مدغشقر لإلقاء سلسلة من المحاضرات بالمعاهد السياسية بها وذلك سنة ١٩٨٧ بعد تقاعدى بالمعاش وقضيت ليلة فى نيروبى على أن أتوجه فجر اليوم التالى الى مطار نيروبى لأستقل طائرة الخطوط الكينية إلى تناناريف وكانت معى تذكرة سياحية وحجز مؤكد ولما توجهت إلى المطار فجر ذلك اليوم فوجئت بوجود عشرين مسافرا متكدسين أمام شباك التذاكر ووزن الأمتعة فى حالة هياج وسخط فلم تكن لهم أماكن رغم أنهم كلهم كانوا يحملون تذاكر وحجز مؤكد وكان منهم سفير مصر الجديد فى مدغشقر السيد حسين الخازندار وزوجته وثلاثة من أولاده وكانوا قاصدين مدغشقر لأول مرة لتقديم أوراق اعتماده كسفير لمصر هناك. وقد استطاع هو وعائلته بعد لأى التغلب على الموقف بحكم مكانته السياسية كسفير معتمد فى مهمة رسمية وكانت الخارجية المدغشقرية فى

(١) من أفضل شركات الطيران الافريقية وأكثرها نظاما ودقة شركة الطيران الأثيوبية.

انتظار وصوله كما كان يحمل خمسة تذاكر درجة أولى مؤكدة .. أما أنا فقد ظللت متأرجحا بين الأمل في السفر واللحاق بالطائرة وبين اليأس من أن يدركني الدور إلى خمس دقائق قبل إقلاع الطائرة.

وبعد وصولي مع السيد السفير إلى تناناريف تبين لي أن الخارجية المدغشقرية قد عدلت عن اتفاقها مع السفارة بشأن تنظيم محاضراتي في تناناريف في آخر لحظة بدعوى أنها كانت تفضل أن يفتتح موسم المحاضرات بها السيد وزير الخارجية المصرية أو السيد وزير الدولة للشئون الخارجية د. بطرس غالي أما أنا فقد كنت وكيلا للوزارة فقط.. أما الاتفاق السابق والدعوة السابق توجيهها لي فلا بأس من تأجيلها لمناسبة قادمة وقد تكررت الظاهرة نفسها مرة أخرى بعد سنة كاملة في ياوندي عاصمة الكاميرون بسبب إجازات طارئة. لا بأس ولا علينا!! أما سفيرنا في الكاميرون صديقي السيد/ محمد الخازندار وهو أخو حسين الخازندار سفيرنا في مدغشقر فقد تمكن من ترتيب محاضرات بديلة عن المحاضرات التي كانت سوف تنظمها وزارة خارجية الكاميرون فالغريب يتعين عليه أن يتقبل مثل هذه الأمور في أفريقيا بروح الدعابة وابتسامة فلسفية وبصفة عامة فإن الرجل الأفريقي مفتوح السريرة لطيف المعشر عاطفي إلى حد كبير سريع الإرضاء (وسريع الغضب أحيانا) ولكن يصعب

التعميم أيضا فإن هناك أنواعا كثيرة من أمزجة متناقضة أحيانا.. ما بين الحاد المزاج عنيف الطباع والهادىء المتزن الوقور.. وذلك وفقا لنوع القبيلة والعشيرة وحضاراتها.

كذلك يبدو لي أن الشعوب التي خضعت للحكم الفرنسي في غرب إفريقيا قد تأثرت بطباع الفرنسيين وعاداتهم أكثر من تأثر الشعوب التي خضعت للحكم البريطاني بطباع وعادات الانجليز. ربما لأن الانجليز كانوا «باردين» ولا يخالطون الشعوب المستعمرة كثيرا بل كانوا يقتصرون في معيشتهم على مخالطة أنفسهم وحسب في «نوادي» مغلقة ومخصصة للبريطانيين وحدهم ، وتجد ناديا فخما أو اثنين على الأقل من مخلفات البريطانيين في العواصم التي خضعت لبريطانيا « هراري ـ لوساكا ـ نيروبي... إلخ » في حين لانجد هذه الظاهرة في العواصم الناطقة بالفرنسية ! أما في الأخيرة فنجد صفوة المجتمع الافريقي في تلك العواصم يتشبهون إلى حد كبير بالرجل الفرنسي حتى في عادة شرب النبيذ مع الطعام على المائدة رغم حرارة الجو وتفضيل شرب الشمبانيا الفرنسية الفاخرة وأحيانا كثيرة قرض الشعر بالفرنسية وملكة التأليف والخطابة بالفرنسية وكل هذا شائع في السنغال وكوت دي فوار وجابون وغيرها ولا غرو فقد كانت فرنسا تعتبر كثيرا من تلك البلاد امتدادا جغرافيا لفرنسا وكانت تعامل المتعلمين فيها وكأنهم فرنسيون لهم حق تمثيل شعوبهم

ومدنهم في البرلمانات الفرنسية في باريس أمثال الرؤساء سنغور وهوفوى بوانييه وهكذا.

***

أما المرأة الإفريقية فتحتل مكانا مهما وتلعب دورا بارزا في المجتمعات الإفريقية بل وفي النشاط التجارى في الأسواق اليومية والأسبوعية في افريقيا كلها شرقا وغربا وهي تملك زمام حريتها الاجتماعية والجنسية، وهذا الكلام ينطبق على أغلب إفريقيا السوداء فيما عدا بعض المجتمعات الإسلامية المحافظة بطبيعة الحال مثلما في النيجر وشمال نيجيريا ومالي والسنغال، وفي بلاد المغرب العربي بطبيعة الحال، ولاحظت كما لاحظ الكثيرون غيرى أن في البلاد التي ينقسم أهلها إلى من يدين بالإسلام وإلى من يدين بالمسيحية أو الوثنية فإن العائلة الواحدة قد تنقسم أيضا إلى نفس الأقسام.. كما أن الفوارق بين الديانات تكاد تكون مطموسة غير واضحة المعالم بسبب انتقال بعض الأفراد من دين إلى آخر عدة مرات وفقا لمقتضيات الموقف، وبعض من يحمل أسماء مسلمة قد يكون مسيحيا في تلك الآونة أو العكس، والزواج المختلط بين الديانات شائع سواء بين الرجال والنساء.. ويقص على دبلوماسى صديق هذه القصة الظريفة:

إنه عند وجوده في نيروبي عاصمة كينيا بعد الاستقلال مباشرة

كانت عمدة مدينة نيروبي هي مس كينياتا (Miss Kenyata) الآنسة كينياتا إبنة الزعيم الكيني بطل الاستقلال جومو كينياتا.. إلى هنا وليس هناك في الأمر ماهو غير طبيعي.. إلا أنه في بعض الاحتفالات كانت الانسة كينياتا تدخل ووراءها خمسة من أبنائها (١).

كذلك فإن الرجل الإفريقي «والمرأة الإفريقية» مولع إلي درجة لا تألفها في أي الشعوب الأخرى بالرقص.. فإن حب الرقص يجرى في دم الافريقي حقا. وما من حفل أقامه أفريقي وحضره عدد من الأفارقة إلا وانقلب حفلا راقصا وامتدت السهرة إلى مطلع الفجر. ولكل منطقة أو بلد في افريقيا رقصتها المفضلة.. وبعضها يحمل أسماء غربية حديثة مثل الهاي لايف High- Life في غانا. لكن الأفارقة كلهم يجيدون أداء جميع حركات الرقص ويمتازون بخفة غريبة وهم في هذا أساتذة الأمريكيين والاوروبيين.. وأوضح دليل على هذا أن أساتذة السامبا والرقص في البرازيل، كلهم من أصل إفريقي فضلا عن السامبا نفسها.

ومازال بعض الأفارقة متأثرين بالدعايات الأوروبية المسمومة التي حاولت وتحاول إقناع الإفريقيين بأن العرب هم المسئولون عن تجارة العبيد تاريخيا وعن تهجير مئات الآلاف من أهل افريقيا إلى العبودية

في الأمريكتين من العالم القديم، ومن هنا فإن الدول العربية وبخاصة دول افريقيا العربية الخمس مطالبة حقا بمضاعفة جهودها لإزالة هذه النظرة وهذه الصورة من مخيلة جيراننا الافريقيين وتصحيحها وذلك بإثبات إفريقيتنا وحرصنا على المصالح المشتركة التي تربط أهل افريقيا شمال الصحراء وجنوبها على حد سواء.. وقد نجحت كل من مصر والجزائر إلي حد بعيد في إصلاح هذه الصورة وفي إثبات غيرتنا وحرصنا علي مصالحنا المشتركة.. إلا أن مشكلة «الصحراء الغربية» قد فرقت مابين المغرب وكثير من دول افريقيا التي ترى في موقف المغرب عودة إلى الاستعمار القديم، وإلى فرض العبودية من جديد على شعوب سوداء.. وقد سبقت هذه المشكلة أيضا مشكلة مطالبة المغرب بضم موريتانيا.. وإذا كانت مشكلة موريتانيا قد انتهت باستقلالها إلا أن استمرار الخلاف بين المغرب والبوليساريو قد أثار المواجع القديمة من جديد.. ومازالت تلك المشكلة دون حل.

كذلك فإن غزو ليبيا لتشاد وضمها لإقليم Aouzo في شمال تشاد أضر بقضية العرب في افريقيا.. وقد حاولت كل من مصر والجزائر حلها سلميا والتغلب على ما أثارته من شعور العداء.. وكنت في أحاديثي ومحاضراتي في افريقيا أؤكد باستمرار صفة مصر الافريقية قائلا إنه إذا كانت مصر قد أصبحت عربية منذ ألف وربعمائة عام (بعد الفتح العربي) فإنها مازالت افريقية وكانت افريقية منذ سبعة آلاف عام

وستظل افريقية بحكم جغرافيتها واعتمادها المطلق على أهم أنهار افريقيا والعالم وهو نهر النيل. كذلك كنت أحاول دائما تذكير الأفارقة بقول الرئيس السنغالى السابق سنغور وهو فيلسوف افريقيا السوداء وصاحب نظرية «الزنجية» La Negritude قوله بأنه يفخر بأن أقدم حضارة قامت فى العالم كانت حضارة مصر الافريقية!!

ومع اتفاقى من حيث المبدأ مع سياسة الحلول السلمية التى أسسها وطبقها الرئيس السادات واستعاد بها سيناء إلى مصر، فإنى اختلفت معه حول سياسته الافريقية.. والواقع أنه فى غمرة سعيه وراء السلام فى الشرق الأوسط لم يجد الوقت الكافى لرسم سياسة افريقية بناءة ولم يعط لافريقيا وقتا ولا جهدا ولاتفكيرا صائبا.. بل لقد تميزت فترة حكمه بهبوط اهتمامات مصر بمصالحها الافريقية إلى الدرك الأسفل وبتكدير علاقاتنا بأثيوبيا..

ففى ابريل ١٩٨٠ عقد فى لاجوس نيجيريا أول مؤتمر قمة افريقية لبحث المسائل الاقتصادية ولم يتسع وقت السادات لحضورها فأوفد بدلا منه نائبه السيد/ حسنى مبارك.. وقد رافقت هذا الوفد إلى لاجوس باعتبارى وكيل الخارجية المسئول عن سياستنا فى افريقيا فى ذلك الحين.. ولم يغب عن الزعماء الافارقة عدم وجود الرئيس المصرى كما لم يفتهم تكرار غيابه فى مناسبات لاحقة، وحتى إذا حضر فلم

يكن يمكث إلا يوما واحدا ويرحل في حين بقى أمام المؤتمر ثلاثة أيام.. وهكذا.

ويحضرني بمناسبة الحديث عن لاجوس «وكانت هذه أولي زياراتي لها» إننا والوفود الأخرى اكتشفنا لأول مرة أنه يمكن اختطاف حقائب أعضاء الوفود التي يحملونها فى أيديهم عقب خروجهم من قاعة المؤتمر، يمكن لبعض مغامرى لاجوس اختطافها والفرار بها على بعد خطوات من قاعة مؤتمر القمة الافريقى الاقتصادى الأول، وقد حدث ذلك لبعض الوفود ومنهم «السفير» أحمد سمير مختار عضو وفدنا سالف الذكر سنة ١٩٨٠.

وإذا ماخرجت ليلا بسيارتك مدعوا للعشاء في لاجوس فلا يروعك أن تجد حملات البوليس التفتيشية واقفة على نواصي كثير من الشوارع والأحياء.. وهم هناك لحمايتك من قراصنة الليل الذين قد يوقفون سيارتك بوسيلة أو بأخرى ليطالبونك بحافظة نقودك أو بسيارتك ذاتها إذا ما أعجبتهم.. وقد اكتشفت بنفسي هذه الظاهرة في نيروبى أيضا فى زياراتى لها.. فقد كان السفير أحمد حجاج ومن بعده محمود عثمان شديدى الحذر والاحتياط إزاء هـذه الأحداث.. وتكرر الموقف نفسه فى الكاميرون للسفير جمال بيومي فحاولوا اختطاف سيارته فى الطريق..

أما زيارتى الثانية إلى لاجوس فقد كانت سنة ١٩٨١ برفقة السيد/

المرحوم ممدوح سالم مساعد الرئيس أنور السادات والذى أوفده حاملا رسالة سياسية إلى رئيس نيجيريا وإلى وزير خارجيتها وتضمنت شرح والدفاع عن سياسة مصر السلمية فى الشرق الأوسط. ولا أعتقد أن هذه الزيارة أتت ثمرتها وكان لقاء السيد ممدوح سالم مع وزير الخارجية النيجيرى الذى حضرته غير مثمر تماما.. وتبين هذا فى لقاء السيد/ ممدوح سالم مع وفود الصحافة النيجيرية فى دار السفير المصرى بعد ذلك. فالصحافة فى نيجيريا شديدة الصراحة إلى حد الإيلام، والصحفيون النيجيريون Very Aggressive واعتادوا التلذذ فى إحراج خصومهم أو من يظنونهم خصومهم خاصة إذا ماكانوا فى مثل سماحة ودماثة وخجل المرحوم ممدوح سالم، طيب الله ثراه.

أما مناسبة زيارتى الثالثة إلى لاجوس فكنت موفداً بصفتى وكيلا للخارجية لشئون افريقيا فى مهمة عاجلة فى يناير ١٩٨١ لمقابلة وزير خارجية نيجيريا وعدد آخر من وزراء الخارجية فى المنطقة «منهم وزراء خارجية السنغال وجامبيا وكوت دى فوار وجابون وتوجو والنيجر وجمهورية وسط افريقيا» وذلك لشرح ضرورة الضغط على ليبيا للإنسحاب من تشاد.. وقد تأخرت الخارجية فى لاجوس فى تحديد موعد لى مع وزير الخارجية بدعوى مشغوليته التامة. ثم قبلت أخيراً منحى «خمس عشرة دقيقة فقط لمقابلة الوزير».. وقد رافقنى فى تلك الزيارة فى

لاجوس صديقي وزميلي المرحوم السفير السيد/ عاطف النواوي طيب الله ثراه.

وشرحت للوزير النيجيري وجهة نظر مصر في شأن الخلاف التشادي الليبي، وضرورة انسحاب قوات ليبيا من تشاد . فإذا بالوزير يقاطعني وسألني أن كانت مصر دولة غير منحازة حقا؟ فأكدت له عدم انحيازها بل إننا من مؤسسي الحركة ومن زعمائها،. فأجابني إننا في نيجيريا كلما أردنا معرفة اتجاهات السياسة الأمريكية نحاول متابعة اتجاهات الدبلوماسية المصرية!! فأخذت بهذه الحجة لكني تمالكت نفسي ومضيت أشرح للوزير دور مصر التاريخي في عدم الانحياز ومعنى عدم الانحياز خاصة أننا من مؤسسيه.. وقلت إن معنى عدم الإنحياز هو ألا نتخذ موقف تأييد أوتوماتيكيا وتلقائيا لسياسة روسيا أو لسياسة أمريكا. بل، يمكن لدول عدم الانحياز، أحيانا تأييد ما تراه صالحا من إتجاهات روسيا أو أمريكا أحيانا أخرى وفقا لعدالة ورجاحة كل قضية Qccording to the merit of each case وإن تتمكن أيضا من نقد سياسة الشرق أو الغرب أحيانا وفقا لما تراه سيئا في مواقف هذا أو ذاك.. وهذا ماتفعله مصر. وليست جريمة أن تتفق سياسة القاهرة وواشنطن أحيانا كما تتفق سياسة مصر وموسكو أحيانا أخرى بل هذا هو معنى عدم الانحياز.

وقد استمرت مناقشاتنا مع وزير الخارجية خمسا وخمسين دقيقة

بدلا من الخمس عشرة دقيقة المسموح بها من قبل.. ويبدو أن وقت الوزير قد اتسع لهذه المناقشة.. على غير انتظار.

وبعد خروجنا من حضرة الوزير مال عليّ المرحوم السفير عاطف النواوى قائلا: «يالك من صبور متسامح، لو كنت مكانك لقلبت المكتب على الوزير وخرجت»!!

أما زيارتى الرابعة والأخيرة إلى لاجوس فكانت سنة ١٩٨٧ بعد تقاعدى بالمعاش فقد نظم لى معهد الشئون الدولية فى لاجوس «وهو معهد سياسى محترم جدا، وأحيانا يعين مديره وزيرا لخارجية نيجيريا» نظم لى سلسلة محاضرات بالمعهد (١) وكانت محاضرات ناجحة وحضرها لفيف من الدبلوماسيين والأكاديميين وأبدوا مستوى راقيا من المعرفة والمجادلة، والمعروف أن نيجيريا هى أكبر دول افريقيا عددا (١٢٠ مليون نسمة) ويحلو لها أن تلعب دور الأخت الافريقية الكبرى.. «القادرة والعاقلة» وكنت أنا بدورى أشيد بحجمهم وأهمية دورهم وأضيف أن مصر هى التى تلى نيجيريا من حيث الكثافة السكانية وأن البلدين معا قادران على لعب دور مهم فى الحفاظ على أمن وسلامة افريقيا.

ولما كان الشيء بالشيء يذكر فقد قمت بعدة جولات فى افريقيا

---

(١) بفضل الزميل السفير د. محمد عثمان سفير مصر فى نيجيريا والذى حضر المحاضرات.

خلال تلك المدة بعضها وأنا وكيل للوزارة، والبعض الآخر بعد تقاعدى إلى المعاش بدءا في نوفمبر ١٩٨٦ عندما أوفدتني وزارة الخارجية لإلقاء سلسلة من المحاضرات في البلاد الناطقة بالانجليزية وبالفرنسية في شرق وغرب افريقيا.

ومن ذلك أني حضرت مؤتمر قمة إفريقيا سنة ١٩٨٠ عقد في سيراليون «وعاصمتها فريتاون» وهي مشهورة بتعدين وتصدير الماس - وكان الوفد برئاسة الوزير د. بطرس بطرس غالي نظرا لتغيب الرئيس السادات.. ومن أهم المشكلات التي أثيرت في هذا المؤتمر مسألة النظر في قرارات المنظمة بشأن إنشاء قوة عسكرية إفريقية للأمن الجماعي المشترك، لكن حال دون ذلك قصور موارد منظمة الوحدة الافريقية المالية فقد سبق ذلك ايفاد قوة مماثلة مكثت شهرين فقط في تشاد وبلغت تكاليفها ثمانين مليون دولار.

والمعلوم أن ميزانية منظمة الوحدة الافريقية تعاني عجزا خطيرا باستمرار بسبب تقاعس عدد كبير من أعضائها عن سداد حصص اشتراكاتهم السنوية.. وتبلغ الميزانية السنوية حوالي ٤٠ مليون دولار(١) لكن المنظمة تطالب بمتأخرات قدرها أربعون مليون دولار أخرى لم يتم سدادها من قبل.. فكيف يمكن لافريقيا مجرد التفكير في إنشاء قوات طوارئ وتحمل نفقات إقامتها في بلد غريب؟

---

(١) سنة ١٩٨٢ .

ثم اقترحت سيراليون تعديل ميثاق المنظمة وانشاء جهاز مجلس أمن في أفريقيا تابع للمنظمة تكون مهمته الأساسية مثل مجلس الأمن الدولي ـ المحافظة على الأمن والسلام «لكن في أفريقيا طبعا».. وكان نصيب مصر كما كان من نصيبي أنا أعداد رد أعضاء المنظمة للتصدي لهذا الاقتراح غير العملي، فتعديل ميثاق المنظمة يستلزم أولا حسب الميثاق، النظر في أي اقتراح مشابه لمدة عام كامل لدراسته قبل البت فيه، ويحتاج الأمر لإقرار التعديل ثلثي الأصوات.

ومن ناحية أخرى فإن جهاز الأمن الافريقي المقترح سوف يكون جهازا شرفيا وغير ذي فاعلية حقيقية إلا إذا زود بالاعتمادات اللازمة وبالقوات العسكرية غير المتوافرة، ناهيك بأن ميثاق الوحدة الافريقية يقوم أساسا على نظرية سيطرة أو سلطة جهاز رؤساء الدول بأكملهم وأن في اختيار عدد صغير محدود من بينهم ليتولى سلطات مجلس الأمن الواسعة ما قد يثير من الفرقة والخلافات بينهم أكثر مما يفيد.. ومن ثم فقد هزم اقتراح سيراليون ولم ير النور بعد ذلك.. لكن ألقيت مهمة إلقاء «الدش البارد» على الصديق وزير خارجية سيراليون الصديقة بالمثل.. على أنا..

وأثناء جولتي في غرب إفريقيا في يناير ١٩٨١ بشأن قضية تشاد مررت على لومي Lome عاصمة توجو مرتين: الأولى لحضور احتفالاتها بعيد استقلالها وتسليم توجو سبع دبابات مصرية مستعملة

قامت مصر بإمداداتها إلى توجو بعد أن أنزلت مصر طيارتها وما أن وصلت Lome إلا وقد فوجئت بتبقيز مصر بها الصديق السيد مجلي خفاجة يخبرني بأن الدبابات أنزلت من الباخرة إلى رصيف الميناء لكنها أثناء توجهها من الميناء إلى معسكر الجيش في المدينة تعطلت منها أربع دبابات مرة واحدة ولم يمكن تسييرها .. ولن تشترك الدبابات في العرض العسكري بمناسبة يوم الاستقلال - بعد أيام قليلة إلا إذا أرسلت مصر فورا من يقوم بإصلاحها..

قمنا بالإبراق إلى مصر بالمعنى السابق، لكن لم تصل الطائرة المصرية الحربية المقلة لطاقم الصيانة إلا بعد انتهاء العرض العسكرى الذي تم دون اشتراك الدبابات طبعا.

وكنت قد سافرت لإتمام مهمتي في نيجيريا وجابون وعدت إلى لومى لحضور اجتماع لجنة رئيسية من رؤساء سبع دول أفريقية اجتمعت فى فندق ٢٢ فبراير الشهير والحديث - فى لومى لبحث مشكلة ليبيا وتشاد فى حضور «التريكى» وزير خارجية ليبيا حينئذ. وكان قد دعانى الرئيس أياديما رئيس جمهورية توجو لحضور اجتماعات تلك اللجنة كمراقب وممثل لرئيس جمهورية مصر، كضيف على اللجنة، وكان غرض تلك اللجنة مواجهة التريكى وإحراجه واضطراره إلى إعلان موقف ليبيا صراحة هل تنوى الإنسحاب - ومتى؟ لكن ما أن رآني التريكى إلا وأعلن احتجاجه على حضور ممثل مصر وهو ليس عضوا باللجنة، وأعلن انسحابه منها!!.

وهكذا أراد التخلص من ذلك المأزق.. بهذه الحيلة المكشوفة.. لكنى سارعت فطلبت الكلمة وشرحت أن وفد مصر تعاطفا منه مع قضية تشاد ومع مواقف الرؤساء السبعة وتأييدا لمهمتهم يسره أن «ينسحب طواعية» من الجلسة ليسمح للرؤساء بإعادة استدعاء السيد التريكي ومواجهته.. ولا يسوءه مصر أن تتغيب عن تلك الجلسة فهى على ثقة من أن السادة الرؤساء سيتخذون المواقف نفسها التي ترضي عنها مصر.. إلخ...

وهكذا تم استدعاء السيد التريكى من جديد لمواجهة العاصفة!

كذلك كان لى حظ الاشتراك في الوفد الوزارى برئاسة السيد منصور حسن وزير الإعلام المصرى فى ذلك الحين، والذى اشترك فى مؤتمر وزراء الإعلام بإفريقيا فى ياوندى عاصمة الكاميرون، وبحضور السيد/ أحمد مختار أمبو مدير منظمة اليونسكو حينئذ أى سنة ١٩٨١ .

ضم الوفد بخلاف السيد منصور حسن وبخلافى السيد يحيى أبوبكر رئيس هيئة الاستعلامات والأساتذة مكرم محمد أحمد ومحمد طنطاوى وغيرهم...

أقلتنا الطائرة من القاهرة إلى باريس حيث أمضي الوفد ليلة واحدة انتظارا لطائرة «ايرافريك Air Afriqut إلى ميناء دوالا فى الكاميرون

الذى يطل على الأطلسى ـ وهو أيضا المطار الدولى للكاميرون ـ ومن دوالا بطائرة صغيرة على الخطوط الداخلية إلى ياوندى العاصمة إذ هى مدينة صغيرة على هضبة مرتفعة وسط الكاميرون وجوها لطيف يمتاز كثيرا عن حرارة ورطوبة دوالا الشديدة.. الاستوائية..

وقد توجه عدد من أعضاء سفارتنا فى باريس بسياراتهم إلى الفندق الذى كنا نقيم فيه فى باريس لنقل السيد الوزير وأعضاء الوفد إلى المطار.. قبل موعد إقلاع الطائرة بساعتين.. وقد حضر ضمن من حضروا الزميل الأستاذ/ فتحى دراز الوزير المفوض لسفارتنا فى باريس فى ذلك الحين (سفير مصر فى مالى فيما بعد) وعرض على أن يصحبنى فى سيارته إلى المطار فقبلت بسرور فهو صديق عزيز قديم ولم أرغب فى تركه يذهب للمطار وحيدا.. وكان الأستاذ فتحى دراز من المخضرمين العارفين تماما لباريس فقد أمضى فيها سنوات طويلة.. كطالب وكدبلوماسى إلا أنه أمضى أكثر من ساعة ونصف يحاول الخروج من وسط باريس إلى الطريق الدائرى المؤدى إلى المطار دون فائدة.

وقد لاحظت ازدياد عصبيته وحرجه وخجله لعدم معرفته الطريق ولاحتمال تسببه فى فقدانى الطائرة وعدم لحاقى بالوفد إلى الكاميرون فلم أشأ أن أزيد من عصبيته وحرجه وضبطت أعصابى رغم ازدياد قلقى بطبيعة الحال كلما تقدمت الساعة! واقترحت عليه ـ مرارا ـ إيقاف

بسيارة أجرة «تاكسى» لتدلنا على الطريق لكنه إعتبر ذلك إهانة له فينا يبدو ورفض عرضى كل مرة! وأخيرا وبعد أن طاف بى كل باريس تقريبا تمكن من الخروج إلى الطريق الدائرى، طريق المطار فوصلناه قبل خمس دقائق من مغادرة الطائرة.. وكان الجميع فى إنتظارى فى شدة القلق والحيرة لما أصابنا وكانوا قد أتموا إجراءات وزن أمتعتى وتم شحنها إلى الطائرة لحسن الحظ فما أن وصلت المطار إلا وأدخلونا إلى الطائرة فورا.. وتنفست الصعداء وقصصت على السيد الوزير تجربتى العصيبة وتجوالى فى باريس مدة ساعة ونصف لم أر فيها شيئا من معالم باريس رغم ذلك!

وبعد أن بلغت سن التقاعد فى نوفمبر ١٩٨٦ دعانى السيد الوزير د. بطرس غالى للإسهام فى برنامج المحاضرات السياسية التى تنظمها مصر عن طريق وزارة الخارجية المصرية فى عواصم بعض الدول الصديقة التى أبرمت مع مصر اتفاقات تعاون فنى، وقد أقامت مصر سنة ١٩٨٠ صندوق المعونة الفنية لإفريقيا ويتبع وزارة الخارجيــة المصرية ويستهدف مد الدول الإفريقية الصديقة بالخبراء الفنيين فى جميــع الميادين والمحاضرين، وتدريب كوادر افريقيــة فى مصر بالمثــل. وقد أبرم صندوق المعونة اتفاقات مع أربعين دولة إفريقيــة إلى الآن.. وكانت زياراتى إلى عدد من العواصم الإفريقية لإلقــاء سلسلة محاضــرات سيــاسية عن طريق هذا

الصندوق إذن..

أوفدني الصندوق وكان يرأسه السفير أحمد طه فى ذلك الوقت فى مهمتين: إحداهما تناولت إلقاء محاضرات في لاجوس عاصمة نيجيريا، وكوتونو عاصمة بنين، وياوندى عاصمة الكاميرون، ولومى عاصمة توجو، وأكرا عاصمة غانا، وقد سبق الحديث عن لاجوس أما كوتونو فقد أدهشنى نظافتها وحسن نظامها وتوافر الحاجات المعيشية بها ورغم ماسمعته عن شدة نظام الحكم في بنين الاشتراكى الطابع وليس بالمدينة سمات الغنى أو الثراء لكن بها فندق شيراتون من أفخم فنادق شيراتون فى كل افريقيا ويطل على البلاج مباشرة!! وقد أقر مجلس الوزراء بنفسه عناوين المحاضرات التى ألقيتها ووافق على دعوتى وأشرفت وزارة الخارجية فى كوتونو على تنظيم المحاضرات بالاتفاق مع السيد سفيرنا حسن غازى الذى أبدى جهدا مشكورا ملحوظا.. فتمت على أكمل وجه وفى جو من الترحاب والود مما يدل على أن مصر قد استعادت مكانتها فى افريقيا حتى فى البلاد اليسارية وأنها على الطريق السليم. أما لومى فهى عاصمة صغيرة مثل كوتونو تطل على المحيط الأطلسى أيضا ومقامة على سلسلة من التلال وجوها يميل إلى الانفتاح الاقتصادى وبها اثنان من الـ Super-Marches فرنسية تحوى كل المنتجات الفرنسية لكن بأسعار تكاد تكون ضعف أسعارها فى باريس، وقد تولى صديقى وزميلى السفير عمرو هاشم استضافتى

فى سفارته وترتيب إلقائى لأربع محاضرات تحت إشراف وزارة الخارجية التوجولية فى جو من الود والترحاب بالمثل، فصداقة مصر وتوجو قديمة العهد.. كما أن معرفتى بتوجو ترجع بالمثل إلى ١٩٨١ وكانت مناسبة سارة أن جددت أواصر صداقتى مع الزميل السفير عمرو هاشم وكان قد عمل معى فى روما أثناء تولىّ مهام سفارتنا بها..

أما أكرا عاصمة غانا فقد سبق لى زيارتها للمرة الأولى فى ابريل ١٩٥٨ ضمن الوفد برئاسة المرحوم د. محمود فوزى لحضور أول مؤتمر قمة للدول الافريقية المستقلة كما سبق أن شرحت.

كانت أكرا عاصمة مزدهرة سنة ١٩٥٨.. ونزلنا فى فندق امباسادور حينئذ وكان فندقا طيبا واتسمت خدماته بالجودة.. أما سنة ١٩٨٠ فكانت الحالة تنبىء بفعل السنين الثلاثين الماضية، ثلاثون سنة فى ظل حكم اشتراكى متطرف ثم عسكرى يمينى.. لقد تدهورت عملتها المسماة «سيدى» وأحوالها العامة.. لكن صداقة مصر وغانا قديمة فهما بلدان صديقان ومتصاهران من قديم الزمان (١).

ورغم تغيب سفيرنا بالإجازة فإن السكرتير الثالث بالسفارة وكان شابا حديث الخبرة قام بواجبه على أكمل وجه واستطاع مع وزارة خارجية غانا تنظيم إحدى المحاضرات فى وزارة

---

(١) تزوج الرئيس الغانى انكروما بسيدة مصرية قبطية اسمها فتحية

الخارجية لكبار الدبلوماسيين وأخرى في معهد الصحافة العالى في أكرا.

وقد أثارت زيارتى الأخيرة إلى أكرا ذكريات زيارتى لها في المرة الأولى سنة ١٩٥٨ كانت غانا حديثة الاستقلال وتزهو بعنفوان شبابها وبفرط حماس أنكروما وبتقديس الشعب له.. وتذكرت حفلاته في القصر أو القلعة القديمة التى تعود إلى عهد البرتغاليين! كما تذكرت كيف كان الفتيان والفتيات الغانيات يرقصون «الهاى لايف» في مرح وسرور في حدائق حانات البيرة المنتشرة في أكرا.. وتذكرت مشاطرتى نفس الغرفة مع الصديق الوزير محمد فائق أثناء مؤتمر سنة ١٩٥٨ كما تذكرت زميلنا الراحل السفير عماد البط الذى كان معارا لمنظمة الوحدة الافريقية وكان يرأس مكتبها في أكرا ووافته المنية في إحدى المرات والطائرة تتهيأ للهبوط في مطار أكرا حقا لقد أثارت زيارتى الثانية لأكرا ذكريات حزينة وحركت المواجع..

أما ياوندى عاصمة الكاميرون فبعد أن رتبت محاضراتى مع صديقى وزميلى السفير/ محمد الخازندار «شقيق حسين الخازندار سفيرنا في مدغشقر الذى سبق ذكر اسمه» عادت حكومة الكاميرون فاعتذرت لتغيير البرنامج بسبب الإجازات الطارئة في عاصمة ياوندى.. هكذا تمكن السفير محمد الخازندار من ترتيب محاضراتى عن طريق نادى الروتارى في ياوندى. كما أصر مشكورا على استضافتى في

سفارته.

وياوندى جوها لطيف مريح لأنها تقع على هضبة مرتفعة وسط الكاميرون.. ومناظرها جميلة، أعادت إلى ذاكرتى مناظر تتاناريف حيث يقيم أيضا حسين الخازندار.. لكن سفارتنا فى ياوندى ملك للدولة المصرية وحديثة البناء وكان لى شرف النزول فيها فى ضيافة صديقى محمد الخازندار وهى فخر لصندوق مبانى وزارة الخارجية المصرية الذى يحاول إقامة سفارات مصرية تملكها الدولة فى مختلف العواصم بدلا من استئجار تلك الدور.

فالإيجار المدفوع.. مفقود.. فى حين أن امتلاك الدولة لدور سفاراتنا فى الخارج سوف يوفر الإيجار تماما بعد عشر سنوات من بناء تلك السفارات..

وياوندى بها فندق واحد مريح اسمه مونت فيبى يؤمه جميع الأجانب والدبلوماسيون فى عطلات نهاية الأسبوع فليس هناك مكان غيره. أما دوالا الميناء التجارى الأول على المحيط الأطلسى فيها عدد أكبر من الفنادق الصالحة لكن مدينة دوالا شديدة الرطوبة والحرارة وهى لهذا أسوأ حالا من ياوندى التى تتفوق عليها أولا من حيث المناخ وثانيا من حيث خفة الدم والمنظر العام ومحاولات التحديث والإصلاح.

أما المهمة الثانية التى أوفدنى فيها الصندوق لإلقاء المحاضرات فكانت إلى شرق افريقيا .. إلى نيروبى «كينيا» ثم تناناريف «مدغشقر» ثم جزيرة موريشيوس.

فنيروبى مدينة رصينة أصيلة ومحترمة ووسط المدينة بها أنيق تفخر به أى عاصمة حديثة وبها أحياء سكنية راقية جدا .. ڤيللات فاخرة وحدائق غناء وطرق نظيفة معبدة.. وجو نيروبى جميل طوال العام وهو ربيع دائم بسبب ارتفاعها ٥٠٠٠ قدم فوق سطح البحر.

وقد أقمت لدى زميلى السفير محمود عثمان فى دار سكن السفير وهى تدل على انتشار الذوق السليم والمبانى الراقية فى نيروبى.. وكان قد سبق لنا أنا وزوجتى زيارة نيروبى من قبل(١) وقمنا برحلة إلى قرب جبل كينيا Mount Kanya Safari park وارتفاع هذا الـ Park ٧٠٠٠ قدم وهو مثال الأناقة وحسن خدمة مراكز السياحة فى كينيا.

وقد نظم لى السيد السفير/ محمود عثمان بالاتفاق مع وزارة الخارجية وجامعة نيروبى وبعض أساتذتها عدة محاضرات.. وأوصلنى إلى مطار نيروبى حيث فوجئنا باحتمال عدم سفرى إلى تناناريف سبب ازدحام الطائرة! لكن الله سلم!!

---

(١) ونزلنا أيضا فى ضيافة الزميل والصديق السفير أحمد حجاج وهو حاليا معار لمنظمة الوحدة الافريقية كأمين عام مساعد للمنظمة.

وفى تناناريف عاصمة مدغشقر (٦٠٠ كيلومتر مربع وهى من أكبر جزر العالم) نزلت فى أطيب فنادقها.. فندق هيلتون لكنه هو الآخر تأثر بالجو العام والمحيط به فى تناناريف،... ويعكس هذا الجو تأثير نوع من الرياح الاشتراكية اليسارية التى غمرت البلاد منذ استقلالها وأوقفت تقدم السياحة إليها وفيها ورغم جمال المناظر الطبيعية فى تناناريف بل ورغم ثراء الطبيعة فى كل جزيرة مدغشقر فإن السائح لا يجد بها مايشده إلى زيارتها ثانية، ولم أستطع إلقاء أى محاضرة بها لأن الحكومة رأت ـ بعد وصولى إليها ـ أن يبدأ موسم المحاضرات المصرية بها وزير أو وزير دولة وليس وكيل وزارة الخارجية السابق.. وذلك رغم سبق قبولها لدعوتى!

إلى هذا الحد وصلت البيروقراطية والـ Snobis Hness فى بعض بلاد افريقيا!!

ومن هنا كانت مشكلتى فى تناناريف هى كيف أقضى الأيام الثلاثة الباقية على موعد الطائرة المقبلة إلى موريشيوس؟ أمضيتها فى رياضة المشى وزيارة البازارات أى الأسواق وأهمها سوق الجمعة حيث تتفوق النساء فى فنون البيع والإدارة فهى أفضل وسيلة لدراسة أحوال الشعب المادية والمعنوية.. والشعب هناك لطيف مستكين هادىء الطباع، ونسبة المسلمين فى الشعب مرتفعة لكن قل أن تجد رجلا أو امرأة يبتسم أو يضحك؟ وليس فى الحياة الجافة القاسية ما يضحك.. ولم أجد أنا سببا لكى يبتسم أهل تناناريف على أى حال. ولعل الحال قد تبدل الآن.

أما جزيرة موريشيوس فهى رغم صغر حجمها جزيرة سياحية مفتوحة تماما بخلاف مدغشقر.. ورغم كونها على مسافة أبعد كثيرا من مدغشقر عن ساحل افريقيا (٥٠٠ ميل شرقى مدغشقر) فهى تعج بالسائحين من جنوب افريقيا بل من آسيا ومن أوروبا أيضا.. وبها عشرات المراكز السياحية الجميلة وشواطئها من أجمل شواطىء الدنيا من حيث وفرة الرمال البيضاء الناعمة والمياه الزرقاء البللورية كل ذلك فى جو من الخضرة الغنية الوارفة وسط حدائق الماجنوليا والجازوارينا وأشجار النخيل ونخيل جوز الهند التى تملأ الشواطىء بظلالها الوارفة ومنظرها الخلاب.. والشواطىء تزخر بالسائحين والسائحات الاجانب. جو كله سعادة ومرح وحبور وانتعاش اقتصادى وانفتاح فكرى.. رغم أن السواحل حارة بطبيعة الحال فجوها مدارى.

لكن وسط الجزيرة مرتفع ـ ويضم أربع مدن صغيرة هى كوريب ويوفالون وتامارين وروزبيل ويسكن أغلب السفراء وسط الجزيرة فى كوريب ويوفالون لأنه يتميز بلطف مناخه وقلة رطوبته وبوفره زرعه وظلاله والمسافة من وسط الجزيرة إلى العاصمة Port Louis على الشاطىء وهى مركز الحكومة ووزارة الخارجية لاتتعدى نصف الساعة بالطرق السريعة الجيدة. وبوسط الجزيرة فنادق مريحة لكنها لاتضارع فنادق المراكز السياحية الفاخرة على السواحل حسنا وبهاء وأناقة.

وقد نظم لى سفيرنا وائل فهمى محاضراتى فى جامعة «غاندى» حيث يكثر الهنود الوافدون من الهند فى موريشيوس ويمسكون بزمام

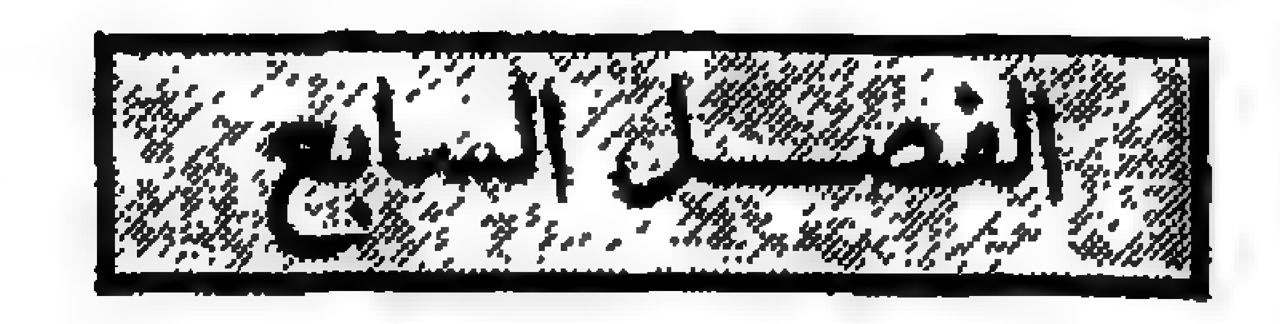
التجارة والأعمال. والجامعة مقامة وسط الجزيرة كما نظم لنا مقابلات مع بعض الوزراء والمسئولين ومنهم رئيس الوزراء نفسه.. فالشعور العام هناك موات لمصر تماما..

وبموريشيوس صناعات النسيج شديدة التقدم وتصدر منتجاتها إلى دول أوروبا التى تقبل على شرائها لجودتها ورخص أسعارها كذلك فإن الصناعات الصوفية «بول أوفرات إلخ» متوفرة ورخيصة وغزت أسواق العالم.. رغم أن موريشيوس تستورد القطن والصوف من الخارج..

لكن موريشيوس هى جزيرة قصب السكر وتصدر منه كميات إلى الخارج وكذا شاى موريشيوس الشهير وهو طيب المذاق والشعب فى موريشيوس مليون نسمة - خليط من سلالات البرتغاليين والهولنديين ومن الهند الوافدين من الهند مع الانجليز «هنود مسلمون وهنود هندوس» ومن الأفارقة الأصليين ومن سكان جزر المحيط الهندى.. لكن يغلب الجنس الهندى ويسيطر تماما على التجارة.. ويتكلمون هناك الانجليزية إلى جانب الفرنسية فقد كانت موريشيوس مستعمرة هولندية ثم فرنسية وأسموها L,isle maurice قبل أن تصبح مستعمرة بريطانية باسمها الحالى (١) وهى تبعد عن سواحل افريقيا ثلاث ساعات بالطائرة ورغم ذلك اشتد إقبال السائحين عليها لجمالها وبسبب سياستها الانفتاحية الحكيمة. ورخص أسعارها.

---

(١) موريشيوس حاليا دولة مستقلة وعضو بالأمم المتحدة وبمنظمة الوحدة الافريقية.



الدبلوماسية المصرية فى أعالى النيل : سفير مصرى فى أديس أبابا ! !

تقع أثيوبيا (واسمها القديم الحبشة) شرق وجنوب شرق السودان، وتشترك مع السودان فى حدود مشتركة قد تبلغ الألفى كيلو متر، وتطل من جهة الشرق على البحر الأحمر (١) وكان يمكنها التحكم فى مضيق باب المندب لقربها الشديد من مداخله كما كان لها مجموعة جزر داهليك القريبة من مداخل باب المندب. ولها من الجنوب الشرقى حدود مشتركة مع جمهورية جيبوتى ومع كينيا . وتقع بحيرة تانا وسط الهضبة الأثيوبية ويجرى النيل الأزرق من بحيرة تانا عبر أثيوبيا ثم إلى السودان إلى أن يلتقى مع النيل الأبيض قرب الخرطوم، ومن الأنهار الأخرى المهمة التى تغذى النيل الأبيض السوباط والعطبرة وينبعان من الحبشة بالمثل ومساحة أثيوبيا تفوق مساحة مصر الكلية (٤٧٢٠٠٠ ميل مربع لأثيوبيا و٣٨٦٠٠٠ مربع لمصر).

(١) أصبحت أثيوبيا تطل على البحر بحكم امتلاكها لاريتريا بدءاً من سنة ١٩٥٢ بناء على قرار الحلفاء بعد الحرب، لكن استقلت اريتريا سنة ١٩٩٢/ ١٩٩٣.

وتعداد أثيوبيا يزيد على ٣٦ مليون نسمة من عدة أجناس منها الأمهرى والتجرى وتسكن أعلى الهضبة المرتفعة والجالا والدناكيل والأوروموو وسط الهضبة ولكل منها لغته الخاصة.. والأمهريون والتجريون من الجنس السامى لكن الجالا من الجنس الحامى.. كذلك فإن المسيحية دخلت أثيوبيا سنة ٣٣٠ بعد الميلاد عن طريق مصر وكان تأثير الكنيسة القبطية المصرية شديدا وكانت الكنيسة الأثيوبية تتبع للكنيسة القبطية فى مصر حتى سنة ١٩٥٠ حين استقلت عنها «إداريا».. لكنها مازالت تتبع الطقوس نفسها القبطية.

وكانت مصر القديمة، تليها اليونان القديمة صاحبتى أكبر نفوذ ثقافى وحضارى على الحبشة ويتضح ذلك فى الآثار والكنائس فى لاليبلا وجوندار واكسوم.. ورغم أن الكنيسة الأثيوبية استقلت أخيرا سنة ١٩٥٠ عن الكنيسة القبطية المصرية إداريا فإن الدين المسيحى «القبطى» مازال مسيطرا على أربعين فى المائة من الشعب الأثيوبى وذلك رغم قيام نظام اشتراكى ماركسى فى البلاد بدءا من ١٩٧٤(١). ويدين أربعون فى المائة من الشعب بالإسلام والباقى وثنيون وتوجد قلة لا تجاوز ثلاثين ألفا أو أقل من اليهود «الفلاشا»، هاجر الكثيرون منها إلى إسرائيل في الحقبة الأخيرة.

وأثيوبيا معظمها دولة جبلية وعرة بل شديدة الوعورة ويبلغ ارتفاع بعض القمم أربعة آلاف متر لكن أديس أبابا العاصمة التى تتوسط

---

(١) أسقط النظام الماركسى سنة ١٩٩١.

الهضبة تقع على ارتفاع ٢٨٠٠ متر (٨٠٠٠ قدم) تقريبا وقد بدأت مظاهر التحديث تبدو واضحة فى قطاعات من مدينة أديس أبابا التى تسبق بقية مدن وقرى أثيوبيا بمسافات طويلة.

ويتحكم نظام المرتفعات فى نوعية المناخ وكمية سقوط الأمطار الموسمية ونوعية النباتات فهناك مناطق شديدة الخصوبة أما لتلقيها كميات مناسبة من الأمطار التى لها موسمان موسم الأمطار الغزيرة وموسم الأمطار القليلة وأما بسبب قربها من مياه النيل وفروعه أنهار عطبرة وسوباط وبارو لكن ظروف الرى مازالت بدائية ويمكن تحسينها عن طريق بناء السدود (١) وهناك مناطق جفاف بل شديدة الجفاف قرب صحارى السودان والصومال..

ومما يزيد من صعوبة المشكلات التى تواجه أثيوبيا انعدام أو عدم كفاءة وسائل النقل الحديثة كلية لتوزيع المحاصيل الزراعية من المناطق الخصبة المثمرة إلى المناطق الجدباء بالإضافة إلى ضعف أو سوء وسائل الإنتاج الزراعى ووسائل الرى وعدم تحديثها مما يؤدى إلى تكرار وقوع القحط والمجاعة فى مناطق متباينة من أثيوبيا وإن لم يكن فى مجموعها وقد احتاج ٣ ملايين أثيوبى أو أكثر إلى المعونات الدولية عام ١٩٩٠ استمراراً لما حدث فى السنوات القليلة السابقة أيضا.

وتشتهر أثيوبيا بزراعة البن على سفوح الجبال متوسطة الارتفاع ويمثل البن ٦١٪ من صادراتها كذلك تزرع الحبوب والغلال.

---

(١) قبل سقوط الامبراطور قامت الولايات المتحدة سنة ١٩٥٨ بدراسة وافية وتقدمت بمشروع إقامة أربعة سدود مهمة على النيل الأزرق لكن لم ينفذ شيء للآن.

لكنها تحتاج حاليا إلى مساعدات العالم الخارجي لسد رمق الشعب في مناطق القحط منذ عدة سنوات وأرض أثيوبيا الزراعية البركانية خصبة لكنها لا تمثل إلا ١٢٪ من المساحة الكلية .

وتمثل الجبال والصحارى باقى المساحة لكن الثروة المعدنية تشمل مناجم الفحم والبلاتين والذهب والنحاس (كان المصريون القدماء يستغلون مناجم الذهب فى أثيوبيا فى فترات متقطعة) والاسبستوس والبوتاس كما أن الثروة الحيوانية فى المناطق النائية تشمل الأبقار والخراف : وتصدر أثيوبيا كميات من اللحوم إلى ايطاليا وغيرها .. وثمانون فى المائة من اليد العاملة في أثيوبيا تشتغل بالزراعة .. وطرقها ووسائل مواصلاتها بدائية كما هو متوقع ، رغم وجود تجمعات مساقط مياه كثيرة بسبب هطول الأمطار الموسمية الغزيرة وتدفق النيل الأزرق والسوباط والعطبرة من فوق منحدرات وعرة فإن انتاج أثيوبيا من الكهرباء لا يتعدى ٧٠ مليون كيلو وات كهرباء سنويا (مصر ١٧ بليون وايطاليا ١٨٠ بليون) .

ويبلغ إجمالى الناتج القومى فى أثيوبيا ٧ أو ٨ بلايين دولار سنويا (مصر ٣٣ بليوناً وايطاليا ٣٥٠) كما يبلغ متوسط دخل الفرد في أثيوبيا ١٢٢ دولارا سنويا (مصر ٦٨٦ دولارا وايطاليا ٧٠٠٠ دولار سنويا) فأثيوبيا تعتبر إذن دولة من الثلاثين دولة الأكثر احتياجا فى العالم .

وتبلغ الأمية بها ٨٠٪ من مجموع السكان ومتوسط عمر الفرد ٤٠ سنة فقط ..

إلى جانب المشاكل والصعوبات الناجمة عن الطبيعة وعن إهمال واجبات وإمكانات التنمية الزراعية والصناعية والفنية والاجتماعية الحديثة فقد أضافت « السياسة » سلسلة أخرى من المشاكل التى تنوء أثيوبيا بحملها . منها المشاكل الاثنية أو العرقية الأصل ومنها الأيديولوجية الطابع .

أما مجموعة المشاكل الأولى أى الاثنية أو العرقية فتتمثل فى حروب وخلافات أثيوبيا مع الصومال ومع حركات تحرير أقاليم اريتريا وتيجرى وأورمو أما خلافات أثيوبيا مع الصومال فتعود تاريخيا إلى القرن السادس عشر منذ غزو الصوماليين المسلمين للحبشة المسيحية ثم نجاح الأحباش فى طردهم بمساعدة البرتغاليين أما فى الأزمنة الحديثة فإن الدول الغربية هى المسئولة عن منح الامبراطور هيلاسيلاسى بعد الحرب العالمية الثانية السيادة والسيطرة على إقليم الأوجادين (١) .

وإقليم الأوجادين متاخم للصومال والذى تسكنه قبائل صومالية مسلمة وتطالب الصومال باستعادة هذا الإقليم من أثيوبيا ، وما يكمله من أقاليم مشابهة تقع حاليا فى كينيا وجيبوتى .. وقد دارت معارك

---

(١) نال الامبراطور السيطرة على الأوجادين وعلى اريتريا وهما اقليمان يسكنهما المسلمون من أصل غير أثيوبى بل من أصول قريبة للصومال .

حامية بين الصومال وأثيوبيا تفوقت فيها أثيوبيا حينا ثم الصومال حينا آخر حتي كادت أن تنتصر ثم استعادت أثيوبيا السيطرة على الموقف عسكريا بمساعدة السوفيت وقوات من كوبا . ومازال الموقف غير مستقر لكنه بعيد عن احتمالات الحل السريع رغم مظاهر إنهاك الطرفين واستعدادهما أخيرا لاستبدال حديث المدافع بحديث الموائد المستديرة ورغم العودة أخيرا إلى تبادل التمثيل الدبلوماسى الذى كان قد قطع فيما سبق ..

أما مشكلة أثيوبيا مع اريتريا فترجع إلى نهاية الحرب العالمية الثانية . كان إقليم اريتريا (وسكانه مسلمون أقرب إلى الصوماليين منهم إلى الأثيوبيين) تحت حكم ايطاليا وعاصمته أسمرة وهى مدينة ايطالية الطابع كما أن به ميناءى عصب ومصوع وبعد هزيمة ايطاليا قرر الحلفاء سنة ١٩٥٢ وضع إقليم اريتريا (١) فى كنف الامبراطور هيلاسيلاسى (مكافأة له) فى شكل اتحاد كونفيدرالى مع أثيوبيا بشريطة الاحتفاظ بشكل الوحدة الفيدرالية لكن مالبث الامبراطور أن ضم اريتريا إلى أثيوبيا ولئن كان الامبراطور قد فعل ذلك إلا أنه تميز بأسلوب حكيم وكريم فى معاملته لأهل اريتريا بحيث ارتضوا ما حدث ولم يثوروا ضد أثيوبيا إلا بعد وقوع الثورة العسكرية الماركسية فى سنة ١٩٧٤ التى أطاحت بالامبراطور .. ولم يعرف قادة الثورة الأثيوبية لغة

(١) دون اريتريا تفقد أثيوبيا منفذها إلى البحر الأحمر . .

الامبراطور الدبلوماسية فما لبث الاريتريون تحت قيادة جبهة التحرير الشعبية وجبهة تحرير الصومال أن شقوا عصا الطاعة وحققوا انتصارات غير قليلة على أثيوبيا ونجحوا فى الحصول على الاستقلال عن أثيوبيا بعد أن دارت المعارك سجالا بين الطرفين لمدة خمسة عشر عاما أو يزيد .

كذلك الحال بالنسبة لأقاليم تيجرى وجالا حيث تتسبب الخلافات الأثنية والعرقية واللغوية فى زيادة إحساس أهل تيجرى وجالا وأورومو بإهمال السادة الأمهرية (١) سكان الهضبة الوسطى لشئونهم ومن ثم فى نشاط حركات التحرير .

وقد نشطت حركات التحرير فى تيجرى وجالا نشاطا ظاهرا وحققت انتصارات عسكرية ملحوظة فى الشهور الأخيرة من سنة ١٩٨٩ خاصة وأن الجيش الأثيوبى تعب ومل سلسلة المعارك الطويلة كما وأن الجيش الأثيوبى حارب فى جبهات متعددة فى اريتريا وتيجرى وجالا وأورمو فى الوقت الذى يحتفظ فيه بجزء غير قليل من الجيش والمعدات فى إقليم الأوجادين فى مواجهة الصومال وكذلك خاصة بعد إتمام انسحاب معظم القوات الروسية التى كانت تساند أثيوبيا منذ عشرة أعوام وبلغ قوامها فى مطلع الثمانينات قرابة عشرين ألف جندى كوبى أو أكثر .

والمعلوم أن أثيوبيا اتهمت بعض الأنظمة العربية - الثرية -

(١) الطبقة الحاكمة الثرية فى أثيوبيا كانت غالبا من الأمهرية .

بمســاعدة ثوار اريتـريا المسلمين ماديا وعسكريا ، وأن الثـوار حسبما يؤكد الأثيوبيون اسـتعملوا أراضى الســودان المتاخمة لأقاليمهم ، كمراكز انطلاق وكمهرب من الحرب اذا ما دارت عليهم الدائرة .

وتؤكد أثيوبيا أنها حاولت مرارا ومنذ سنوات طويلة إقناع السودان بغلق حدوده وعدم السماح باستعمال أراضيه على هذا النحو ، لكن السودان كان يقول دائما باستحالة إغلاق حدوده الشاسعة وأنه يصعب التحكم والسيطرة على تلك المناطق غير المأهولة وضمان عدم استعمال الثوار لها .. كذلك ينفى السودان نفيا قاطعا سماحه باستعمال الثوار الأثيوبيين لأراضيه .. لكن الحكومة الأثيوبية تشك كثيرا فى أن السودان غير قادر أو غير راغب فى منع استعمال الثوار لأراضيه بحجة أنه ينال مساعدات مالية وعينية من الدول العربية الثرية نظير سماحه باستعمال أراضيه فى ذلك الغرض أو أن السودان يساعد ثوار أثيوبيا لأسباب دينية أو أيديولوجية .

ومن هنا فقد نشطت حركة ثوار جنوب السودان بزعامة جون جارانج (قرنق) وهو ضابط سودانى مسيحى من إقليم جنوب السودان ضد حكومة الخرطوم فى السنوات الأخيرة .. وتمكن جون جارانج من إحراز سلسلة انتصارات عسكرية مازالت مستمرة ضد الجيش السودانى واستولى على عدة مدن مهمة تقطع الطريق إلى

السودان الشمالي (العربى) ثم استطاع إقفال مديريات الجنوب الثلاث فى وجه أهل شمال السودان وفى وجه الجيش السودانى .

وهنا يشير السودانيون بدورهم بإصبع الشك أو الاتهام إلى أثيوبيا، وكينيا وأوغندة متهمين إياها بمساعدة جون جارانج وبالسماح له باستعمال أراضيها كمراكز انطلاق وتموين لقواته .

وتجدرَ الإشارة إلى أن مصر والسودان وبرنامج الأمم المتحدة للتنمية UNDP كان قد بدأ منذ قرابة عشر سنوات [1] فى شق قناة جونجلى (قناة بور) فى منطقة السدود فى جنوب السودان وكان هذا المشروع سيوفر قرابة ١١ بليون متر مكعب من المياه الإضافية التى تحتاجها مصر والسودان للرى (٧ بلايين لمصر و ٤ بلايين للسودان) لكن انتصارات جون جارانج قد أوقفت تماما العمل فى مشروع قناة جونجلى وذلك منذ ١٩٨٧ تقريبا وإلىَ الآن .

ويشير العارفون إلى أن أصول ثورة جنوب السودان قديمة الجذور .. فقد حاول الاستعمار البريطانى منذ ١٨٨٩ التفرقة ما بين السودان وجنوبه وحاول تنمية الخلافات بين الإقليمين وتم فعلا عزل الشمال إداريا وواقعيا عن جنوبه . والشمال يغلب فيه العنصر العربى الإسلامى أما الجنوب فتغلب عليه الوثنية أو المسيحية والعنصر الزنجى .. وأهل الجنوب لا يتكلمون العربية .

---

(١) منذ ١٩٧٨ على وجه التحديد .

إلا أن أصول الثورة حديثا ترجع إلى عهد النميرى .. فبجرة قلم واحدة منه ألغى العمل باتفاق أديس أبابا لسنة ١٩٧٢ وهو الاتفاق الذى كان قد تم بين حكومة السودان وممثلى جنوب السودان تحت إشراف ووساطة الامبراطور هيلاسيلاسى فى أديس أبابا سنة ١٩٧٢ وفيه تعهــــدت حكومة الســـودان باحترام الادارة الذاتية SELF GOVERNMENT (AUTONOMY) لأقاليم جنوب السودان الثلاثة، وباحترام ذاتية الإدارات الثلاث سالفة الذكر وباحترام علاقاتها الإدارية المستقلة بحكومة الخرطوم ، وظلت حكومات الخرطوم تحترم هذا الاتفاق وتعمل به لحقبة كاملة إلى أن ألغاه النميرى بجرة قلم وأعلن تبعية المديريات الثلاث إلى حكومة الخرطوم المركزية مباشرة كما أعلن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية على كل السودان شمالا وجنوبا .. ولم يرض أهل جنوب السودان المسيحيون أو الوثنيون على هذا الإجراء .. وكان سهلا على القوى الخارجية بعد ذلك تحريك أهل الجنوب وإثارتهم بل مساعدتهم ضد حكومة الخرطوم .

كانت الصورة القاتمة سالفة الذكر هى ما طالعنى حينما توليت مسئولية وكالة الوزارة للشئون الافريقية من أكتوبر ١٩٧٩ إلى أواخر ١٩٨٢ وعندما وقع الاختيار علىّ سفيراً لمصر فى اثيوبيا .

كانت علاقة مصر بأثيوبيا يشوبها الكثير من سوء التفاهم والكدر بل والشد والجذب أحيانا .. وكانت أثيوبيا تشك فى نوايا مصر حيال نظام الحكم العسكرى الماركسى الذى قام بها منذ ١٩٧٤ .. فقد كانت

ميول الرئيس الراحل السادات معروفة واضحة وأعلن عنها مرارا فى أحاديثه .. بل وذهب إلى حد تهديد أثيوبيا باحتمال قيام مصر بعمليات «بوليسية» ضد من تساوره نفسه المساس بمياه النيل ! يقصد فى حالة قيام أثيوبيا بإقامة السدود على النيل الأزرق ..

كذلك رأى السادات أن يزيد من مساعداته العسكرية إلى الصومال من مبيعات الأسلحة إلى الخبراء العسكريين – وكان الصومال مازال في حالة حرب مستمرة ضد أثيوبيا وله فيها مطالب إقليمية لم يقلع عنها.

وكانت أثيوبيا ترى إصبعا مصريا خفيا وراء قيام السودان بمساعدة جبهات التحرير فى أثيوبيا .. وعلى الأقل كانت أثيوبيا تظن أن مصر تمد كلا من السودان والصومال بالعون الدبلوماسى والسياسى والأدبى وأخطر منه بالعون العسكرى .. والمادى أحيانا .. كذلك كانت القاهرة تستضيف مكاتب لجبهات تحرير اريتريا .

ومن هنا فقد كانت العلاقات المصرية الأثيوبية تجتاز فترة من أسوأ فتراتها بعد أن كانت علاقات مصر مع الامبراطور هيلاسيلاسى طيبة متينة .

وقد حاول الوزير د. بطرس غالى بما هو معروف عنه من اهتمام واضح بافريقيا وبتحسين علاقات مصر مع الدول الافريقية وتحسين صورة مصر بها ، حاول زيارة أثيوبيا ومقابلة المسئولين بها قبل مطلع الثمانينات لشرح حقيقة موقف مصر وكيف أنها لا تضمر شرا ولا تلعب

أى دور فى الخفاء ضد مصالح أثيوبيا .. لكن لم يستجب قادة أثيوبيا لهذه الرغبة ورفضوا استقباله .

بعد دراستى للموقف قمت بإعداد مذكرة تحليلية قدمتها إلى الوزير د. بطرس غالي كما رفعت إلى مكتب الرئيس السادات وإلى سلطات الدولة المسئولة .

كان المحور الأساسى للمذكرة يزكى بشدة إجراء تغيير جذرى فى سياستنا الافريقية فى شرق افريقيا والقرن الافريقى ، ويستهدف فى المقام الأول إصلاح علاقتنا مع أثيوبيا والسعى لكسب صداقتها ومعاونتها بغض النظر عن نظامها السياسى الداخلى ، وذلك لأهمية أثيوبيا البالغة بالنسبة لأمن مصر والسودان وأمن مياه النيل والبحر الأحمر .

وتمضى المذكرة إلى القول بأن إصلاح علاقاتنا مع أثيوبيا لا ولن يستتبعه بالضرورة إهمال علاقاتنا بالصومال عضو جامعة الدول العربية وصديقة مصر (كانت إحدى دولتين عربيتين لم تقطع علاقاتها مع مصر بعد اتفاقية كامب ديفيد) بل كل ما يستوجبه ذلك هو استمرار منح مصر للصومال المساعدات اللازمة للدفاع عن نفسها فقط فى حالة وقوع هجوم عليها وليس للأغراض الهجومية ، وبالقدر الذى لايشجع الصوماليين على التفكير فى معاودة الهجوم على الأوجادين .. كذلك تؤكد المذكرة وجوب اثناء الصومال عن اطماعه الاقليمية فى جيرانه وهى اطماع ادانتها منظمة الوحدة الافريقية مرارا .. وأخيرا

وجوب توضيح هذه الصورة وهذه الأهداف لحكام أثيوبيا الجدد وبناء جسور التعاون والتفاهم معهم .

وبمعنى آخر فلم يكن المجال مجال الاختيار ما بين صداقة أثيوبيا أو صداقة الصومال ، بل كان المستحسن والمطروح هو العمل على كسب صداقة أثيوبيا والتعاون معها ، مع الاحتفاظ فى الوقت نفسه بصداقة الصومال ومساعدتها بالقدر الذى لا يسمح لها بالعدوان على أثيوبيا بل ويثنيها عن مطامعها الاقليمية التى لا تقرها منظمة الوحدة الافريقية بل ونددت بها مرارا ..

ومضت المذكرة إلى المقارنة بين أهمية الدولتين أثيوبيا والصومال بالنسبة لمصر والسودان وافريقيا :

١ – فأثيوبيا تعدادها ٣٦ مليونا والصومال ٧ ملايين فقط .

٢ – وأثيوبيا تمدنا بأكثر من ثمانين فى المائة من مياه النيل .. ومن هنا يتعين على مصر الاحتفاظ بأوثق العلاقات معها من أجل التعاون معها فى ترشيد استخدام مياه النيل أما الصومال فهى دولة غير نيلية بالمرة .

٣ – لأثيوبيا حدود مشتركة شاسعة مع السودان وتستطيع أن تساعد الحركات الإنفصالية فى الجنوب أو تمنع هذه المساعدات .

– أما الصومال فليس لها حدود مشتركة مع السودان .

٤ – كانت أثيوبيا (قبل انفصال اريتريا عنها سنة ٩٢/٩١) تتحكم

فى مضيق باب المندب وبخاصة لتملكها مجموعة جزر داهلك قرب البوغاز .

ويقال أنه كانت بها قواعد بحرية سوفييتية ، وكانت بها قواعد إسرائيلية من قبل وقد تعود إسرائيل إليها من جديد ..

- أما الصومال فلا تتحكم فى باب المندب بنفس القدر .. وهى صديقتنا على أى حال ولا تتعاون مع القوى المعادية لمصر أو المعادية للعرب .

٥ - ما يحدث فى أثيوبيا من تجربة اشتراكية ماركسية ، والوجود السوفييتى والكوبى بها له تأثير قوى على مجريات الأمور فى افريقيا .. ويهم جميع دول افريقيا المساعدة على عدم انزلاق أثيوبيا أكثر فأكثر فى أحضان المعسكر الشرقى ، ويجب الاحتفاظ لها بصداقات خارج المعسكر الشرقى وتشجيعها على ايجاد صداقات بديلة وعلاقات متوازنة.

٦ - من الممكن لاسرائيل أن تستعمل أثيوبيا كمركز انطلاق لنشاطها ونفوذها ليس فى أثيوبيا وحدها وإنما فى عدد من الدول الافريقية الصديقة لأثيوبيا والمحيطة بالسودان ومن مصلحة مصر إغلاق أبواب أثيوبيا فى وجه أى نشاط معادى محتمل لاسيما أن مركز أثيوبيا الاستراتيجى فى حوض النيل والبحر الأحمر يهم مصر أهمية مطلقة .

- أما الصومال فهى دولة عربية وليست معرضة لمثل هذا التغلغل وستظل صديقتنا وفقا لمخططنا هذا ..

٧ - أديس أبابا مقر منظمة الوحدة الافريقية وأثيوبيا دولة افريقية مؤثرة وهى من الأسباب التى تدعونا إلى صداقتها وكسب تأييدها لنا فى المحافل الافريقية وبخاصة بين الدول التقدمية التى كانت تناصبنا العداء بعد كامب ديفيد . أما الصومال فإنها فى حالة عزلة تامة بين دول افريقيا لأنها تطالب بمطالب إقليمية وبتغيير الحدود مع جيرانها عنوة وهو ما حرمه ميثاق الوحدة الافريقية تماما وأدانه مرارا ..

★★★

نالت هذه المذكرة حسبما أعلم استحسان الوزير د. بطرس غالى وقد تم رفعها إلى الرئيس الراحل السادات فلم تلق منه قبولا حيث انه كان غير مستعد بتاتا للتعاون مع أى نظام « ماركسى » صديق للاتحاد السوفييتى .. ولم يكن مستعدا لتغيير سياسته تجاه الصومال أيضا .. واستمرت حملات الصحافة المصرية ضد أثيوبيا واستمرت حملات التأييد للصومال .

ثم مضت الأيام ومضى معها السادات ، وخلفه الرئيس حسنى مبارك الذى أعاد التفكير فى سياستنا فى شرق افريقيا والقرن الافريقى .. فى ضوء الواقع الملموس .

وبالاتفاق مع الوزير د. بطرس غالى اختارنى الرئيس حسنى مبارك لأكون سفيرا لمصر فى أثيوبيا ومندوبا دائما لدى منظمة الوحدة الافريقية واللجنة الاقتصادية لافريقيا التابعة للأمم المتحدة ومقرهما فى

أديس أبابا .. وبمعنى آخر أتاح لى الفرصة وأعطاني الضوء الأخضر ، فقد آن الأوان لوضع السياسة الجديدة التى أقرها الرئيس مبارك سالفة الذكر موضع التنفيذ .. وقد تكرم الرئيس حسنى مبارك باستقبالى قبل سفرى إلى أديس أبابا وأبدى سروره لقبولى منصب سفير مصر فى أديس أبابا متمنيا لى التوفيق .

قدمت أوراق اعتمادى فى أديس أبابا فى النصف الثانى من سنة ١٩٨٢ إلى السيد فكرى سلاسى الرجل الثانى فى أثيوبيا وعضو مجلس قيادة الثورة العسكرية وذلك لتغيب الرئيس منجستو هيلا ماريام خارج أديس أبابا فى جولة تفقدية .. وحضر مقابلتى مع فكرى سلاسى السيد / برهانو بابيه عضو مجلس الثورة العسكرى والمسئول عن السياسة الخارجية فى المجلس .. (وأصبح وزير خارجية بعد ذلك) .. وفى حديثى الذى استغرق زهاء النصف ساعة معهما أوضحت أن مهمتى الجديدة فى أثيوبيا هى العمل على تنقية جو العلاقات التاريخية بين الشعبين والبلدين وإزالة أسباب سوء التفاهم الحالى والعمل على تدعيم روابط التعاون المشترك بينهما باعتبارهما دولتين افريقيتين مهمتين وشريكتين فى حوض النيل ومياه النيل .. وقدمت إلى السيد / فكرى سلاسى مذكرة ضافية(١) شرحت فيها سياسة مصر الجديدة تجاه أثيوبيا وأكدت فيها حرص مصر على احترام استقلال وسيادة

---

(١) رغم انه لم يجر العرف على ذلك لكنى رأيت فائدة محققة فى اتباع هذا الاسلوب.

أثيوبيا ووحدة أراضيها وأن مصر لا تساعد أى قوي خارجية على تقويض دعائم وحدة أراضى أثيوبيا وأن مساعدات مصر إلى الصومال سوف تكون بالقدر اللازم للدفاع عن الصومال ضد أى هجوم خارجى دون أن تقوى من ساعد الصومال على الاتيان بأية مغامرات خارجية بل أن سياسة مصر الجديدة هى اقناع الصومال بعبث تلك المحاولات التى يدينها ميثاق الوحدة الافريقية بشدة (ومصر بدورها تؤمن بما يؤكده الميثاق من ضرورة احترام قدسية الحدود الموروثة عند الاستقلال بين الدول الافريقية الشقيقة) .

وقد تلقى فكرى سلاسى وبرهانو بابيه هذه المذكرة ووعدا بدراستها على مهل . كانت هذه أول مرة يتولى فيها سفارة مصر فى أديس أبابا وكيل لوزارة الخارجية المصرية وكانت أول مرة فى تقديرى يتبع سفير دولة أجنبية هذا الأسلوب الصريح والمباشر .

وفى مناسبات لاحقة أضفت إلى تلك المذكرة مذكرات أخرى مؤكدا المعانى السابقة من جديد وشارحا الحاجة لكل من مصر وأثيوبيا والسودان إلى بدء صفحة جديدة من التعاون الأمنى والاقتصادى والفنى وبخاصة فى مجال ترشيد استخدام مياه النيل وغيره من الميادين الفنية الأخرى .

وقد استغرقت دراسة السلطات الأثيوبية للموقف فى ضوء تأكيداتى السابقة بعض الوقت قبل أن تؤتى ثمرتها .

وأردت اختبار رد فعل السلطات الأثيوبية فطلبت السماح لى بزيارة

بعض الأقاليم ومنها أسمرة عاصمة اريتريا وكان غير مسموح للمصريين بزيارتها من قبل بسبب نشاط الثوار الاريتريين وكانت لهم مكاتب فى القاهرة كما طلبت السماح لى بإلقاء محاضرات فى قسم العلوم السياسية بجامعة أديس أبابا عن افريقيا والعلاقات الافريقية والمصرية الأثيوبية .

وقد سمحت لى السلطات بإلقاء بعض المحاضرات فعلا لكنها لم تسمح بقيامى بزيارة أسمرة حتى مغادرتى النهائية لأثيوبيا فى حين سمحت لسفير ايطاليا فعلا بزيارتها عدة مرات .

ثم تغير اتجاه الريح .. وتسلم مقاليد وزارة الخارجية وزير أثيوبى جديد هو جوشو وولدى وكان أكثر انفتاحا وتعاطفا .. وهنا بدأت ثمرات السياسة المصرية الجديدة فى الظهور الواحدة تلو الأخرى .

فسمحت أثيوبيا بزيارة السيد الوزير د. بطرس غالى لأديس أبابا فى زيارة رسمية إلى أثيوبيا وليس كرئيس لوفد مصر إلى اجتماعات منظمة الوحدة الافريقية .. وشتان الفارق بين الوضعين ..

وقد اجتمع السيد د. بطرس غالى مع الرئيس منجستو هيلا ماريام وبحضورى من التاسعة صباحا إلى الواحدة ظهرا حيث تم استعراض كافة أوجه العلاقات المصرية الأثيوبية ومشاكل القرن الافريقى وعلاقات أثيوبيا بالسودان ودور مصر فى إصلاح ذات البين ما بين أثيوبيا وجيرانها .. وكانت تلك المقابلة ودية وشديدة النفع وفاتحة للقاءات أخرى بين الرئيس مانجستو والوزير د. بطرس غالى ، وبين الأخير ووزير الخارجية جوشو وولدى وبين وزيرى الرى فى البلدين .

وبدأت اثيوبيا ترتاح تدريجيا الى جدية مصر وحقيقة اتجاهاتها الجديدة نحو دول المنطقة. وفى احتفالات السفارة المصرية بالعيد القومى يوم ٢٣ يوليو كان وزير الخارجية الاثيوبى سباقا الى تأكيد حضوره بدار السفارة والبقاء بها أطول مدة ممكنة بعد أن كان وزراء اثيوبيا لا يجرؤون على دخول سفارتنا .. كذلك بدأت أثيوبيا تحضر اجتماعات دول حوض النيل بصفة مراقب بعد أن كانت تقاطع مثل هذه الاجتماعات وتتهم مصر والسودان باهدار حقوق اثيوبيا فى مياه النيل..

ثم حاولت القاهرة إثبات جدية محاولاتها للوساطة والتوفيق بين اثيوبيا والصومال من ناحية وأثيوبيا والسودان من ناحية أخرى وقدمت وساطتها لقيام مباحثات صريحة بين أطراف النزاع .. واستمرت المباحثات بين أثيوبيا والسودان فى صعود ونزول، وتتقدم وتتعثر ثم تتوقف وهكذا .. وفقا للجو السائد فى ميادين القتال ومن بعدها فى الخرطوم وفى أديس أبابا.. ومازال هذا حالها الى نهاية ١٩٩٥.. ومازالت قوات الثوار فى جنوب السودان تعمل دون انقطاع فى عملياتها التخريبية..

أما فيما بين أديس أبابا ومقديشيو فقد تلقيت سنة.١٩٨٣ تعليمات القاهرة بالاتصال بالسلطات الاثيوبية ثم السفر إلى مقديشيو (١) لتقديم

---

(١) لم يعد هذا الموضوع سرا فقد عرف به جميع السفراء الأجانب فى مقديشيو بعد مدة وجيزة من زيارتى لها كما ورد شرح لمحاولات مصر للوساطة وزيارتى لمقديشيو فى كتاب مستر دافيد كورن Korn القائم بأعمال سفارة الولايات المتحدة فى أديس أبابا عن مهمته فى أثيوبيا وعن العلاقات الأثيوبية الأمريكية وتم نشر الكتاب فى بريطانيا ١٩٨٧ واسمه Croom Helm Beckenham, Kent England.

كل ما تستطيعه الدبلوماسية المصرية من اسهام فى عملية الوساطة وإزالة سوء الفهم والجفوة بين العاصمتين أديس أبابا ومقديشيو..

وقد وجدت المسئولين الاثيوبيين على استعداد للاستماع الى وجهات نظرنا بل والتمشى مع محاولاتنا لكن مع حرصهم على ابداء الشك فى امكان نجاح مساعى مصر فى مقديشيو وقالوا فى ذلك الصدد ان أحد رؤساء الصومال السابقين وهو شارماركى كان قد بدأ فى سنة ١٩٦٩ حوارا دبلوماسيا هادئا مع اثيوبيا من اجل التقارب السلمى بينهما وان ذلك كان سبب اغتياله وقيام الثورة العسكرية برياسة الرئيس سياد برى ومن ثم يستبعدون ان يلين موقفه خاصة وقد قام نظامه على ضرورة استعادة الاوجادين بالقوة..

على أى حال لم يروا بأسا فى محاولتى .. ومن ثم طرت إلى نيروبى ومنها الى مقديشيو حيث لم توجد خطوط طيران مباشرة بين العاصمتين المتخاصمتين اديس ابابا ومقديشيو فى ذلك الحين.

شرحت اهداف مهمتى لزميلى السفير المصرى فى مقديشيو الاستاذ سامى هيبة (سفير مصر فى باكستان بعد ذلك ثم مساعد وزير الخارجية) وكان قد تلقى من القاهرة تعليمات شبيهة لتعليماتى بشأن الوساطة. ولما كان الرئيس سياد برى خارج مقديشيو فقد حُدد لنا موعد لمقابلة السيد/ محمد على سمنتر وزير الدفاع ونائب الرئيس/ وحضر المقابلات نائب وزير الخارجية فى ذلك الحين.

عكفت أنا والسيد السفير سامى هيبة على اعداد مذكرة رسمية مكتوبة ضمناها خلاصة أفكار الدبلوماسية المصرية لمعالجة الموقف .. اساسها ضرورة نبذ العنف كوسيلة لحل النزاع بين الدولتين على مشاكل الحدود وذلك فى ضوء ما يقرره ميثاق منظمة الوحدة الافريقية صراحة من قدسية الحدود الحالية الموروثة فى زمن الاستقلال ووجوب عدم المساس بها، كذلك مايقره الميثاق من ضرورة حل جميع النزاعات بين الأشقاء فى افريقيا بالحوار والدبلوماسية الهادئة وقدمت المذكرة تصورا لما يمكن أن يأخذه طريق الحل الدبلوماسى بادئ ذى بدء من خطوات تمهيدية تشمل وجوب وقف الدعايات المعادية فى صحافة البلدين وعلى لسان زعمائها ، لمدة حددتها المذكرة، لاصلاح الجو العام، ثم امكان قيام مباحثات سرية استطلاعية وتمهيدية بين مندوبى الطرفين فى عاصمة محايدة ثالثة قد تكون القاهرة أو نيروبى أو غيرهما وفقا لاختيار الطرفين فاذا ما نجحت تلك المباحثات الاستطلاعية مبدئيا فى تصفية ما فى النفوس فقد تتبعها بعد فترة معينة محادثات سرية بين وزيرى خارجية البلدين فى عاصمة محايدة أيضا قد تكون فى أثناء إحدى دورات الأمم المتحدة فى نيويورك أو إحدى دورات منظمة الوحدة الافريقية فى أديس أبابا وهكذا..

ولن تبدأ مباحثات رسمية معلنة بين الطرفين إلا بعد التأكد من نجاح المباحثات التمهيدية السرية وقبول الطرفين لنتائجها الأولية ..

وقد ينتهى الأمر بتوقيع معاهدة صداقة وعدم اعتداء بين الطرفين تتويجا لجهود السلام ..

وقد وعدنى السيد سمنتر والسيد نائب وزير الخارجية الصومالى بدراسة هذه المذكرة ويرفعها الى الرئيس سياد برى وابلاغ القاهرة بنتيجة تلك الدراسة فى حينه .

عدت بعد ذلك إلى أديس أبابا لاواجه مع مضى الوقت نظرات الاثيوبيين المتسائلة أو ابتسامتهم ذات الدلالة .. والى حين مغادرتى لاثيوبيا نهائيا بعد حوالى السنة الكاملة لم تكن القاهرة ولا سفارتنا فى مقديشيو قد تلقت أى رد أو رد فعل من مقديشيو . إلا أنه بعد ذلك بسنوات طويلة تنفست الصعداء وارتاح فكرى وضميرى لسماعى لانباء بوادر تهدئة العلاقات قليلا قليلا وتدريجيا بين مقديشيو وأديس أبابا بعد قيام محادثات استطلاعية بينهما .. كان من نتيجتها تهدئة النفوس بعض الشئ .. وإعادة العلاقات الدبلوماسية بينهما إلى أن إنهار هذا الصرح مرة أخرى بتفكك أوصال الصومال ومحنتها الحالية .

كانت تجربتى فى أديس أبابا - إذن - على قصرها - غنية حافلة بالاحداث المهمة وإن لم امكث باديس أبابا سوى من أواخر عام ١٩٨٢ إلى مايو ١٩٨٤ وقد اضطررت لطلب مغادرتها لدواعى صحية .. فقد تاثرت صحتى من الارتفاع الشاهق وقلة الاوكسچين بالجو مما أدى إلى معاناتى من ارتفاع ضغط الدم وباصابتى بنوبات من دوار الرأس

المصحوبة بطنين فى الاذنين (١) وقد أدى ارتفاع الضغط ذات يوم إلى انفجار بعض الشعيرات الدموية فى إحدى عينى وقد عرضت نفسي على الاطباء المختصين فى أديس أبابا التابعين لمنظمة الأمم المتحدة بها، ثم على الاخصائيين فى القاهرة ثم فى المانيا وبرشلونة وقد أشار علىّ الاخيرون في برشلونة والمانيا بضرورة انتقالى إلى ارتفاع سطح البحر حيث لم يتمكنوا من ضبط ارتفاع ضغط الدم مع استمرارى فى ارتفاع جو أديس أبابا ..

وليس هذا حال جميع الأجانب والأغراب في أديس أبابا فقد كان كثير منهم ومن الزملاء والاصدقاء كانوا فى أحسن حال وكانوا يلعبون التنس وأنواع الرياضات الأخرى دون ارهاق أو تعب ، وذلك لأن تاثير الارتفاع على الإنسان يختلف من شخص لآخر . وقد سبقنى إلى أديس أبابا سفراء مصريون لم يتاثروا من جراء الارتفاع .. لكن خلفى فى أديس أبابا تاثر من الارتفاع أكثر من تاثرى إنابه واضطر لطلب النقل هو الآخر .

ورغم أن صحتي لم تتحمل جو أديس أبابا فقد قضينا بها وقتا من أهنأ أوقاتنا بالخارج فإن جو أديس أبابا لطيف منعش وشمسها ساطعة قوية، وسماؤها صافية إلاّ فى أيام الأمطار الموسمية ..

---

(١) لم تكن هذه المرة الأولى فقد كانت تجربتى الأولى بالعمل على هذا الارتفاع الشاهق فى بوجوتا كولومبيا وكنت قد اضطررت إلى طلب نقلى من بوجوتا لنفس السبب!

وكانت دار سكن السفير مريحة ومناسبة لغرض الاحتفالات الرسمية التي يجب على السفراء القيام بها كان طاقم الخدمة فى السفارة والمكاتب ممتازا حقا .. وكان افراد الجالية المصرية فى أديس أبابا من صفوة المصريين المثقفين ثقافة عالية إذ كانوا موظفين دوليين يعملون أما بمنظمة الوحدة الافريقية أو باللجنة الاقتصادية لأفريقيا التابعة للأمم المتحدة .. وكانت علاقتنا بهم جميعا متميزة وجمعت بيننا أواصر صداقة وتعاون متين فى شتى الميادين .. وكنا نقيم احتفالات وتجمعات خلوية في لانجانو Langano على ضفاف إحدى بحيرات أثيوبيا أو في حديقة دار المكاتب أو دار سكن السفير احيانا .. وكانت حديقة دار سكن السفير المصرى بأديس أبابا تتسع لاقامة حفلات غذاء لأكثر من مائة شخص على مناضد صغيرة وتتسع لاكثر من هذا كثيرا فى حفلات الاستقبال ..

لكن مبعث سعادتي الأكبر أثناء عملى فى أديس أبابا كان الاحساس بجدوى وبفائدة الدبلوماسية المصرية الجديدة تجاه أثيوبيا وبرؤية نتائج التقدم وتحسين العلاقات بين البلدين فى شتى الميادين رؤية العين يوما بعد يوم إلى أن انتهى الأمر بتبادل الزيارات الرسمية على أعلى مستوى ما بين الرئيسين .

لكن بقى مع ذلك أن تتخذ كل من الحكومات المعنية : السودانية والاثيوبية والصومالية الخطوات الجدية الحاسمة لتصفية جو علاقاتها بما يسمح بقلب صفحة جديدة ..

كذلك فإن العمل المثمر في اطار الدبلوماسية المتعددة الأطراف أي داخل منظمة الوحدة الافريقية واجتماعات اللجنة الاقتصادية لافريقيا كانت بمثابة عودتى للعمل بالأمم المتحدة من جديد إذ أن أديس أبابا لاتعدو أن تكون مدينة نيويورك الافريقية !!

أما الشعب الاثيوبى نفسه فهو شعب ذو حضارة قديمة وثقافة تليدة وتاريخية تقارب ثقافة قدماء المصريين ، ورغم بعض مظاهر الفقر البادية على بعض الأحياء في أديس أبابا وعلى رجل الشارع فى أديس أبابا إلا أن الاثيوبى يتمتع بمظهر الكرامة وعزة النفس ورفعة الرأس والهدوء والصفاء وتمالك الأعصاب وحسن المعشر وقد ذكرني ذلك بمقولة سمعتها أو قرأتها إن الاثيوبيين هم بريطانيو افريقيا » فهم أقرب الناس فى افريقيا شبها الى الانجليز فى هدوئهم وتمالكهم التام لاعصابهم ولأدبهم المفرط . إن الاثيوبى إذا ما قابل اثيوبيا صديقا له فى الطريق حيّاه بأدب بانحناءة شديدة ويضم اليدين فى مقدمة الجسم .. لاتوجد مصافحة يدوية أو تقبيل الخدين مثلما يحدث فى بقية افريقيا مثلا ..

ورغم أن النظام الماركسى لا يشجع الاديان ولا التدين فقد كان الاثيوبيون الاقباط المارون أمام الكناس فى أديس أبابا ينحنون أمام أبوابها حتى اليوم .. ويؤدون علامة الصليب التقليدية .. فهو شعب تقليدى شديد المحافظة على التقاليد الموروثة .. وشديد التدين !

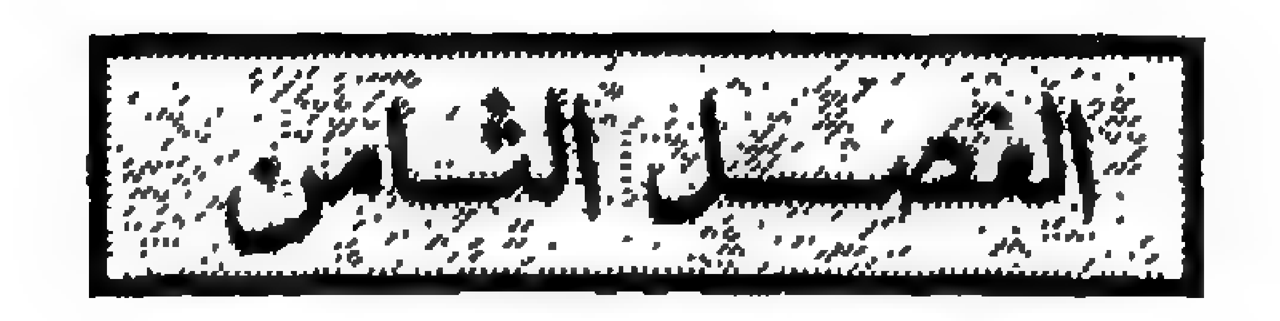
زد على ذلك أن الاثيوبيين رغم لون بشرتهم الداكنة Cafeau lait

فإنهم يتميزون بتقاطيع الوجه الدقيقة السوية ولا غرو فهم من سلالة الجنس السامى (الملك سليمان وملكة سبأ) وهم فى هذا يشابهون الصوماليين خصومهم التقليديين ، وكلاهما لاينتمى إلى الجنس الزنجى ويتميز بالتقاطيع الدقيقة الجميلة التى تنتمى إلى آسيا أكثر منها إلى أفريقيا .

ومن سخرية الاقدار إذن أن يكون أولاد العمومة الصوماليون والاثيوبيون والاريتريون فى خصام مستمر .

لكنى أرى أنه متى سكت حديث المدافع فإن الدبلوماسية لن تعدم الوسيلة لايجاد واحد من الكثير من الحلول الممكنة لازالة رواسب الماضى لكن الدبلوماسية المصرية خاصة مطالبة ببذل كل جهودها ومحاولة كافة السبل من أجل وقف نزيف الحروب بين الاشقاء وأولاد العمومة فى وادى النيل وهى المنطقة شديدة الحيوية لأمن مصر والسودان وأثيوبيا .

لقد صدق من قال أن النيل نجاشى (أى حبشى) ومصر هبة النيل ومن ثم ولابد لها من أن تكون على أوثق العلاقات وأطيبها مع دول حوض النيل .. وأولها السودان وأثيوبيا .



« جزر فيجى FIJI وما حولها » !!
« جولة فى المحيط الهادى »

في أكتوبر ١٩٨٤ تم تعييني سفيرا لمصر فى استراليا .. وقد جرت عادة الحكومة المصرية على اختيار سفير مصر فى استراليا ليقوم الى جانب عمله بتمثيل مصر كسفير غير مقيم فى سوفا Suva عاصمة دولة فيجي .. والأخيرة مجموعة جزر على خط عرض ٢٠ جنوبا (مثل اسوان) وعددها أكثر من ثلاثمائة وخمسين جزيرة متقاربة تسيطر عليها جزيرتان كبيرتان Vitilevu Vanua levuوتقع العاصمة فى وسط أكبرها ويقع هذا الارخبيل شرقى سيدني استراليا بقرابة ثلاثة الاف كيلومتر تقطعها الطائرات العملاقة فى ثلاث ساعات ونصف الساعة.
ومطار فيجي الدولي يقع فى مدينة ناندى الصغيرة Nandi فى غرب الجزيرة الكبرى وهى منطقة تتميز بانبساط أرضها وبعدها عن الجبال المرتفعة التى تقسم الجزيرة السهلة المنبسطة حول ناندى وتفصل تماما بين منطقتين مناخيتين متباينتين فالمنطقة السهلة المنبسطة حول ناندى شمسها ساطعة أغلب الوقت أما منطقة العاصمة سوفا وسط الجبال

فمطرها غزير كثير الهطول ومن هنا فقد تركزت الحركة السياحية حول ناندى وحول المطار الدولى .

وتعداد جزر فيجى يقارب النصف المليون نسمة وأصل سكانها من الأجناس البولينيزية والميلنيزية أى سكان المحيط الهادى وجنوب شرقى أسيا .. وهم يميلون الى طول القامة ولونهم أسمر Café aulait وشعرهم خشن لكن تقاطيعهم غير زنجية .. لكن مع وصول الاستعمار البريطانى إلى فيجى وفدت معه افواج المهاجرين من الهند – من طوائف الهندوس والمسلمين والسيخ .. وتزيدات اعدادهم حتى كادت تغلب أو غلبت على اعداد السكان الفيجيين الاصليين . وكما هو الحال دائما تمكن الهنود من الاستيلاء على التجارة المحلية والدولية لفيجى (فيجى من أكبر مصدرى السكر وقصب السكر) إلا أن الطوائف الهندية المسلمة والهندوكية لم تختلط مع سكان فيجى الاصليين .. ربما لم يحاولوا وربما لم يسمح لهم الاصليون بذلك فعاشوا متفرقين .

ويلى هذا النشاط التجارى ازدهار حركة السياحة الدولية إلى فيجى (وبخاصة من استراليا ونيوزيلانده أقرب دولتين كبيرتين) فجوها حار لكن نسيم المحيط الهادى يلطف من الشعور بالحرارة ومناظر فيجى خلابة رائعة .. سلسلة من الجزر التى تتوسطها الجبال الخضراء (الغابات المدارية الخضراء الكثيفة) والتى تنعم بسلسلة لاتنقطع من الشواطئ الرملية البيضاء الناعمة وتصل اشجار جوز الهند الى حافة

الشاطئ .. تماما مثلما رأينا فى الأفلام .. ولما كانت هذه الجزر نتيجة تفجر البراكين وسط مياه المحيط الهادى فتحيط بالجزر عادة سلسلة من الصخور المرجانية وتحميها مغمورة تحت سطح المياه الفيروزية الضحلة مكونة بذلك بحيرات ضحلة مقفولة أو شبه مقفولة Lagoons تحيط بها الصخور المرجانية وتحميهامن سمك القرش الذى يخاف أن يغشى هذه الصخور المرجانية الضحلة خشية اصابته بالقطوع والجروح منها .. وهكذا نشطت حركة السياحة الدولية إلى فيجى وشواطئها وقامت استثمارات ضخمة بأموال خارجية وانشئت الفنادق والقرى السياحية الضخمة لا لخدمة أهل فيجى ولكن لخدمة السائحين الاستراليين، والنيوزيلانديين وامثالهم إلا أن أهل فيجى يعملون فى خدمة هذه المؤسسات السياحية التى فتحت أبواب الرزق لآلاف من أبناء فيجى .

وتربط مصر بفيجى عوامل سياسية حديثة العهد منذ اشتراك فيجى بكتيبة فى قوات الطوارئ الدولية في سيناء . ومازالت فى سيناء تخدم نفس الغرض . كما أن سكان فيجى من الهنود المسلمين يتطلعون لمصر والسعودية طبعا باعتبارهما مركزين مهمين للاشعاع الإسلامى (١) وقد أكرمت هذه الجاليات الإسلامية وفادتنا واحاطتنا بمظاهر التكريم .

وعند وصولنا الى فيجى لتقديم أوراق اعتمادى إلى الحاكم العام

---

(١) هناك مدرسان مصريان موفدان من الأزهر لتعليم العربية والثقافة الإسلامية وهما يتكلمان الانجليزية طبعا ومتزوجان من سيدتين مصريتين ويعيشان وسط الجالية الهندية المسلمة عيشة كريمة محترمة...

لفيجى كانت حينئذ عضوا بالكومونولث وكانت الملكة اليزابث هى التي تعين حاكما عاما على فيجى من أهلها - أما الآن فقد انفصلت فيجى عن الكومونولث واختارت النظام الجمهورى .

عند وصولنا إلى فيجى كان علينا أن نختار ما بين ركوب طائرة صغيرة محلية من مطار ناندى الدولى إلى مطار سوفا المحلى أو قطع الطريق بين المدينتين بسيارة أجرة والمسافة بينهما مائة وعشرون كيلومترا تقريبا ..

وقد قررنا الذهاب بالطائرة والعودة بالسيارة لرؤية معالم الجزيرة ..

وكانت الطائرة صغيرة لا تتسع إلا لعشرة أشخاص .. وكان الطيار يجلس بين الركاب أى أن الصفوف الامامية من الركاب كانت تجلس وراءه مباشرة وتراقب كل حركة من حركاته إذ لم يكن هناك أى فاصل بينه وبيننا .. ومثل هذا النوع من الطائرات لا يرتفع عن الأرض كثيرا ومن ثم اتاح لنا مشاهدة معالم الجزيرة جيدا طرقها وقراها وجبالها وغاباتها وشواطئها .. لكن بدأت الطائرة فى الاهتزاز الشديد عندما شارفت على سلسلة الجبال التى تفصل ما بين المنطقتين الجافة والممطرة.. ثم اختفت الشمس الساطعة تماما وصرنا نطير وسط السحب الكثيفة .. الممطرة .. وتركنا ناندى تحت الشمس الساطعة لنصل سوفا والمطر ينهمر مدرارا .. وكانت ادارة المراسم فى انتظارنا فاقلتنا إلى الفندق فى سيارة رسمية .

أما سوفا Suva فتعدادها سبعون ألفا فقط لكنها مدينة صغيرة منظمة ونظيفة مبنية على كثير من التلال الخضراء التى تطل على البحر هى الأخرى .. وبها كثير من المتاجر الصغيرة التى يديرها الهنود لكن بها متجراً واحداً كبيراً تديره احدى الشركات الأجنبية لكن العاملين به أغلبهم من الهنود ..

وليس بها من ابنية فخمة إلا مبنى رئاسة الحكومة وقصر الحاكم العام الذى كان قد بني أصلا زمن الاستعمار البريطانى لسكن الحاكم العام البريطانى أما الآن فيسكنه خليفته الفيجى ..

كانت إدارة المراســــم قد ذكرت لى أن مراسم تقديم أوراق اعتمادى تقتضى أن يرتدى السفير حلة البونجور Bonjour أى Morning Coat وهى عبارة عن بنطلون صوف أسود به أقلام - رمادية - بيضاء ، وجاكتة صوف طويلة ذات ذيل يصل إلى ما قبل الركبتين وصديرى أسود صوف (ورباط عنق) رمادى اللون ..

أما إذا ما شاء السفير وسمحت تقاليد بلاده فيستطيع السفير ارتداء الزى الوطنى فى بلده الذى جرت العادة على ارتدائه فى مثل هذه المناسبات الرسمية ولما كان الطقس شديد الحرارة فى فيجى بل وشديد الرطوبة فقد فضلت ارتداء حلة صيفية داكنة اللون وذكرت أن مراسم بلادنا لا تستعمل البونجور Bonjour أو ما يشابهها وأن رئيس جمهوريتنا يستقبل السفراء فى الصيف بالحلة الصيفية الداكنة .. وقد كان ..

أما الحاكم العام نفسه فكان عملاقا تفوق قامته الستة أقدام بكثير ربع القامة قوى الجسم .. فى الخامسة والستين من عمره .. نو شعر خشن قصير وخطه الشيب وعليه سيمات الوقار .. لكنه كان يرتدى الزى الرسمى الفيجى لهذه المناسبات : جاكتة بونجور بالصديرى والرباط للعنق مثلما اسلفت ، لكن بدلا من البنطلون كان يرتدى جونلة Jupe صوف سمراء إذ أن زى أهل فيجى الرسمى لا يقر البنطلونات حتى للرجال وإنما جونلات مختلفة الألوان : وقد تذكرت أننا فى وسط المحيط الهادى .. وإن رجال جزر المحيط الهادى ومنهم أهل تاهيتى التى طالما شهدتاها فى السينما يرتدون هم أيضا الجونلات !! وكان يرتدى صندلا (نصف مفتوح) فوق الجوارب ..

وقد قدم الينا الشاى فى قصر الحاكم العام، على الطريقة الانجليزية مع سندويتشات مفتوحة بالخيار Open Cucumber Sand-wiches على عادة الانجليز ثم Scones بالمربى .. وكانت سكرتيرته الانجليزية تشاطرنا حفل الشاى بمناسبة وجود زوجتى .. إذ أن الحاكم العام أرمل .

كذلك أقام لنا وكيل وزارة الخارجية الدائم حفل غداء رسمى على شرفى فى قصر الضيافة وهو مجرد Bungalow (أى فيلا صيفية) نظيفة وسط الحدائق ودعا إليه بعض كبار موظفى الدولة ومنهم قائد الجيش وذلك بمناسبة وجود كتيبة فيجية فى سيناء .

وقد ساد جميع هذه المقابلات جو من الصداقة والود والشعور الطيب المتبادل فأهل فيجى قوم طيبون وعاطفيون ..

كان فندقنا فى سوفا مريحا وبنى على الطراز الحديث لكنه لم يكن فى نفس مستوى الفخامة والضخامة التى تميز فنادق المنطقة السياحية حول ناندى أو فى الطريق إليها كما أن فيجى لم يدخلها التليفزيون بعد ! ومن هنا فلا توجد وسائل التسلية المعتادة للأجانب .

وفى طريق العودة اخترنا الطريق البرى .. ونصحنا أصدقاؤنا فى سوفا بعدم استئجار سيارة أجرة لنا خصيصا بل بركوب الحافلة أى الاتوبيس العام من سوفا إلى ناندى وذلك لدراسة أحوال وأخلاق أهل فيجى !! وقد اتبعنا النصيحة ولم نندم على ذلك رغم أن الاتوبيس كان قديما وغير مكيف الهواء .. فإن جمهور المسافرين كان يمثل قطاعا واسعا لأهل فيجى وأمكننا التعرف على الكثير من أحواله .. وكان معنا عمال وفلاحون ومزارعون يحملون ادواتهم وأغراضهم الخاصة المعتادة .

إلا أن التجربة الفريدة حقا التى أتاحها لنا ذلك الاتوبيس كانت التالية .. فقد ركب معنا جندى شرطة (بوليس) ومعه شاب فى منتصف العمر يرتدى قميصا وبنطلونا .. لكن الغريب فى الأمر أن الشرطى قد

ربط نفسه بالشاب بقيود حديدية من التى نراها فى أيدى المقبوض عليهم ! وظلت هذه القيود تربط بينهما طوال الطريق من سوفا إلى ناندى وقد استغرق الطريق حوالي ساعتين ونصف إذ أن الحافلة كانت تتوقف فى القرى لانزال أو ركوب بعض الركاب ، ثم فى بعض الفنادق والمراكز السياحية على الطريق ..

وقد أبدى بعض الركاب نوعا من العطف على الشاب الفيجى المقبوض عليه فقدموا له بعض الشطائر (سندويتشات) أما نحن فلم يكن معنا شئ مناسب للمقام فانتهزت فرصة توقفنا فى أحد الفنادق لكى اشترى علبة سجائر قدمتها هدية إلى ذلك الشاب ففرح بها وشكرنا كثيرا بالكلمتين الانجليزتين اللتين كان يعرفهما .. لكن كان سلوك الجميع مثاليا .. حتى ذلك المقبوض عليه . مما دل على حسن معشر أهل فيجى وحسن نظامهم ..

ولم يكن معنا أى أجانب سوانا .. لكنا رأينا الكثير منهم فى المراكز السياحية التى توقفت بها الحافلة .. وقد سررنا إذ اخترنا الطريق البرى الذى اتاح لنا رؤية بعض تلك المراكز السياحية فى الطريق وكلها كانت جميلة حقا ومزدحمة جدا بالسائحين ..

إلا أن أفضل كل تلك المراكز قاطبة هو فندق Regency القريب من نـــاندى حيث اقمنا ثلاث ليـــال مـــازلنا نذكرها بشغف .. وهو

فندق مناسب تماما للذين ينشدون الهدوء والسكينة أما الفنادق الأخرى التي قابلناها في الطريق فكان يؤمها كثير من الشباب فيما يبدو .. وقد رأينا فيها أنشطة رياضية واجتماعية كثيرة .. وهي على كل حال أرخص سعرا من فندق ريجنسي الذي يعتبر أفضل فنادق فيجي قاطبة .. ومع هذا فهناك حول مطار ناندي عدد محترم من الفنادق الجيدة الأخرى إذ أن مطار ناندي من المطارات المهمة في المنطقة من حيث حركة الترانزيت ما بين استراليا وهونولولو وسان فرنسيسكو وعدد آخر من جزر المحيط الهادي .

مما استلفت نظرنا في سوفا وناندي وجود عدد كبير من الكنائس والمساجد ومعابد الهندوس .. فهذه الطوائف التي تكون المجتمع في فيجي تعيش جنبا إلى جنب منذ زمن بعيد وطالما عاشت في وئام وسلام منذ بدء هجرة الهنود إلى فيجي أي منذ أكثر من مائة عام .. إلا أن دخول السياسة فيما بين هذه الطوائف أخيرا قد أفسد ذلك الجو بعض الشئ منذ خمس سنوات أي حوالي ١٩٨٧ - ١٩٨٨ .

فقد سبقت الاشارة إلى أن طائفة الهنود في فيجي احتكرت التجارة بها .. أما طائفة أهل البلد الأصليين أي المالينيزيين والبولنيزيين فقد احتكرت العمل السياسي والسلطة ، وعاشت الطائفتان في ضوء هذا

التفاهم وتوزيع الادوار جنبا إلى جنب فى وئام وسلام . إلا أن طائفة الهنود أحست أخيرا بتفوقها العددي وبحرمانها من السلطة السياسية فقررت دخـــول ميدان السياسة الداخلية .. ولم لا ؟ ألم تكتسب الجنسية الفيجية وأصبح لهـــا جميع الحقـــوق والواجبات للمواطنين الفيجيين ؟! وفى أحد الانتخابات العامة التى جرت فى فيجى سنة ١٩٨٧ نال الحزب الجديد حزب العمال الذى يسيطر عليه الهنود الاغلبية البرلمانية لأول مرة وبهذا نال حق اختيار رئيس هندى للوزارة لأول مرة أيضا !! وشكلت فعلا وزارة تسيطر عليها الطائفة الهندية الأصل .

فزع أهل فيجى الأصليون لهذا الانقلاب الدستورى والقانونى ، ورغم دستورية وقانونيته فإنه كان كفيلا بقلب موازين القوى ما بين سكان فيجى لأول مرة تلك الموازين التى استمرت اجيالاً قديمة واعتادها السكان الاصليون ..

ولما كان جيش فيجى مكونا – تقليديا – من السكان الأصليين وحدهم ويقوده ضباط من نفس فئة السكان الأصليين فقد قام الجيش بانقلاب عسكرى ضد الحكومة الجديدة التى سـيطرت عليها الطـائفة الهنـدية وفرض حكومة «وطنية عسكرية من السكان الأصليين» !!

ولم ترض حكومات الكومونولث وعلى رأسها بريطانيا واستراليا بهذا الانقلاب غير الدستورى وهددت بفرض عقوبات اقتصادية على

فيجى التى تنال فعلا مساعدات ومعونات جسيمة من أهم دول الكومونولث .. لكن رد فعل حكومة الجيش كان إعلان انسحاب فيجى من الكومونولث وإعلان الجمهورية بفيجى .

وبعد مدة قصيرة - عدة أشهر - تم الاتفاق بين قادة الانقلاب والحاكم العام السابق بفيجى (تحت نظام الكومونولث) تم الاتفاق معه على تولية رئاسة الجمهورية الجديدة فهو شخصية معروفة ومحترمة عالميا وموضع ثقة الحكومات الأجنبية ..

وهكذا فرض الجيش الأمر الواقع .. وأعلن بهذه الطريقة عن عدم رضائه حاليا أو مستقبلا عن انتقال زمام السلطة السياسية فى البلاد من أيدى أصحابها الأصليين .. مع استمرار سماحه للفيجيين من أصل «هندى» باستمرار عملهم بميدان التجارة ..

ولا شك أن الكومونولث واستراليا وغيرها سوف تعود أو قد عادت كلها تدريجيا إلى الاعتراف بالأمر الواقع الجديد وبجمهورية فيجى واستئناف المساعدات لها حتى لا تقع فريسة تيارات متطرفة أخرى ..

ثم عاد الهدوء إلى جنة المحيط الباسيفكى !



عندما حان موعد مغادرتى النهائية لاستراليا فى أكتوبر ١٩٨٦ عدنا إلى فيجى لوداع الحاكم العام ووزير خارجيتها وزعماء الجاليات

الاسلامية بها .. وانتهزنا الفرصة - آخر فرصة - للتوقف فى طريق الذهاب والاياب فى بعض البلدان المحيطة بفيجي خاصة وأنه من الطبيعى أن يتوقع المرء أن تكون هذه آخر مرة نشاهد فيها تلك المنطقة التي تبعد عن مصر ٢٤ ساعة طيران متواصل !!

ومن هنا فقد زرنا الجزيرة الشمالية لنيوزيلانده (١) زرنا وولنجتون العاصمة ثم المدينة الثانية أوكلاند .. أما أوكلاند فهى تقع على أرض منبسطة شمال الجزيرة ولم نر فيها ما يثير العجب أو الدهشة .. مجرد مدينة متوسطة الحجم انجليزية الطابع .. انجلترا منذ خمسين سنة مثلا .. أما وولنجتون عاصمة نيوزيلانده فهي تقع على خط عرض ٤٠ جنوبا وعلى الشاطئ الجبلي ومناظرها الطبيعية ساحرة حقا .. الجبل الأشم المطل على الخليج .. المنازل والأحياء العالية المعلقة فوق الجبل وبعض الأحياء الأخرى التي تلامس الشاطئ مدينة بيضاء لامعة متوسطة الحجم لكن براقة لامعة ! والشواطئ حول وولنجتون كثيرة وجميلة بالمثل لكن مياهها مثلجة بالنسبة لنا نحن المصريين !! لكن نيوزيلاند، بصفة عامة «بلد كثير الريح وكثير البرد شتاء» فهي لا يفصلها عن القطب الجنوبى إلا قطعة من المحيط الهادى .. والمحيط المتجمد الجنوبى !!

---

(١) نيوزيلانده تتكون من جزيرتين كبيرتين جبليتين وتشتهر بنافورات المياه الساخنة التى تخرج من باطن الأرض Geysers .

أقصى أنحاء المعمورة .. وطابع نيوزيلاند، هو الانجليزى القديم .. انجلترا منذ خمسين عاما أو أكثر وهى فى نفس خضرة بريطانيا إذ تقع على نفس خطوط العرض كبريطانيا وشتان الفارق ما بين استراليا ونيوزيلانده .. فاستراليا تتطلع إلى أمريكا وبها صحارى مثلما فى الولايات المتحدة . أما نيوزيلانده فيربطها رباط قوى من وشائج العاطفة والحنين إلى الوطن الأم .. بريطانيا وهى شبيهة لها حتى جغرافيا ومناخيا .. فيما عدا نافورات المياه الساخنة الكثيرة المتفجرة من باطن الأرض فى نيوزيلانده !!

وعند زيارتنا لنيوزيلانده كان بها تمثيل دبلوماسى مصرى .. كان السفير الصديق الاستاذ محمود جمعه ومعه المستشار الاستاذ / يسرى القويضى (وأصبح سنة ٩٢ وزيراً مفوضاً فى طوكيو) أما الآن فقد قررت حكومتنا اغلاق تلك السفارة وإضافة تبعيتها إلى استراليا حيث سيكون سفيرنا فى استراليا سفيرا غير مقيم فى نيوزيلانده وقد يتساءل القارئ عن سبب فتح سفارتنا فى نيوزيلانده أصلا وسبب اغلاقها ثانيا ؟.

افتتحت مصر سلسلة من السفارات فى أمريكا الجنوبية وفى نيوزيلانده فى الفترة الحرجة التى كانت مصر تخوض فيها حربا ضارية فى الأمم المتحدة لاجلاء اسرائيل عن سيناء وللدفاع عن قضية

فلسطين .. وكانت مصر فى حاجة إلى كل صوت يمكنها كسبه من أصوات أعضاء الأمم المتحدة .. ومنها نيوزيلانده .

أما سبب قرار غلق سفارتنا في نيوزيلانده حاليا فلأن مصر اكتشفت أخيرا أن نيوزيلانده نفسها ليس لها سفير مقيم فى مصر وإنما يمثلها فى مصر سفير نيوزيلانده فى روما !!

لكن رجال الخارجية المصرية لديهم حجة أقوى لاستمرار تمثيلنا المقيم فى وولنجتون ! فإن السفارة المصرية بها كانت السفارة العربية الوحيدة فى نيوزيلانده .. وبهذه الصفة كانت جميع الدول العربية تعهد إلى السفارة المصرية بأعمالها القنصلية واعتماد شهادات المنشأ وما إلى ذلك .. وكان إيراد سفارة مصر فى وولنجتون من هذه الاعمال القنصلية سنويا ثلاثة عشر مليون دولار : يفوق أكثر من عشرين مرة مصاريف السفارة ويدر على وزارة الخارجية وعلى مصر ربحا حلالا .. أين هو الآن ؟.

بعد نيوزيلانده زرنا فيجى للمرة الأخيرة ثم طرنا إلى جزر هاواى(١) مجموعة جزر من جزر المجموعة البولينزية والمالينزينية تقع على خط عرض ٢٠ شمالا (مثل اسوان) وسكانها اشبه بأهل الفلبيين أو اندونيسيا .. لكنها مجموعة جزر امريكية خالصة : إذ أنها خضعت

---

(١) عاصمتها هونولولو .

لحكم الولايات المتحدة منذ ١٨٩٨ - ١٩٩٢ بعد طرد امريكا لاسبانيا من هاواى ومن كوبا والفليبين ..

ومجموعة جزر هاواى تتوسط المسافة بين فيجى وسان فرنسيسكو أى تقع على مسافة أربع ساعات بالطائرة من الشاطئ الامريكى الغربى . هى مجموعة جزر بركانية جبلية هى الأخرى .. خضراء شديدة لخضرة كثيرة الامطار .. شواطئها جميلة رملية ناعمة وتحف بها أشجار جوز الهند وما يشابهها .. بعض تلك الجزر مازال مجهولا لم تكتشفه أو تدنسه أقدام السائحين بما تجره وراءها من روح وصفة تجارية رخيصة ..

أما مدينة هونولولو فهى كعبة أغلب السائحين الأجانب إلى هونولولو بسبب شهرة شاطئ وايكيكى الذى حببته هوليوود إلى جمهور السائحين من الامريكيين إلى الأجانب ، ومن هنا فقد أصبحت وايكيكى قطعة من ولايات المتحدة .. وفقدت الكثير من طابع جزر المحيط الباسفيكى الأصلى رغم جمال الطبيعة .. الجبال الخضراء وأشجار جوز الهند والشواطئ الرملية الناعمة ..

أما العارفون ببواطن الأمور فلا يقصدون هونولولو وإنما غيرها من الاماكن المنعزلة فى نفس الجزيرة الكبرى أو فى غيرها من جزر المجموعة التى مازالت تحتفظ بطابعها الأصلى ويربطها ببعضها البعض خطوط طيران داخلية طيبة .

وعلى العموم فإن بمدينة هونولولو سلسلة لا تنتهى من فنادق هيلتون وشيراتون وكل مجموعة أمريكية أخرى ومع الأسف فإن الفنادق احتلت أغلب الشاطئ بحيث لا يراه ولا يستمتع به إلا نزلاء الفنادق ذاتها تماما مثل شاطئ ميامى فى فلوريدا .. إلى هذا الحد وصل الاستغلال التجارى .. ولم تتح لنا الفرصة لزيارة المدن الداخلية واكتفينا بهونولولو وشاطئ وايكيكى ..

والحق إننا لم نستمتع بإقامتنا فى هونولولو كثيراً فقد وجدناها أكثر «تجارية» مما كنا ننتظر وأكثر غلاء من الولايات المتحدة ذاتها ومن استراليا أيضا !! على العموم فقد زرنا هونولولو وشفينا منها ومن الرغبة والحنين الأعمى لرؤية شاطئ وايكيكى !!

ومما يجدر ذكره أننا اثناء طيراننا من فيجى إلى هونولولو عبر المحيط الباسفيكى ، اجتزنا خط التوقيت الدولى The Internat Ional Date Line وهو خط وهمى متفق عليه يقع على خط طول ١٨٠ درجة شرق فيجى وغرب هونولولو ويقسم العالم من ناحية التوقيت قسمين .. ومن يعبره من الشرق إلى الغرب يكسب يوما بأكمله يعبره من الغرب إلى الشرق يخسر يوما بأكمله .. لا أدرى لماذا ؟.

وقد اجتزنا هذا الخط مرتين ، مرة فى طريق ذهابنا إلى هونولولو ومرة أخرى فى طريق عودتنا من هونولولو إلى طوكيو

عاصمة اليـــابان .. وقـــد كـــانت هــــذه أول زيارة لنا إلى اليابان وإلى طوكيو .. ونظرا لأهمية اليـــابان المتزايدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ونظرا لوجودنا قربها فقد رأينا ضرورة الانتفاع من وجودنا بالمنطقة .

أول ما يقابل عينيك في اليابان وأنت تصلها بالطائرة هو مطار طوكيو الجديد في ناريــتا Narita وهـــي قرية على بعد ستين كيلو مترا من طوكيو .. ورغم اتساع الطريق فإنه شديد الازدحام وقد يستغرق قطع تلك المسافة ساعتين أو أكثر أحيانا .. ومن هنا فإن اليابان اقـــامت خط مترو - قطـــار ســـريع من طوكيو إلى مطار ناريتا لمن شاء ضمان عدم ضياع الطائرة منه ! ولكن الكثير من المسافرين يخصصون ثلاث ساعات لقطع هذه المسافة بالسيارة من باب الاحتياط .

ثم عند دخولك مدينة طوكيو لأول مرة قادما من ناريتا سوف يروعك عدد الطرق العلوية والكبارى (أمثال كوبرى ٦ أكتوبر) .. فهى فى طوكيو أكثر عددا بل وتعرجا أحيانا !! ثم ما يستوقف نظرك بعد ذلك هو كثرة الاعلانات الكهربائية على أغلب العمارات وأسطحها .. كثرة محيرة وكلها باللغة اليابانية طبعا ! وطوكيو مدينة ضخمة قوية ولا شك وبها بعض المبانى العالية والفخمة لكنها ليست من المدن الجميلة أو الأنيقة ..

وحالة المرور بها فى غاية الصعوبة رغم النظام الشديد واتباع الجميع لقواعد المرور ..

المنطقة التى اعجبتنا حقا فى طوكيو هى حى القصر الامبراطورى وبعض الضواحى الهادئة ذات الحدائق والشوارع الواسعة كذلك مما أثار اعجابنا حقا ذلك العدد الضخم من المتاجر الكبرى الانيقة فى طريق جينزا الشهير ووجود فتيات مرتديات الازياء الخاصة بالمضيفات والجوانتيات البيضاء للترحيب بالزوار إلى المحال الكبرى وارشادهم لكن أشك كثيرا فى أن عددا كبيرا منهن يتكلمن الانجليزية ! ومما آثار اعجابنا حقا أقسام لعب الأطفال فى تلك المتاجر الكبرى فاليابان حقا هى بلد لعب الأطفال .. والذى آثار انتباهنا هو إنك سوف تجد كل الألعاب تتحرك وتلعب باستمرار لكى تعلن عن نفسها عمليا - أى أن أصحاب المتاجر لا يكتفون بعرض اللعب - ساكنة - وإنما يقومون بتشغيلها باستمرار !! وأنى اشفق على الصغار وذويهم من هذا المنظر الذى لابد وأن يضطر الأهل لشراء ما يعلق به الطفل ..

كذلك استرعى انتباهنا وجود حى بأكمله به أكثر من خمسمائة متجر لبيع الأدوات الكهربائية فقط : تليفزيونات وراديوهات وأجهزة تسجيل وغسالات وثلاجات وخلافه .. لكن أسعارها فى هونج كونج أرخص منها فى اليابان .. لا أدرى لماذا ؟ نفس البضاعة اليابانية

تباع فى هونج كونج أرخص من اليابان ؟! سألت زملاء مصريين عن السبب فقيل لى أن نظام المبيعات فى اليابان ووجود أكثر من وسيط بل سلسلة من الوسطاء بين المصنع والمستهلك هو السبب ربما !

ويجب أن احذر القارئ العزيز من شدة غلاء طوكيو .. فهى أغلى من الولايات المتحدة ومن هونولولو ومن أوروبا كثيرا .. وأسعار الفنادق والمطاعم الجيدة لا يقدر عليها سوى الأغنياء .. ويبدو أن طبقة رجال الأعمال فى اليابان تكسب مكاسب باهظة وأن مستوى دخولهم يسمح بهذا القدر من الغلاء .. كذلك يشكو أخواننا المصريون فى طوكيو وكل رجال السلك الدبلوماسى بها من ارتفاع ايجارات المساكن الغربية الطابع ارتفاعا مخيفا ربما كانت ايجارات المساكن اليابانية معقولة لأنها متوافرة لكن المساكن الغربية الطابع قليلة والاقبال عليها أكبر من عددها ومن هنا ارتفع سعرها ارتفاعا جنونيا ..

أما طبق كوبى ستيك(١) (بوفتيك لحم كوبى الشهير) ففى المطاعم الجيدة فقد يصل ثمنه إلى ثمانين أو مائة دولار للفرد الواحد .

وراعنا ما شاهدناه من رخاء اليابان اليوم ومظاهر الرخاء فى كل ناحية يوجد مثلا جميع أنواع المطاعم : الفرنسية والايطالية والصينية

---

(١) يؤخذ من عجول تربى على مشروب البيرة والتدليل المستمر لتليين لحمها .

والهندية والاسبانية وهكذا كما يوجد أفخر أنواع الحلويات الفرنسية والخبز الفرنسى والكرواسان الخ ..

ومع ذلك فإنى وزوجتى قنعنا بزيارتنا لطوكيو لمدة ثلاثة أيام فقد عرفناها واكتفينا بذلك .. ولا نظن أننا نود العودة إلى اليابان أو العيش فيها فقد كان احساسنا فى شوارع طوكيو احساس الطفل الضال الذى يبحث عن أهله .. كل شئ باللغة اليابانية عناوين الشوارع والاتجاهات واللافتات على المحال وعلى الاتوبيس وكل شئ باليابانية وقليل من اليابانيين على مستوى رجل الشارع هو الذى يتحدث لغة أجنبية .. وأما سائقو التاكسى فقد نصحنا بأن تكتب عنوان فندقنا أو مقصدنا على ورقة باللغة اليابانية وأن نبرزها لسائق التاكسى لكى يفهم مقصدنا وينقلنا إليه .. والتعرف على أسماء الشوارع والمنازل صعب جدا حتى على سائقى التاكسى لأن المنازل لا تحمل أرقاما وبعض الشوارع لا تحمل اسماء ..

إلا أننا نذكر تجربة غنية مررنا بها عند زيارتنا إلى اليابان .والفضل فيها يرجع إلى الصديق السفير الاستاذ / سامى ثابت سفيرنا باليابان فى ذلك الحين وهو حاليا مدير المراسم بالجامعة العربية فقد نصحنا بالا نفوت زيارة إلى مدينة كيوتو Kyoto المقدسة وبها أهم معابد اليابان كما أنها عاصمة قديمة وتبعد كيوتو ثلاث ساعات بالقطار السريع . اشترينا تذاكر رحلة جماعية طبعا ..

فقد كان ذلك السبيل الوحيد لزيـــارة كيوتو أو غيرها بالنظر إلى جهلنا التام باللغة اليابانية .. وقد تضمنت الرحلة الجماعية نقلنا فى تاكسيات من الفندق الذى كما نقيم فيه إلى محطة السكة الحديد بطوكيو ثم ركوب القطار الى كيوتو وجولة فى أهم المعابد كيوتو ومعالمها السياحية ثم العودة إلى طوكيو وإلى الفندق . وقيل لنا أن مرشدين يجيدون الانجليزية سوف يصحبوننا كل الطريق ..

وفعلا مر علينا مرشد يتكلم بعض الانجليزية وأخذنا بسيارة تاكسى مع بعض السائحين الآخرين إلي حطة القطار .. وهناك انضم إلينا عدد أخر من السائحين اليابانيين ..

وسلمنا المرشد تذكرتين محجوزتين بالقطار وعليها رقم العربة ورقم المقعدين ثم انسحب !! ولم نره ثانية إلا عند عودتنا إلى محطة قطار طوكيو من جديد .. لكنه أخبرنا أن مرشدا آخر سوف يكون فى انتظارنا على رصيف القطار فى كيوتو ! وهناك فعلا كان المرشد فى انتظارنا وأخذنا فى جولة لرؤية معالم كيوتو .. وكانت خيبة أملنا شديدة حقا لما اخبرنا أن المعبد الكبير الشهير الذى قدمنا خصيصا لزيارته مغلق بسبب الاصلاحات وأخذنا إلى معبد آخر .. كان بديلا طيبا لكنه لم يكن هدفنا الأصلى فقد وجدنا مثله فى طوكيو بعد ذلك .. وعند الغداء أخذونا إلى فندق للسائحين الاجانب وتناولنا فيه غداء سريعا غير شهى ثم أخذنا قطار العودة ..

والواقع أن مدينة كيوتو لم ترق إلى مستوى الآمال التى كنا عقدناها عليها فليس بها من طابع مدينة قديمة مقدسة كما كنا ننتظر وحرمنا من رؤية المعبد الشهير . لكن التجربة الفريدة التى أعجبتنا واتتنا بطريق الصدفة المحضة دون أن نتوقعها .. فقد كانت رحلة القطار نفسها هى أهم معالم رحلتنا إلى اليابان وإلى كيوتو .

فقد عشـــنا ثلاث ســاعات ذهابا وثلاثاً إيابا بين اليابانيين ! لم يكن معنا فى عربة القطار أى أجنبى بل كان جميع من حولنا من اليابانيين ..

رأينا حسن نظام اليابانيين وأدبهم الجم فى معاملاتهم وفى جلوسهم وصعودهم وهبوطهم .. ومعاملتهم لنا نحن الاجانب ..

ورأينا كيف يسافر اليابانيون وكيف يأكلون فى عربات القطار ..

تمر عليك فتيات أو فتية مرتدين ملابس خاصة نظيفة جدا وعلى رأسهم غطاء رأس مميز يدفعون عربات صغيرة نظيفة تجرى فى سكون على عجل وسط عربة القطار .. وينادون على سلعهم بما يشبه الغناء باللغة اليابانية بالطبع .. وهنا يقبل الركاب على استيقافهم وعلى شراء ما يحتاجونه .. فى علب من الكارتون نظيفة ومغلقة .. ويفتح الراكب الجالس أمامك وإلى جوارك علبته ويتناول ما بداخلها قطعة قطعة وإذا بها تشبه قطع الجاتوه الصغير المحمول على ورق جاتوه

أيضا .. وشكل قطع الجاتوه هذه مربع صغير أو مستطيل صغير ومتعدد الألوان .. لكن عرفنا فيما بعد أنها قطع من الاسماك أو من الفطائر المملحة التى تشبه الجاتوه .. وبعد ان يفرغ الراكب من محتويات الصندوق يغلقه بهدوء ويقوم إلى نهاية العربة حيث يضع الصندوق الخالى فى سلة خاصة للمهملات .. ويعود إلى مقعد ثم يمر فتى آخر يدفع عربة أخرى وينادى على سلعه بما يشبه الغناء أيضا .. فاذا به يبيع بعض المشروبات ، وهكذا ..

نظام رائع .. نظافة تامة .. هدوء وخلو من الضوضاء .. أدب جم فى كل المعاملات مثلما تبين لنا من حركاتهم طبعا اذ لم نفهم ما كانوا يقولون ..

أضف إلى تلك التجربة الفذة ما رأيناه وشاهدناه من نافذة القطار السريع والمسمى الرصاصة اذ كان ينساب بين الحقول فى سرعة لاتقل عن مائتى كيلو متر (١) فى المتوسط أو يزيد فى ثبات ودون اهتزاز أو ضوضاء أو ضجيج .. وقطع المسافة التى تصل إلى أربعمائة وخمسين كيلو مترا فى ثلاث ساعات ومر بنا على مزارع وحقول صغيرة منمقة ، وحدائق وعزب وقرى نظيفة، وكبار وطرق سريعة وأخرى بطيئة..

---

(١) أسرع ألقطارات فى العالم حاليا توجد فى فرنسا وتسمى TG.Vtrain Grande Vitesse وتصل سرعته فى المعدل إلى ثلاثمائة كيلو متر فى الساعة لكنه يستطيع فى بعض المسافات بلوغ سرعة أربعمائة كيلو متر.

ريف أخضر جميل متحضر ينبىء بالنعمة وبالاستقرار وبشدة الرخاء والنظام ..

★★★

من طوكيو طرنا إلى هونج كونج تلك المستعمرة البريطانية التى سوف تئول إلى الصين قبل نهاية هذا القرن سنة ١٩٩٧ كانت زيارتنا الثانية إليها فقد سبق لنا زيارتها من قبل لكن هونج كونج من الاماكن التي يود المرء العودة لزيارتها .. ان جمال الطبيعة فى هونج كونج شيء معروف ومسلم به .. فهى مكونة من جزئين : شبه جزيرة أو لسان ممتد فى البحر يخرج من جسم الصين الجنوبية وتسمى كاولون Kawlon ..

وأمامها جزيرة صغيرة هي هونج كونج يفصل بينهما قطعة من بحر الصين عرضها حوالى كيلو متر تقطعها السفن والمعديات وتحيط الجبال الشامخة بميناء كاولون بحيث يرى الناظر إلى كاولون من جزيرة هونج كونج يرى الجبال المحيطة وقد علتها احياء كاملة من المدينة المتلألئة الانوار ليلا .. كما يرى عشرات من ناطحات السحاب المطلة على الميناء سواء من طرف كاولون أو هونج كونج منظر فريد أجمل ربما من منظر مدينة نيويورك أو غيرها من المدن الأمريكية الساحلية بسبب ارتفاع الجبال المحيطة بالمدينة .

وبهونج كونج مظاهر الثراء الفاحش : ناطحات سحاب أنيقة

عمارات وفنادق فى منتهى الفخامة والاناقة وبعض فنادق هونج كونج تعتبر أفخم فنادق العالم قاطبة مثل فندق ماندارين وفندق Pennin-sula ونوادى بريطانية الطابع لكبار رجال الاعمال .. مطاعم تضارع أو تفوق مطاعم اوروبا وامريكا بعضها عائم على ذهبيات – كلها حافلة بكل مالذ وطاب من مأكولات العالم أجمع وبخاصة نتاج البحر .. وسيارات رولزرويس ومرسيدس بالمئات الا ان هونج كونج بها أيضا الكثير بل الكثير جدا من مظاهر الفقر المدقع وخاصة بسبب ازدحامها اخيرا بملايين المهاجرين من الصين الشيوعية فرارا من نظامها الشيوعى (تعداد هونج كونج ٥ ملايين) وبها احياء فقيرة لاينصح للغريب بدخولها بتاتا وتكون تلك الاحياء المكتظة ضحية وفريسة سيول الامطار الموسمية الجارفة كل سنة التي تشرد المئات المؤلفة من فقراء هونج كونج عندما تهطل الامطار الموسمية .. فهونج كونج تقع على خط ٢٠ شمالا (مثل أسوان أيضا) وهى مدينة جمعت المتناقضات الغنى الطائل والفقر المدقع ، الجمال والقبح ، الحدائق الغناء والقصور المنيفة إلى جانب الازدحام الشديد ورائحة الفقر والحاجة .

لكن هونج كونج هى إحدى جنات المشتروات الحديثة فى آسيا فهى ميناء حرة – ضرائبها تكاد لاتوجد .. وقد نهضت بها صناعات حديثة متقدمة وبخاصة فى الالكترونيات وبها كل ما تشتهى الانفس ، بأسعار لا تبارى .. حتى البضاعة اليابانية تجدها ارخص فى هونج كونج منها

فى اليابان وتجد جميع ألوان البضائع الصينية المعروفة ويمكنك أن تأكل أفضل واشهى الاطباق الصينية فى هونج كونج وليس فى الصين .. واشهى الفطائر والحلويات الفرنسية كذلك تجدها فى هونج كونج .

وكانت هونج كونج أول من ادخل فى غرف الفنادق الكبرى بها أجهزة تجفيف شعر السيدات Hair dryers والتليفزيونات والفيديو وخزائن صغيرة لحفظ النقود والاوراق والمستندات (١) ولكن كل هذا سيذهب إلى الصين الشيوعية بموجب اتفاق بريطانيا والصينيين بتسليم هونج كونج سنة ١٩٩٧ .

بانكوك (تايلاند) - سنغافورة - مانيلا (الفلبين)

فى طريق ذهابنا من القاهرة إلى سيدنى باستراليا تتوقف الطائرات عادة أما فى بانكوك عاصمة تايلاند أو فى سنغافورة أو فى مانيلا عاصمة الفلبين .. وقد رسمنا خططنا فى الذهاب والاياب بالاجازة أو تنفيذاً للنقل ، بحيث زرنا ثلاثتها .. بانكوك وسنغافورة ، ومانيلا ..

---

(١) فنادق استراليا ونيوزيلانده الراقية قد ادخلت مثل هذه الاشياء الجديدة فى غرفها هى الاخرى بالاضافة إلى أدوات صنع الشاى والقهوة فضلا عن أكياس القهوة والبن والسكر واللبن المجفف..

وقد أضافت فنادق نيوزيلانده إلى كل ما سبق أيضا قطع البسكويت المملح Sal-tines - Crackers وقطع الجبن النيوزيلاندى !!

وتلك وأيم الحق من محاسن السفر إلى استراليا فإنها بسبب بعدها تتيح لك فرصة التوقف والراحة واستكشاف هذه المدن الجميلة .

عاصمة تايلاند ، ومملكة سيام القديمة !! مدينة تعدادها أكثر من مليونى نسمة حافلة بالتاريخ وبالحاضر ، بالمعابد الذهبية الرائعة وبالانهار والقنوات حتى لقد لقبت ڤنيسيا (البندقية) الشرق ..

وأهلها أهل كرم وسماحة وبشاشة وطيبة .. مازالت دولة ملكية بل هى من أقدم الملكيات ولم يحتلها أجنبى سوي اليابان فترة الحرب العالمية الثانية .. وما زالت دولة بوذية متدينة بها مئات المعابد الذهبية الجميلة وتحفل باعداد هائلة من رجال الدين البوذيين بأزيائهم البرتقالية الفاتحة ، وبرءوسهم الحليقة تماما . (حليقة الشعر) ..

وهى ليست من المدن التى توحى بثراء الدولة ثراء واضحا لكن ليس بها مظاهر الفقر المدقع أيضا بل أنه بها الكثير من الشوارع والميادين الفسيحة ، وسلاسل المتاجر الفنية بألوان البضاعة الشرقية والغربية ، كما أن بها بعضا من أرقى وأغنى الفنادق مثال Orient Palace وعديد من المطاعم التى تمتاز بتقديم طيبات البحر (مثلها فى ذلك مثل هونج كونج وسنغافورة ، ومانيلا !!) .

وتبدى بانكوك جميع مظاهر المدينة السياحية الناجحة بدءاً بخط طيرانها المزود بأحدث الطائرات والمشهور بالخدمة الرائعة وبانتظام

المواعيد ولطف وأدب المضيفات ثم أنها أقامت مطارا جديدا حديثا يماثل مطارات أوروبا فخامة وحداثة ، ونظاما لسيارات الاجرة من المطار إلى المدينة والعكس يكفل راحة السائحين وأمنهم ويضمن عدم التلاعب في الاسعار كما أن الخدمة الفندقية رخيصة نسبيا ومتقدمة .. وتشتهر المدينة بصناعات محلية متخصصة ورخيصة نسبيا وجيدة أيضا .. وبوفرة الطعام وبرخص اثمانه نسبيا ..

لكن شهرتها في المنطقة كمدينة من مدن اللهو واللعب حتى أن بعض شركات السياحة اليابانية نظمت سياحات جماعية لرجال الاعمال اليابانيين (للرجال فقط) إلى بانكوك مدينة السحر والجمال .. فان فتيات تايلاند لهن شهرة خاصة في المنطقة لما يتميزن به من جمال ورقة .

كذلك تشتهر المدينة بعدة قصور ملكية مفتوحة للزوار .. إلى جانب مئات المعابد البوذية المذهبية الفخمة .. تتخصص كل منها في عرض تمثال أو اكثر لبوذا في أوضاع مختلفة ..

هي باختصار مدينة كبيرة مزدحمة بكل شيء .. وبها أيضا كل شيء .. خير وفير .. حتى الفقراء يأكلون اللحم المشوي والاسماك المشوية على قارعة الطريق في واحدة من مئات العربات الصغيرة أو الدكاكين الصغيرة المعدة لذلك .. لكن بها أيضا أربعة من المتاجر الكبرى الحديثة الفخمة والحافلة بكل شيء بعضها تايلاندي وبعضها

الآخر فروع لمتاجر يابانية .. وأسعارها رخيصة نسبيا .. أرخص كثيرا عن اليابان .. والملابس والمنسوجات أرخص من هونج كونج أو فى نفس أسعارها .. أما الادوات الكهربائية فيستحسن شراؤها من هونج كونج.

لكن بانكوك شديدة الحرارة وشديدة الرطوبة فهي على خط عرض ١٢ شمالا .. وقد اكتفينا بزيارتها مرتين فى طريق الذهاب والاياب .. لكن حولها شواطيء (بلاجات) جميلة وساحرة لمن يملك الوقت الكافى والمزاج الملائم ..

أما سنغافورة:

فقد زرناها أيضا مرتين .. وهى جزيرة صغيرة جدا تقع أمام الطرف الجنوبى لشبه جزيرة الملايو ، أى انها تقع على خط الاستواء تماما .. ومع ذلك بسبب كونها جزيرة تتلقى نسمات البحر التي تخفف قليلا من الحرارة .. ويربطها بشبه جزيرة الملايو جسر برى بنى حديثا يصلح للسيارات والقطارات ..

وكانت مستعمرة بريطانية إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية عندما استقلت هى ومالازيا ثم قررت مالايزيا الانفصال عن سنغافورة وسلكت طريقا منفصلاً .. فإن تكوين سنغافورة من حيث أهلها وطبيعتهم يختلف بعض الشيء عن أصل أهل مالازيا الذين يغلب عليهم العنصر

الاسلامى المحافظ .. فى حين ان أهل سنغافورة يغلب عليهم العنصر الصيني والتقاليد الصينية والقدرة على تنظيم الاعمال حتى وأن كان بين سكانها بعض المسلمين والهنود ..

ومن حسن حظ سنغافورة أن يتولى مستر لى كوان يو رئاسة وزارتها (١) منذ زمن طويل وهو من أصل صينى .. فهو الرجل القوى في سنغافورة .. هو الاب الروحى والموجه والمسير الحقيقى لها ..! هو صاحب الفضل فى نهضتها الصناعية والعمرانية والاقتصادية الهائلة.. وهو الذى يضرب المثل لبقية شعبه فى الجدية والالتزام وكثرة العمل .

الواقع إن السائح يدهش عند زيارته لسنغافورة لاول مرة .. إنها نيويورك أخرى .. نيويورك الشرق الاقصى بل أنظف من نيويورك.. ناطحات السحاب .. وعمارات ضخمة شوارع فسيحة منظمة وشديدة النظافة ، الزهور فى كل مكان.. على نواصى الشوارع .. فى الحدائق العامة .. فى وسط الطريق ..

متاجر صغيرة وكبيرة حافلة بكل ما يشتهي المرء أو السائح أو الزائر .. من صناعة سنغافورة ذاتها أو مستوردة من شتى أنحاء العالم حيث أن سنغافورة تمارس فى تجارتها الاقتصاد الرأسمالى

(١) ظل لى كوان يو رئيسا للوزارة فى سنغافورة إلى نوفمبر ١٩٩٠ حين تخلى طواعية عن منصبه لأحد مساعديه لكنه مازال عضوا بالوزارة .

المفتوح وفى ادارتها الداخلية – نظاما اجتماعياكريماً Social Wel-fare

أما عن فنادقها فحدث عنها ولا حرج .. عشرات الفنادق الكبرى التى تضارع افخم وارقى فنادق العالم .. يديرها صينيون من أهل سنغافورة المشهورين بالجد والنظام وكثرة العمل.. والابتسامة اللائقة عند استقبال السائح الأجنبى .. ولاترى متسكعين أو شحاذين فى شوارع سنغافورة .. اما مطار سنغافورة وأما خط طيران سنغافورة فقد بلغا مستوى دوليا راقيا للغاية .. وشركة طيران سنغافورة أصبحت على رأس شركات الطيران العالمية .. وشعب سنغافورة – واغلبه من الصينيين – مشهور بالاقبال على العمل والجدية والانتظام تراه يسير فى الطرقات على الارصفة ، بهمة ونشاط تماما مثل جماهير المارة فى الشارع الخامس فى نيويوك ، وبلغ حدا فائقا فى النظام والانتظام، فهم لايعبرون الشوارع الا فى الأماكن المخصصة للعبور، وسائقو السيارات يحترمون اشارات المرور وأماكن عبور المشاه .. وهكذا .

ولا يعيب سنغافورة إلاّ صغر حجمها فان السيارة تدور بك حولها كلها فى ساعتين على الأكثر .. لكن صغر حجمها وحجم شعبها ربما كان نعمة الطبيعة أهدتها لهذا الشعب .. فقد جعل التغلب على مشاكل الفقر والمرض التى واجهته ممكنا .. جعل التقدم السريع جدا متاحا ..

أكثر مما لو كانت البلد مثقلة بحمل ملايين وعشرات الملايين من السكان . وزيارة واحدة إلى سنغافورة تثبت لك أن مستوى معيشة أهلها (١) يفوق بكثير مثيله في الدول الاسيوية المحيطة فيما عدا اليابان طبعا .

هذا ويلقبون كوريا الجنوبية وتايوان وهونج كونج وسنغافورة والفلبين بانها النمور الخمسة الاسيوية وذلك لقفزتها الهائلة نحو التصنيع والتحديث والتصدير ولم ار جنوب كوريا ولا تايوان لكن زرت الثلاثة الباقية .. وتأكدت من طفرتها الهائلة نحو التقدم .

أما مانيلا :

عاصمة الفلبين فهى أبطأ النمور الخمسة لكنها بالنسبة لغيرها من أهل الغاب المستأنسين تعتبر نمرا على أى حال .. وزيارة واحدة إلى مانيلا تثبت للزائر مدى القفزة الهائلة ومدى المسافة التي قطعتها الفلبين منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وإلى الآن رغم متاعبها وعدم استقرارها السياسى .

فمانيلا مدينتان متلاصقتان : المدينة القديمة نائمة حالمة حول الحصن الاسباني القديم ويلاصقها بعض الاحياء القديمة .. وكانت

---

(١) متوسط دخل الفرد في سنغافورة بلغ ثلاثة آلاف دولار سنويا (مصر ٦٨٦ دولاراً سنويا) .

المدينة قد دمرت تماما اثناء الحرب العالمية الثانية .. لكن يزين المدينة القديمة وجود فندق «مانيلا» الفخم الاصيل الذى كان مقرا للجنرال ماكارثر محرر الفلبين والشرق الاقصى من الغزو اليابانى .. وما زال جو هذا الفندق يمثل جو الفنادق الفاخرة فى القرن التاسع عشر ومطلع العشرين ..

أما المدينة الحديثة فقد بنيت على مبعدة أربعة أو خمسة كيلو مترات من المدينة القديمة .. وشتان الفارق .. كلها ناطحات سحاب وأبنية حديثة فخمة وميادين وشوارع فسيحة .. وعدد من المتاجر الكبرى الغاصة بصناعات الفلبين المحلية المتطورة والمعتدلة الاسعار نسبيا .. من الملابس إلى الادوات الجلدية والتحف وأصداف البحر والمنسوجات والاحذية وغيره مما يتهافت السائحون الاجانب على شرائه لاعتدال الاسعار بالنسبة لبلادهم سواء أكانت اليابان أو أمريكا أو استراليا أو أوروبا .

كذلك مانيلا مجتمعان متناقضان .

فهناك احياء كاملة جميلة جدا وحديثة جدا محاطة باسوار أو اسلاك شائكة وبوابات يحرسها حرس مدججون بالسلاح .. مثل الحى الذى يقطنه أغلب الدبلوماسيين والسفارات وكبار القوم فى الفلبين .. لماذا؟ لانتشار رجال العصابات والسرقات المسلحة .

ثم هناك مجتمع الفقر والمرض والجهل فى الاكواخ المحيطة بالمدينة القديمة وبينها وبين المدينة الحديثة ..

فمانيلا بلد اللهو والمرح مثلها فى ذلك مثل بانكوك ولنفس الاسباب أيضا لكنها أيضا تعكس آثار استمرار الحرب الاهلية فى ادغال الفلبين الجنوبية (جزيرة مانديناو وغيرها) مابين قوات الجيش والثوار المسلمين والشيوعيين على حد سواء .. ولما كانت الحرب سجالا منذ عقدين من الزمان فقد انتشرت الأسلحة، ومن ثم السرقات المسلحة فى أنحاء الفلبين كما فى مانيلا ..

وأخيرا زاد على هذا الخلاف حول فرديناند ماركوس الدكتاتور السابق ، والسيدة اكينو رئيسة الجمهورية السابقة واتباعها، ومحاولات فريق من الجيش الاطاحة بها عدة مرات ..

الفلبين اذن فى رأيى مزيج غريب من الرغبة فى الاستمتاع بالحياة وملاذها ومتعها ، وبين الميل إلى استمرار العنف والمشاكسة والحروب الأهلية التي يشنها مسلمو الفلبين وشيوعيوها على حد سواء ضد «الانظمة الفاسدة» فى مانيلا ..

وعلى أى حال فقد زرناها واعجبنا بها ولا أظنني قادراً على زيارتها ثانية فهى بعيدة جدا عن كل شىء حتى عن آسيا فهى آخر محطة قبل استراليا ! ويفصلها عن سيدنى أربع ساعات من الطيران .. فقط!!

الفصـــل التاسع

استراليا أو نهاية المطاف

لما ألححت على وزارة الخارجية بطلب نقلي من أديس ابابا بسبب تدهور حالتي الصحية نقلتني الوزارة إلى ديوان عام وزارة الخارجية في مايو ١٩٨٤ انتظـارا لمـا يجد .. وبعـد شـهور من الانتظار والترقب تولى وزارة الخارجية د. عصمت عبد المجيد زميلي وصديقي القـديم ورئيسي في وفـد مصر الدائم لدى الامم المتحدة في نيويورك .. وفي أول حركة دبلوماسية للسفراء بعد تولية الوزارة عينت سفيرا لمصر في استراليا وفيجي Figi (١) ووصلت استراليا في نوفمبر ١٩٨٤ .

والسفر إلى استراليا يقتضي ركوب الطائرات النفاثة العملاقة من القاهرة ولمدة اكثر من ثماني عشرة أو عشرين ساعة متصلة مع الهبوط في الطريق في واحدة من مدن الخليج العربي ثم بانكوك عاصمة تايلاند

(١) دولة فيجي كما سبق القول مجموعة جزر في المحيط الهادى شرقي استراليا وهي عضو الأمم المتحدة وكانت عضوا في الكومنولث.

أو سنغافورة ثم سيدنى اكبر مدن استراليا . ومن سيدنى طائرة أخرى أقل حجما إلى كانبرا Canberra عاصمة استراليا .

واستراليا هي سادسة القارات فى العالم وأصغرها وآخر القارات التي اكتشفت في أواخر القرن ١٨ (١) لكنها أيضا «دولة استراليا» وبمعنى آخر فانها الدولة الوحيدة التى تحتل قارة كاملة، أو القارة الوحيدة التى يقتصر شاغلها على دولة واحدة !! تقع استراليا فى أقصى الجنوب الشرقى لقارة آسيا فى المحيط الهادى جنوب الفلبين واندونيسيا ويفصلها عنهما رقعة من المحيط قد تصل إلى ألفى كيلو متر تقطعها الطائرات فى ساعتين أو ثلاث ولا يقع أى جزء من العالم جنوب استراليا سوى نيوزيلانده التى يفصلها عن استراليا أيضا ألفا كيلو متر .. فاستراليا ونيوزيلانده هما فى الواقع أقصى جنوب العالم أجمع ولهذا أطلق عليهما كلمة بالانجليزية ومعناها «الكتلة المقابلة» لشمال العالم The Antipodes كتلة الجنوب ولا يقع بينهما وبين القطب الجنوبى سوى المحيط المتجمد الجنوبى .. ولهذا تتلقى نيوزيلانده ريحا جنوبية باردة فى أغلب فصول العام .

ومساحة قارة استراليا تبلغ ستة أمثال بريطانيا وفرنسا مجتمعة

---

(١) القارات وفقا لحجمها هى آسيا وافريقيا واوروبا وامريكا الشمالية وامريكا الجنوبية ثم استراليا أصغر القارات .

أى ثلاثة ملايين ميل مربع !! وثلاثة أمثال حجم السودان أكبر دولة أفريقية ..

اكتشف كابتن كوك البريطانى استراليا ١٧٧٠ وأصبحت استراليا مستعمرة بريطانية يحكمها حاكم عام بريطانى وبدأت هجرة الانجليز والايرلنديين إليها تتوالى حتى قامت ست ولايات استرالية .. والإقليم السابع بها هو The Northern Territory وسيأتي ذكرها تفصيلا ..

وقد أباد المستعمر الأبيض غالبية سكان استراليا الأصليين ولم يبق منهم سوى مائة ألف تقريبا وكانوا شعبا شديد البدائية The Aborigines (١) .

ثم تحولت استراليا إلى واحدة ممتلكات التاج البريطانى British Dominion يحكمها حاكم بريطانى يعينه ملك بريطانيا ويمثل التاج البريطانى فيها .

أما حاليا فاستراليا دولة ملكية ترأسها الملكة اليزابيث كما أنها عضو الكومونولث وما زالت تدين بالولاء للملكة اليزابيث التى تعين شخصا استراليا حاكما عاما Governor general على استراليا

---

(١) تعنى الأصليين بالانجليزية Aborigines.

وممثلا لها فى غيابها - لمدة خمس سنوات بناء على توصية مجلس الوزراء الاسترالى ..

والواقع أنه فيما عدا هذه الصفة الرمزية للملكية ومن ينوب عن التاج فى غياب صاحبه - فإن استراليا دولة غربية ديمقراطية تسير على نهج حكومة وستمنستر فى بريطانيا من حيث الاساليب البرلمانية لكن نظامها به الكثير المستورد من أمريكا ..

ورئيس الوزراء الاسترالى هو الذى يمسك بالسلطة الفعلية باسم حزب الأغلبية المنتخب : الحزب الحاكم ، وهو حاليا سنة ١٩٩٥ حزب العمال الاشتراكي وكان عند وصولنا هو مستر بوب (روبرت) هوك (١).

وتبلغ المسافة من شمالها إلى أقصى جنوبها حوالى أربعة آلاف كيلو متر ومن شرقها إلى غربها أربعة آلاف وخمسمائة كيلو متر .. ومنذ أن يعلن الطيار وصول طائرتنا إلى المجال الجوى لاستراليا إلى حين وصول طائرتنا إلى مدينة سيدنى أكبر مدن استراليا تمر أربع ساعات كاملة . كما تمر خمس ساعات طيران كاملة للطيران من سيدنى فى شرق استراليا إلى مدينة ببرث Perth فى أقصى غربها !!

---

(١) حاليا بول كيتنج Keating . - لكن فى ١٩٩٦ خسر حزب العمال الانتخابات لأول مرة منذ عقد كامل من الزمان .

ولهذا كان من الطبيعي أن تجد جميع الأجواء والنباتات فى استراليا . ليس لمجرد أنها قارة وحسب ولكن لأنها قارة يقع طرفها الشمالى فى المناطق المدارية الحارة (مدينة داروين) والتى تكاد تقرب فى مناخها من المنطقة الاستوائية القريبة ، ويقع طرفها الجنوبى (مدينة ملبورن – وجزيرة تسمانيا) فى المنطقة الجنوبية المعتدلة (٤٠ْ – ٤٥ْ جنوبا) .. وبمعنى آخر فلو وضعت استراليا على الخريطة لأفريقيا وأوروبا لأمتدت من الخرطوم مثلا إلى لندن شمالا .. ومن هنا سوف تجد بها زراعات التفاح الاسترالي والكمثرى والشعير والشوفان والاعناب ثم فواكه المناطق الحارة كالأناناس والبابايا وفاكهة القشطة التى تنمو إلى حجم يماثل حجم البطيخ !! والبطيخ طبعا .

والمناطق الشرقية والجنوبية من قارة استراليا أكثر مطراً وأنهارا (١) ومياه من الوسط والغرب حيث تكثر مناطق الجفاف والصحارى ..

أما أقصى الشمال فتوجد غابات مدارية واستوائية وأنهارها مليئة بالتماسيح !!

وكان وجود الجبال والمرتفعات فى المناطق الشرقية والجنوبية مع اعتدال مناخها وقربه إلى مناخ انجلترا سببا فى تركز أفواج الهجرات

---

(١) أهم أنهار المناطق الشرقية والجنوبية نهرا Darling Murray .

الأولى فى هاتين المنطقتين فأطلق عليها اسماء «كوينزلاند» - وعاصمتها وأهم مدنها بريزبين Brisbane (مليون نسمة) و «نيوساوث ويلز» وعاصمتها وأهم مدن استراليا قاطبة هى سيدنى ٣,٥ ملايين نسمة وانشئت سنة ١٨٨٣ - و «فيكتوريا» وعاصمتها ملبورن Melborne التى أنشئت سنة ١٨٣٨ ثانية مدن استراليا ٣ ملايين نسمة .. ويليها ولاية (جزيرة تسمانيا) وعاصمتها هوبارت ثم انشئت جنوب استراليا وعاصمتها ادلايد (مليون نسمة) ثم غرب استراليا وعاصمتها Perth (٢٠٠ ألف نسمة) وشمال استراليا وعاصمتها داروين (٦٠ ألف نسمة) ووسط استراليا وعاصمتها أليس سبرينجز .

وتعداد استراليا حاليا أكثر من عشرين مليون نسمة يقطن أكثر من ثلثيهم فى الولايات والمدن الساحلية الشرقية والجنوبية - ولاية (نيوساوث ويلز - ومدينة (سيدنى) - ثم ولاية (فيكتوريا) - ومدينة (ملبورن) ثم - ولاية (كوينز لاند) - ومدينة (بريزبين) ثم جنوب استراليا ومدينة (ادلايد) وأخيرا مدينة (بيرث) فى غرب استراليا ..

أما الأقليم الشمالى وعاصمته داروين فتعداده لا يتعدى مائة ألف.

ووسط استراليا شديد الجفاف وبه صحارى شاسعة ومناطق من أشد مناطق العالم جفافا .

ورغم ذلك فإن استراليا بها مناطق من أكثر مناطق العالم خصوبة

وتنمية وتنتج القمح بوفرة (واستراليا من أكبر مصدرى القمح فى العالم) والشعير والذرة وقصب السكر والاعناب وجميع أنواع الفاكهة والخضر . وتبلغ مساحة الأراضى الزراعية حاليا ١٠ ٪ من مساحة القارة الكلية وهو ما يعادل مجموعة مساحة القطر المصرى بأكمله بصحاريه ومزارعه !! ومازالت عملية استصلاح الأراضى واقتطاعها من الصحارى جارية كلما وجد الاستراليون مصادر أضافية للمياه وهى من أهم المشاكل التى تجابه استراليا ..

ومنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية قفزت استراليا قفزات نشطة إلى الأمام من ناحية التصنيع وتحسين وتطوير منتجاتها الصناعية وأصبح يعمل فى الصناعة ثلاثون فى المائة من القوة العاملة فى استراليا فى حين يعمل سبعة في المائة منها فقط فى الزراعة (الميكنة الزراعية متقدمة جدا) ويعمل اثنان وثلاثون فى المائة من القوى العاملة فى باقى الخدمات السياحية والمصرفية والحكومية .. الخ

وتنتج استراليا الحديد والصلب والمنسوجات والأدوات الكهربائية والكيمائية كما تنتج سيارات استرالية متميزة والطائرات والسفن وذلك اعتمادا على خاماتها المتوافرة من البوكسايت والفحم (١) والنحاس

---

(١) تصدر استراليا إلى اليابان الحديد والفحم وخامات أخرى قيمتها ١١ بليون دولار ،سنة ١٩٨٧ سنويا واليابان عميل استراليا الأول لكنها أيضا منافسها الأول على زعامة أسيا اقتصاديا وسياسيا ..

والمنجنيز والحديد والرصاص والنيكل والفضة والتونجستن واليورانيوم (بها مناجم مهمة لليورانيوم فى الأقليم الشمالى قريبا من داروين واستراليا من أكبر موردى اليورانيوم إلى أمريكا وبريطانيا) ..

كما تنتج الزنك والبترول . وبها مخزون احتياطى من البترول يبلغ ثلاثة بلايين برميل .

والمراعى الاسترالية مشهورة باتساع رقعتها ووفرة انتاجها من لحوم الابقار والخراف (١) والأصواف .. واستراليا تنتج ثلاثين فى المائة من انتاج العالم كله من الصوف .. ومن أجود أنواعه . وقد دعيت وزوجتى عند زيارتنا لجزيرة تسمانيا وهى ولاية استرالية Tasmania لزيارة عزبة أحد كبار أصحاب المراعى وكانت ابنته وزوجها موجودين معنا يرحبان بنا وقالت الأبنة فى معرض حديثها أن أباها أهداها بمناسبة زواجها ١٠ عشرة (هكتار من المراعى) وقد تبين لنا بعد ذلك ومع دهشتنا الشديدة أنها تقصد أن تقول عشرة آلاف هكتار أما والدها فيملك مليون هتكار من أراضى المراعى (الهتكار hectar يعادل فدانين ونصف) وهناك فى استراليا كثيرون أمثاله ممن يملكون «ملايين

---

(١) تستورد السعودية ما يفوق مائة ألف من الخراف من استراليا سنويا بمناسبة الحج .

الهتكارات» من الأراضي الزراعية أو أراضي المراعي .. اعتمادا على أحدث أساليب الميكنة الزراعية وفي صناعات الصوف ..

وانتاج استراليا من الكهرباء ١٠٦ بلايين كيلو وات ساعة سنويا (مصر ١٧ بليون وايطاليا ١٨٠ بليون) وتنتج خمسين مليون طن مترى من الصلب (مصر ٩٠٠ ألف طن مترى وايطاليا ٢٥ مليون) ..

إما إجمالى الناتج القومى الاسترالى سنة ١٩٨٣ فقد بلغ ١٥١ بليون دولار (مصر ٣٣ بليون وايطاليا ٣٥٠ بليون) (١) .

أما متوسط دخل الفرد فى استراليا سنويا فهو عشرة آلاف دولار (مصر ٦٨٦ دولارا وايطاليا سبعة آلاف دولارا سنة ١٩٨٧) .

فاستراليا إذن تعتبر من دول العالم الثرية «وافرة الحظ» ويتمتع أبناؤها بمستوى معيشة أشد ارتفاعا من بريطانيا وفرنسا وايطاليا ويكاد يقارب مستوى معيشة سويسرا وأمريكا .. ومن ثم أطلق على استراليا اسم البلد السعيد الحظ !!

لكن سعادة هذا الشعب لم تأت عفوا ولم تكن ثروتها ثروة موروثة ولم تكن سعادتها مصادفة أو نالها الاستراليون دون عناء ! والعكس هو الصحيح .

---

(١) يلاحظ أن تعداد الستراليا هو عشرون مليون نسمة فقط !!

فقد كادت أفواج المهاجرين الأول إلى أستراليا أن تهلك فى فصول الشتاء بسبب عدم وفرة الغذاء .. وقاسى آلاف من العمال فى الأفواج الأولي للهجرة من قسوة ظروف العمل والحياة .. ويمثل البريطانيون (الأنجليز والاسكتلدنديون والايرلنديون أى الناطقون بالانجليزية) ٩٥ ٪ فى المائة من سكان استراليا الحاليين كما يمثل الأوروبيون من الأجناس الأخرى ٣ ٪ من السكان وأما البقية الباقية فمن الجنس الأصفر وشعوب البحر الأبيض من عرب ولاتينيين ..

ولقد تخلل تاريخ استراليا منذ ١٨٠٠ سلسلة طويلة من المصادمات والاضطهادات ما بين الأجناس والطبقات . ومعروف أن بريطانيا كانت تنفى إلى نيوساوث ويلز فى استراليا فى القرن الثامن عشر ذوى الأحكام القضائية Convicts (المحكوم عليهم باحكام قضائية) كبديل عن سجنهم فى وطنهم الأصلى .. لكن هذا لا يعنى أن كل مواطنى استراليا من أصل بريطانى كانوا من المساجين فإن تلك الفترة سرعان ما انقضت وأصبحت جموع المهاجرين إلى استراليا من أصحاب الحرف والعمال الزراعيين .. ولما كثر الاستيطان بدأت حملات البيض لابادة السكان الأصليين Aborigines أو إخضاعهم لاحتلال أراضيهم .. ثم شاهدت سنوات ١٨٤٠ التفرقة والحملات ضد الايرلنديين الكاثوليك على يد الانجليز البروتستانت . ثم رأت سنوات ١٨٥٧ التفرقة

وألوان التعصب ضد الصينيين الوافدين لأستراليا لعمل الخطوط الحديدية وخاصة في ولاية فيكتوريا . وتم اقرار «قانون حماية استراليا البيضاء» سنة ١٩٠١ حين أعادت استراليا ترحيل كل مهاجرى جزر المحيط الهادى إلى جزرهم الأصلية .. وتخللت هذه السنوات عمليات كبت واضطهاد ضد المهاجرين الايطاليين الجدد ، ثم ضد طبقات العمال على يد أصحاب الأعمال والحكومات المحافظة حين بدأ العمال يطالبون بمزيد من الحقوق وبزيادة الاجور انتهت بتكوين حزب العمال الاسترالى AL. P ليمثل مصالح العمال ضد أصحاب الأعمال والحكومات المحافظة .. وحزب العمال كان الحزب الحاكم حاليا استراليا (١٩٩٢ / ١٩٩٤) .

ومن هنا فقد شهد المجتمع الاسترالى كثيرا من ألوان العنف والشد والجذب قبل أن يستقر إلى أوضاعه الحالية من الرخاء والثراء والسكينة .

لكن يتمثل الخطر على الأمن الاجتماعى فى استراليا فى مصدرين محتملين هما إعادة إثارة النزاع العرقى ما بين الاستراليين البيض وبين أفواج المهاجرين الجدد وبخاصة من آسيا أو الشرق الأوسط أو في تفجير النزاع ما بين العمال الاستراليين وأصحاب العمل أو الحكومة إذا ما اضيرت مصالح العمال بسبب الضائقة الاقتصادية أو تفاقم المشاكل الاقتصادية أو تولى الحكم وزارات يمينية محافظة .

وقد انتهت الاحزاب الاسترالية سنة ١٩٨٥ إلى اقرار سياسة جديدة رسمية اقترحها أصلا حزب العمال سنة ٧٢ – ١٩٧٥ أى سنوات تسليط الأضـواء على فرار آلالف من الفـتنامـيين من الهند الصـينيـة إلى استراليا، تقوم على تصور إقامة دولة استرالية متعددة الأجناس Mul-tiracial .

ومن ثـم رأت سنوات ١٩٧٥ – ١٩٨٣ ذروة فتح اسـتراليا لأبوابها للجنـس الأصفر فقبلت ٧٨ ألف مهـاجر من الهنـد الصينية وحدها كل عام ..

لكن مع عودة الكساد إلي الاقتصاد الاسترالى وارتفاع معدلات البطالة بين العمال (٨,٥ – ٩ ٪ حاليا) وظهور منافسين أقوياء لأستراليا فى ميادين الصناعة بل وتصدير الخامات أيضا (اليابان والنمور الاسيوية والسوق المشتركة) بدأت ترتفع من جديد أصوات كثيرة تشير إلى مغبة وأخطار فتح أبواب الهجرة أمام الجنس الأصفر أو الملونين إلى استراليا .

وقـد تساءل أحد كبـار المفكرين الاجتماعيين الاسـتراليين «جوفـرى بلانى» Blaney فى أحـد كتاباته الشهيرة قائلا « هـل يود الاسـتراليـون أن تسـتمـر إسـتراليـا «دولة تغلب فيـهـا الثقافة الانجلوسكسونية وتنطـق بالانجليزية أم يجب أن تتحول استراليا إلى

خليط من الشعوب الأوروبية والآسيوية ؟» ويضيف بلانى أن «الحريات المكفولة فى استراليا مثل حرية الكلام والعبادة والديمقراطية ليست صفات آسيوية أو من صفات شعوب العالم الثالث .. وهناك إذن خطر انهيار هذه القيم فى استراليا إذا ما سمح للأجناس الآسيوية بالهجرة الواسعة ؟!

هذا ويدعى المسئولون الاستراليون أنه ليست هناك حصص محددة لمهاجرى كل دولة وإنما يقوم نظام الهجرة على أسس وأولويات ترتيبها كالآتى :

أ - المهاجرون بسبب الاضطهاد فى بلادهم فيقبلون لأسباب انسانية .

ب - ويليهم المهاجرون تحت بند لم شمل الأسر والعائلات .

جـ - وأخيرا المهاجرون المطلوبون فى استراليا لصفقاتهم المرغوبة وفقا لاحتياجات الأقتصاد الاسترالى .

(ومن ذلك أن كل ممول يمكنه تحويل نصف مليون دولار استرالى إلى استراليا لاستغلالها يسمح له بالهجرة إليها) .

ولقد بدأت استراليا فعلا تحد من اعداد المهاجرين إليها تدريجيا ففي سنة ٨١ - ٨٢ سمحت بهجرة ١١٨,٧٠٠ منهم الثلث من بريطانيا وايرلنده و ٢٢ ٪ من أوروبا و ٢٢ ٪ من آسيا و ١٢ ٪ من جزر المحيط

الهادى و ٤ ٪ من افريقيا و ٣ ٪ من امريكا الشمالية و ٢ ٪ من الشرق الأوسط و ١ ٪ من أمريكا الجنوبية)

وانخفض عدد المهاجرين حاليا إلى ثمانين ألفا فقط سنويا .

وإذا جاز لى الاقتصار على وصف شخصية استراليا في بوتقة صغيرة موجزة لأمكنني القول بأن استراليا بريطانية المنشأ والتاريخ واللغة والدين ، لكنها منذ نهاية الحرب الثانية أصبحت أمريكية الاتجاه (١) وأمريكية التوجه الحالي والمستقبلى والاعتماد الكلى على الولايات المتحدة . أمنيا ودفاعيا ..

ويوسط استراليا واحدة من أحدث قواعد أمريكا الالكترونية للمراقبة والتصنت الالكترونى ..

كما أن استراليا فى سبيلها إلى أن تصبح مجتمعا تختلط فيه الأصول البريطانية العرقية واللغوية بأفواج المهاجرين الايطاليين اليونانيين والأسبان والألمان واليوغوسلاف واللبنانيين

---

(١) زاد توجه استراليا إلى أمريكا منذ الحرب العالمية الثانية حين فشلت بريطانيا فى الدفاع عن استراليا ولم ينقذها من الغزو اليابانى إلا الولايات المتحدة .. ومنذ بعد الحرب ألغت استراليا التعامل بالاسترلينى وأصبحت العملة الاسترالية هى الدولار الاسترالى مقوما بالنسبة إلى الدولار الأمريكى .

والمصريين (١) وبأفـواج المهـاجرين الجـدد من فـيتنـاميين وكمبوديين وفلبينيين وهكذا ..

ونمط الحياة اليومى فى استراليا أصبح أقرب الانماط إلى النمط الأمريكى وإلى مستوى المعيشة فى الولايات المتحدة بل أن مستوى بعض الأجـور والأسعار فى استراليا قد فاق مستواها فى أمريكا ذاتها ، أما مدن استراليا الكبيرة : سيدنى - بريسباين - ادلايد - بيرت ، فهى أقرب إلى مدن أمريكا منها إلى مدن بريطانيا وأوروبا ومنطقة Gold Coast فى كوينزلاند محاكاة لشاطئ ميامى فى فلوريدا (٢) ..

ومع هذا تحاول استراليا أن تلعب دورا سياسيا آسيويا متزايد الأهمية أدراكا منها لما يفرضه عليها واقعها الجغرافى وقربها إلى اندونيسيا والفليبين وبقية جنوب شرقى اسيا وبعدها الشديد عن أوروبا من ناحية ومن ناحية أخرى لاسترضاء وكسب ثقة دول آسيا التى تحسد استراليا لثرائها وفرصها غير المحدودة ولا تشعر بالثقة نحو ها ولا تتقبلها كدولة آسيوية بطبيعة الحال .. أو حتى كدولة نصف أسيوية

---

(١) استراليا بها أكثر من أربعين الف مصرى أغلبهم مازال يحمل الجنسية المصرية إلى جانب الاسترالية حيث تسمح مصر بازدواج الجنسية وبدأت هجرات المصريين الجماعية إلى استراليا من أوائل الستينات سنة ١٩٦٠ .

(٢) أما مدينة ملبورن ثانى مدن استراليا فهى بريطانية الطابع وأكثر «محافظة» من الأخريات .

.. ومع ذلك فكل هذه الدول تحاول الاستفادة مما توفره أستراليا لها ولابنائها من مزايا وامكانيات تعليمية وثقافية وحضارية فى مجتمع ثرى يقوم على الخدمات الحكومية Social Welfare المتوافرة (١) .

ومن أمثلة محاولات استراليا التقرب إلى دول جنوب شرق اسيا أنها تقدم ٤٠٠ مليون دولار سنويا كمنحة إلى حكومة بابوا نيوغينى Papua New Guinee كما كانت تقدم إلى الفليبين قروضا متجددة كل ٦ أشهر قدرها خمسون مليون دولار وتقدم منحا سنويا إلي جزر فيجي والجزر الأخرى المحيطة بالاضافة إلى آلاف المنح الدراسية إلى شباب تلك المنطقة . ويبلغ مجموع مساعدات استراليا إلى دول العالم الثالث بليون وثلاثمائة مليون دولار (سنة ١٩٨٦) منها ٤٥ مليون دولار معونات غذائية إلى أثيوبيا مثلا رغم اختلاف الانظمة !!

وباختصار فإن هناك اتفاقا حديث العهد بين ساسة استراليا من جميع الاحزاب على وجوب تأكيد وتعميق انتمائها إلى جنوب شرق اسيا وعلى أن مستقبل استراليا «السياسي والاقتصادى وأمنها مرتبطة كلها بهذه المنطقة لكن يستلزم ذلك» اقناع دول المنطقة لقبول استراليا بهذه الصفة الآسيوية المستقلة عن الولايات المتحدة أو عن الغرب .. إلى جانب

---

(١) التعليم ، والعلاج مجانيان فى استراليا كما أن الاسترالى العاطل ينال مساعدات حكومية قد تصل إلى سبعمائة دولار استرالى شهريا – الدولار الاسترالى يوازى $\frac{٣}{٤}$ دولار امريكى حاليا ١٩٩٥ .

وجوب التغلب على المقاومة الداخلية فى استراليا نفسها لاستيراد المزيد من العمالة الآسيوية الأرخص من العمالة الاسترالية .. لكن وجه الصعوبة هو أن استراليا تعتمد على الولايات المتحدة اعتمادا يكاد يكون كليا في الدفاع عن استراليا (١) ناهيك باعتمادها عليها تجاريا واقتصاديا وتكنولوجيا .. ولا يعادل ذلك سوى اعتماد استراليا على اليابان بالمثل تجاريا واقتصاديا وتكنولوجيا .

والخلاصة أذن أنه يحق للمراقب السياسى أن يتساءل بل أن يضع سلسلة من التساؤلات التى تثيرها دراسته لأحوال استراليا الحالية ولاحتمالاتها المستقبلية :

(١) أو ليست استراليا أذن دولة (أو بالأحرى قارة) حضارتها وثقافتها أنجلوسكسونية أصبحت حاليا في توجهها واعتمادها الأمني والتجارى والتكنولوجي أمريكية ، لكنها مع ذلك تريد أو تحاول أن تتبنى تحالفات ومصالح سياسية وتجارية واقتصادية أسيوية مع دول جنوبي شرق اسيا وعلى رأسها اليابان ؟ (٢) .

(٢) أو ليست اذن استراليا دولة أوروبية الأصل ، مجتمعها

---

(١) الجيش الاسترالى لا يتجاوز سبعين ألفا وهو لا يكفى للحفاظ على قارة شاسعة ومن هنا جاء اعتماد استراليا على تحالفها الوثيق مع الولايات المتحدة ضد أى عدو محتمل .

(٢) اليابان أكبر عميل لاستراليا وأكبر قدوة لها من حيث التنمية الصناعية والتكنولوجية الراقية لكنها أيضا أكبر منافس لاستراليا فى أسواق الشرق الأوسط ومن حيث امكانيات الزعامة فى المنطقة.

ديمقراطي غربي اشتراكي الاتجاه – ونظـام نقاباتها العمـالية ونمـط علاقاتهـا مـوروث عن بريطانيا بكل حسناته وسيئاته . واتجاهات استراليا الفكرية والثقافية انجلو سكسونية بالمثل لكن أصبحت طريقة معيشتها وتوجهاتها امريكية يغلب عليها الطابع الكاليفورني !!

(٣) هل تستطيع استراليا مع ذلك – ومتى تستطيع استراليا أذن – لما تراه من مصلحتها الجغرافية وضروريات الحياة من حولها – الانصهار تدريجيا في بوتقة آسيا وجنوب شرقي اسيا !!

(٤) أولا يكتنف ذلك مواجهة الكثير من الصعاب والتناقضات كما يستلزم وقتا وجهدا طويلين

(٥) وهلا يستلزم ذلك من استراليا ومن سكانها الكثير من الجهد وشيئا من التضحيات في ثرائها ومستوى معيشتها المرتفع وليس مجرد الرغبة السياسية أو التصريحات الدبلوماسية !!؟

وصلنا استراليا اذن في نوفمبر ١٩٨٤ وهو بداية الصيف في نصف الكرة الجنوبي وقدمت أوراق اعتمادي الى سيرنينيان ستيفنز الحاكم العام لا ستراليا في ذلك الوقت (١) في مقر الحاكم العام في كانبرا عاصمة استراليا .

---

(١) الحاكم العام سنة ١٩٩٣ حين كتابة هذه السطور هو بيل هايدن وزير خارجية استراليا عند تقديمي لأوراق اعتمادي وهو من أقطاب حزب العمال الاشتراكي وتم تعيينه حاكما عاماً بناء على توصية مجلس الوزراء الاسترالي وباختيار الملكة اليزابيث ملكة (بريطانيا) واستراليا .

وقد تم اختيار كانبرا عاصمة لاستراليا سنة ١٩١٣ فى منطقة جبلية تتوسط الحدود بين ولايتى نيوساوث ويلز وفيكتوريا كبرى ولايات استراليا كحل وسط لمنافستهما حول أية عاصمة سيدنى أم ملبورن تكون عاصمة للحكومة الفيدرالية الاسترالية .. ولما كان موقع كانبرا بعيدا عن البحر (عكس سيدنى وملبورن) وفوق هضبة متوسط ارتفاعها ٧٠٠ - ٨٠٠ متر عن سطح البحر فان مناخها قارى « حار صيفا بارد شتاء » وإن كانت أمطارها أقل من سيدنى ومن ملبورن . وتعداد كانبرا حاليا لا يتجاز ربع مليون نسمة أغلبهم من موظفي الحكومة الفيدرالية وأعضاء البرلمان الفيدرالى والسلك الدبلوماسى واعضاء هيئات التدريس فى جامعة كانبرا ومدارسها .. ومن هنا فهى مدينة مثالية غير مزدحمة - دون أى ضوضاء - خضراء ونظيفة جدا أغلب منازلها فيلات او عمارات قصيرة ذات حدائق من حولها وليس للحدائق اسوار تحيط بها وذلك دليل على توفر الامن والطمأنينة .. ومستشفياتها ومدارسها وكل وسائل خدماتها لا تعانى أى زحام أو إرهاق وبها مراكز تجارية Shopping Centres فى غاية الاناقة والغنى والجدة .

وقد انعكس ذلك على طبائع وأخلاق سكانها فلا يبدون علامات قلة

الصبر أو قلة اهتمام سكان المدن الكبرى بجيرانهم .. بل إننا لا حظنا بسرور بالـغ أن جيراننا فى حى O`Malley حيث مسكن سفير مصر فى ذلك الحين) كانوا زائدى اللطف والكرم نحونا .. ولاتسير فى شوارع أومالى هــذه دون أن تنال تحية وابتسامة ترحيب من الجيران حتى دون ســابق معــرفة . وهــذا حال أغلب الاستراليين فيما عدا فى مدنها الكبرى ســيدنى وملبورن مثلا اللتين لا تختلفان عن مـدن أوروبا وأمريكا كثيرا ..

ومع ذلك فيعيب أهل سيدنى أو ملبورن على كانبرا أنه ينقصها «الروح» بمعنى أن جسدها جميل كما سبق شرح شكلها العام – لكن تنقصها الحياة فأهلها أقل من أن يملئوا شوارعها وحدائقها وتسهيلاتها لاترى أناسا يسيرون فى الشارع التى تبدو أنها خالية مهجورة معظم الوقت الا من السيارات فقد بنيت كانبرا ووضعت كلِ تسهيلاتها وخططت شوارعها وميادينها وأحياؤها بعين الاعتبار إلى المائة سنة القادمة .. – وفى هذه الاثناء – وفى انتظار السنين أو الحقب القادمة تبدو كانبرا وكأنها تنتظر هى الأخرى من يملأ فراغاتها ويجعل «الحياة تدب فى أوصالها الجميلة».

ورغم أن كانبرا جميلة حقا ونظيفة جدا وشديدة النظام إلى حد الكمال فإن سيدنى وملبورن بل وكل مدن استراليا الأخرى لا تقل عنها جمالا وحسنا وثراء .

واعتقد أن سيدني من أجمل مدن العالم فقد أقيمت حول سلسلة لاتنتهى من الخلجان وهى تذكرنى بمدينة سان فرنسيسكو فى كاليفورنيا بالولايات المتحدة .. فى حين تذكرنى ملبورن باحياء لندن إلى حد كبير .. وقد اكتمل نمو سيدنى وملبورن منذ مائة وخمسين عاما .. أما أدلايد وبرزبين وبيرث فهى مدن حديثة أمريكية الطابع .. ومازالت فى طور النمو .

والاسترالى العادى تلقائى مفتوح السريرة Spontaneous سهل المعشر بسيط غير معقد كريم فى غير سفه دءوب كثير الاحتمال للمشاق - وهو يحب جميع أنواع الرياضة ومنها السباحة والغطس والتنس والكريكيت والبيسبول (الامريكية) والتزحلق على الماء والجليد كما يحب المعيشة فى الهواء الطلق أو الخلاء . وحين يأتى موسم الصيف تجد الناس جميعا زرافات ووحدانا فى البلاجات أو الحدائق العامة وقد دهشنا إذ رأينا كثيراً من الناس فى كانبرا (وغيرها من المدن) يمشون «حفاة الاقدام» - صيفا - فى الشوارع وفى المراكز التجارية كنوع من أنواع التحرر أو عبادة الطبيعة .. كما أن الرجال والنساء الاستراليين مولعون جدا بارتداء البنطلونات القصيرة (جداً) ويسمونها Stubbies «المقطوشة» وهى أقصر كثيراً من البنطلون القصير ..

هذا ويولى الاستراليون اهتماماً بالغا بصحة قارتهم الجديدة ولا يألون جهدا فى سبيل منع دخول الأمراض «والأوبئة» إلى استراليا من

بقية انحاء العالم وهكذا فقد دهشنا عند وصول طائراتنا إلى سيدني (أو إلى ملبورن) قادمة من خارج استراليا ، فقد ابقوا جميع المسافرين فى الطائرة انتظاراً لوصول رجال الحجر الصحى ، وجاء هؤلاء .. عمالقة استراليون مثلما عرفهم الشعب المصرى زمن الحربين العالميتين الأولى والثانية .. يرتدون الشورتات Stubbies وقمصانا باكمام قصيرة فقد كان الوقت صيفا فى نوفمبر .. وإذا بهم «يرشون» داخل الطائرة Spray بمادة كيمائية مثل الـ D.D.T. قوية نفاذة الرائحة لقتل الذباب أو الجراثيم أو كليهما .. ويظل المسافرون هكذا خمس دقائق آخرى بعد زيارة رجال الحجر الصحى حتى يسمح لهم بمغادرة الطائرة (١).

ومن مظاهر ديمقراطية الاستراليين الشديدة أن ملكتهم - ملكة استراليا وبريطانيا عوملت نفس المعاملة عند زيارتها لاستراليا .. كذلك من مظاهر ديمقراطية الاستراليين وبساطتهم الشديدة أن وزراء الدولة بل ورئيس الوزارة (٢) نفسه يركب سيارته الحكومية إلى جوار السائق

---

(١) عند الانتقال من ولاية استرالية إلى أخرى غير مسموح للافراد بنقل الفاكهة والمأكولات منعا لانتقال الامراض التى تهاجم الفاكهة والخضر وعند دخول استراليا من الخارج لا يسمح بتاتا بحمل المأكولات مع المسافرين القادمين من الخارج ..

(٢) أثناء وجودى فى استراليا كان حزب العمال هو الذى يتولى الحكم ورئيس الوزراء هو بوب هوك .

باستمرار ..فيما عدا الحاكم العام لاستراليا فهو يركب سيارته الحكومية فى الخلف باعتباره ممثلا للملكة .. وهو الوحيد الذى يركب سيارة رولزرويس .. اما بقية الوزراء فيركبون سيارات صنعت فى استراليا .. وليس هناك أى استثناء لهذه القاعدة .

وأثناء اقامتنا فى استراليا ترددت الانباء وتناقلتها ألسنة الناس بأن ابنة رئيس الوزراء بوب هوك كانت تتعاطى المخدرات وأنها عولجت فى إحدى المصحات حتى تقلع عن الادمان .. ومن شأن الانفتاح الشديد فى المجتمع الاسترالى - مثله مثل أى مجتمع غربى حديث - أن يحدث هذا الأمر خاصة فى الآونة الأخيرة لكن من شأنه أيضاً أن يظهر - وظهر فعلا - بوب هوك رئيس الوزراء على شاشة التليفزيون وهو يبكى ودموعه تسيل على وجنتيه ولم ينف الشائعات بل أكدها ونال عطف وتعاطف الاستراليين بصراحته وبمنظره كأب يجتاز تلك المحنة.

والواقع أن الاستراليين حكومة وشعبا يولون أشد الاهتمام إلى تربية وتنشئة أطفالهم .. فالتعليم مجانى حقا وكذلك العلاج فى ارقى المستشفيات لكن الأطفال ينالون الوجبات فى المدارس مجانا ولهم برامج تليفزيونية خاصة كما أنه لا يعدم مركز تجارى أو وسط المدينة أو أى حى من أحياء المدن من حديقة للاطفال تحوى ألعابهم ومراجيحهم واسباب تسليتهم .. مجانا وعلى نفقة الحكومة!

وإلى عهد ليس ببعيد كانت الحكومة الاسترالية توزع زجاجات اللبن الحليب على كل المنازل مجانا .. لكن تم الاستغناء عن هذا الكرم أخيرا بسبب «الضائقة الاقتصادية» ..

ولما كانت استراليا قد استقبلت - ومازالت تستقبل - آلاف المهاجرين سنويا من شتى انحاء العالم ومن أغلب الاجناس ولما كانت سياستها الرسمية هى العمل على انصهار كل هذه الاجناس تدريجيا فى بوتقة استراليا الحية ، فانها أى الحكومة الاسترالية - تعمل على جذب وربط اهتمام جميع الاجناس الوافدة وغير الناطقة بالانجليزية إلى برامج التليفزيون الاسترالى . ولأجل أن تكون هذه البرامج جذابة ومقبولة فإن لكل طائفة ولكل لغة من لغات الاجناس الوافدة برنامجا اسبوعيا بتلك اللغة ، يقدم أفلاما حقيقية مستوردة بنفس اللغة الاصلية وعليها الترجمة الانجليزية أما أغلبية البرامج اليومية فهى بالانجليزية بطبيعة الحال .. وجلوس أصحاب اللغات الأجنبية إلى التليفزيون لمشاهدة أفلامهم كفيل بأن يشدهم تدريجيا إلى مشاهدة بقية الافلام والبرامج الأخرى بلغات مختلفة أو مدبلجة بالانجليزية أو بالانجليزية.

كذلك هناك مدارس وكليات حكومية Colleyes مجانية لتدريس الطهى والتفصيل وعمل الفطائر والحلويات بالانجليزية لكن الاهم من هذا كله تدريس اللغة الانجليزية للمبتدئين من الاجانب .. وسوف يقبل

هؤلاء على تعلم الانجليزية تلقائيا ليستطيعوا تلقى وفهم بقية الدروس فى الطهى والتفصيل .. الخ بالانجليزية وكلها تدرس بالمجان وتتكفل الحكومة الاسترالية بجميع النفقات بما فى ذلك أصناف الطعام وأدوات الطهى والتفصيل فى تلك الدروس .. وقد لاحظت سيدات السفارة المصرية اللاتى حضرن بعض تلك الدروس أن عددا كبيرا من الحاضرات كن استراليات وسيدات من نيوزلاندة .. والأخيرات يتكلمن الانجليزية كلغتهن الاصلية طبعا لكنهن يحاولن الاستفادة من كرم الحكومة الاسترالية وسياستها الاجتماعية الكريمة .

ومما هو جدير بالتسجيل أن الشخص النيوزلاندى له حق دخول استراليا والعمل بها دون تصريح حكومى من استراليا وذلك للصداقة الشديدة والتعاون بين البلدين .. لكن استراليا أغنى من نيوزلاندة وأكثر كرما .. ومن هنا وجود عشرات آلاف النيوزلانديين فى استراليا .. قارة المستقبل !

جرت العادة فى كانبرا على أن يقوم السفير الاجنبى الوافد حديثا إلى استراليا بعد فراغه من زيارة رئيس الوزراء الفيدرالى وأهم الوزراء وكبار رجال الدولة – بسلسلة من الزيارات إلى الولايات الاسترالية الست (١) والاقليم الشمالى ، للتعرف إلى حكامه Governor فكل

---

(١) نيوساوث ويلز – فيكتوريا – تسمانيا – جنوب استراليا – غرب استراليا – وسط استراليا.

ولاية لها حاكم منتخب ونائب للحاكم منتخبا أيضا فضلا عن برلمان محلى منتخب هو الآخر .. ولكل ولاية قوانينها الخاصة وانظمتها الخاصة - مثلما فى أمريكا - أما الحكومة الفيدرالية فى كانبرا فهى مسئولة عن السياسة الخارجية والتجارة الخارجية وبمعنى آخر العلاقات الرسمية مع الدول تجارية وسياسية فضلا عن الاقتصاد الوطنى والدفاع .. ويحدث أحياناً كثيرة أن تكون الحكومة الفيدرالية فى كانبرا تمثل مثلا حزب العمال كما كان الحال فى حين قد تكون حكومة كونيرلاند مثلا تمثل الحزب الليبرالى (المحافظ) وهكذا ..

ومن هنا فقد زرت أنا وزوجتى جميع الولايات فى عواصم ولاياتهم .. وتشمل الزيارة الالتقاء بالحاكم فى مكتبه ثم زيارة رئيس البرلمان المحلى Speakser وبعض الوزراء المحليين وفقا لرغبة السفير الزائر وبما يتفق أيضا مع وقت كبار المحليين وتشمل الزيارات بالمثل جولات فى أهم معالم المدينة ومنشآتها الصناعية والاقتصادية والعمرانية .. وبديهى أنى إعجبت أشد الأعجاب بمدن استراليا الحديثة والجميلة وعلى رأسها سيدنى التى تشبه سان فرانسيسكو من حيث أنها بنيت على تلال وعلى شاطىء أو مجموعة من الخلجان تمتد أكثر من ثلاثمائة وخمسين كيلو متراً لأن شاطىء سيدنى شديد التعرج . وبها أحياء سكنية راقية شديدة الجمال كما أن بها ناطحات سحاب حديثة . ومترو الانفاق . أما ملبورن فهى أشبه بلندن وتنقصها ناطحات السحاب

والروح الامريكية لكنها تستبدلها بالروح البريطانية فهى أشبه بلندن وبها الكثير من الحدائق وحلبات سباق الخيل والنوادى مهبط الطبقات الارستقراطية التى تلبس الأزياء الرسمية البريطانية مثلما فى تلك المناسبات (١) وفى ملبورن قابلت مدير الميناء وهو يونانى من مصر يتكلم العربية وقد احتفى بنا أشد حفاوة ..(٢)

إلا أن جميع مدن استراليا الباقية بريزبين وادلايد وبيرث وداروين وان كانت أقل من السابقتين فإنها جميعها تبدى مظاهر الثراء والنعمة الحديثة والنظام والنظافة وكل مدن استراليا الهامة سالفة الذكر تقع على الشواطىء .. فقد بدأ الاستراليون الاستيطان وتنمية القارة من الشواطىء أولا فى اتجاه وسط القارة (شديد الجفاف) ثانيا .

وتحضرنى لهذه المناسبة ذكرى زيارتنا إلى ولايات ثلاث أو أربع بسبب ملابسات خاصة .. ففى ولاية (جزيرة) تسمانيا اتسمت زيارتنا بطابع عائلى وجزيرة تسمانيا تقع جنوب شرقى استراليا ويربطها بملبورن وادلايد خط ملاحة، كما يربطها ببعض مدن استراليا خطوط طيران داخلى والمسافة حوالى الف كيلو متر تقطعها الطائرات فى حوالى الساعة من ملبورن أو سيدنى.

---

(١) محاكاة لسباق الخيل فى انجلترا .

(٢) كما توجد فى سيدنى جالية كبيرة ومنظمة لليونانيين من مصر يضمهم النادى اليونانى المصرى.

وكان حاكم تسمانيا SirJames Plimsol مندوبا دائما لاستراليا (سفيرا) فى الأمم المتحدة بنيويورك وكان لى شرف معرفته منذ تلك الايام .. فلما حانت فرصة زيارتى لتسمانيا كسفير لمصر وعرف سير جيمس بشخصيتى أصر على أن تنزل زوجتى وأنا فى ضيافته فى قصره الحكومى، وقد بنى القصر على الطراز الانجليزى القديم فى شكل قلعة Castle لكن ادخلت عليه من التحسينات من الداخل ما جعلته كقصر حديث به وسائل التدفئة الحديثة واسباب الراحة (١).. وكان الحاكم انسانا متواضعا كريما غير متزوج.. وطاف بنا بنفسه انحاء القصر والحدائق بل واخذنا فى سيارته الحكومية لنزهات فى جزيرة تسمانيا فزرنا مدنا صغيرة اخرى ومزارع لتربية الاغنام – ومزرعة منها حجمها مليون هكتار – ومصانع الصوف . وتتميز جزيرة تسمانيا عن كل استراليا بأنها تحتفظ للآن بالطابع البريطانى القديم .. منازلها من الحجارة الجيرية البيضاء Lime-stone مثل بعض الريف البريطانى تغطيها الاسقف الحمراء وريفها انجليزى الطابع هو الاخر .. اما مدينة هوبارت عاصمة تسمانيا فهى ميناء مهم ايضا وهى من اجمل مدن استراليا إذ انها بنيت على سفوح جبل مرتفع يطل على البحر وعلى خليج متسع فهى اذن من اكثر مدن

---

(١) عند وصولنا استقبلنا رئيس الخدم Dutlr وقادنا إلى غرفتنا ثم جاءت سيدة Roomuaid وعرضت على زوجتى فتح حقائبها واخراج ملابسنا وكيها .

استراليا «خفة دم» كما أن مناخها بحرى لطيف بعيد تماما عن حرارة سيدني أو بريزبين صيفا أو قيظ داروين طوال العام.. وبهوبارت واحدة من اكبر مصانع شكولاته كادبورى فى استراليا والعالم .. كما أن بها جامعة قديمة محترمة..

ولما كنا فى ضيافة إلحاكم سير جيمس فكنا نشاطره مائدة الافطار والغداء والعشاء .. الا أنه ذات يوم اقام لنا مأدبة غداء «رسمية» أو شبه رسمية واراد أن يكرمنا فقرر دعوة المصرى الوحيد المقيم فى هوبارت هو وزوجته .. ولم نكن نعرفه بل لم تكن سفارتنا تعرف بوجود مصرى فى هوبارت أصلا ولما حان وقت الغداء فوجئنا بدخول شاب مصرى ملتحٍ ويلبس حلة غربية لكنه يلبس ايضا لباس رأس «اسلاميا» .. أما زوجته فكانت ترتدى زيا اسلاميا طويلا محتشما وان كانت لم تغط وجهها .. لم يكونا يعرفان الا قليلا جدا من الانجليزية.. لا يكفى للحديث مع الحاكم الاسترالى ولا مع ضيوفه الاستراليين.. فكان لزاما علىّ أنا وعلى زوجتى القيام بالترجمة .. ولما دار علينا الخدم باطباق الطعام لنغرف منها فى اطباقنا نحن على الطريقة الغربية مثلما يحدث فى الحفلات الرسمية لم تكن السيدة على علم بمثل هذا الاتيكيت.. وكانت تسأل زوجتى بدهشة أو خوف عن كل الاصناف المقدمة اليها خشية ان يكون احدها غير محلل للمسلمين والواضح ان أصناف الطعام الغربية لم تعجبها أو لم تعتدها من قبل ويبدو لنا مع الأسف أن الحاكم

نفسه احرج بسبب تسرعه بدعوة هـذا الضيف المصرى دون سابق معرفة به .

أما ماذا كان يفعل هذا المصرى فى هوبارت فهى قصة جديرة بالتسجيل .. لقد نال الثانوية العامة من مصر ثم نال منحة دراسية اسلامية إلى السعودية حيث درس الفقه وأداب الاسلام وتعاليمه .. ثم أوفدته السعودية إلى هوبارت ليشرف على شراء وشحن آلاف الخراف - حية - من تسمانيا إلى السعودية قبل موسم الحج طوال العام أما الخراف المذبوحة المرسلة إلى السعودية فكانت مهمته أن يشرف على ذبحها «بالطريقة الاسلامية» وشحنها على البواخر الثلاجات إلى جدة . فكان اذن موظفا سعوديا موفدا فى تلك المهمة .. لكنه احتفظ بجنسيته المصرية ومن ثم دعى إلى قصر الحاكم!!

أما الزيارة الثانية التى مازالت تطوف بخاطرى أحياناً فكانت بريزبين عاصمة كوينزلاند حيث قابلت الحاكم وكان من الحزب المعارض الليبرالى أى المحافظ Sir Joh Bielkc Petersen وهو من أصل اسكندناوى كما يدل اسمه .. وهو من الشخصيات السياسية الاسترالية المعروفة بشدة الذكاء وطول البقاء فى مراكز سياسية حساسة وقد ظل حاكما لكوينزلاند جيلين كاملين وشاهدنا فى مدينته الاستعداد لاقامة معرض بريزبين الدولى وهو إن دل على شىء فعلى ثراء ولاية كوينزلاند وسرعة تقدمها .. ثم اقرضنا سيارة حكومية من الولاية طافت بنا فى

الساحل الذهبي The Gola Coast الذى بنى ليشابه أو ليحاكى ساحل ميامى فى فلوريدا .. من حيث الفخامة والجمال وعدد ناطحات السحاب المطلة على الشاطىء وروعة الاستعدادات والمطاعم والفنادق .. انها قطعة من الولايات المتحدة فى استراليا .. وهى ظاهرة لاحظنا تكرارها كثيرا ..

وزرنا مزرعة يملكها أحد وزراء ولاية كوينز لاند لزراعة الفاكهة وأبدينا دهشتنا لكبر حجم الفاكهة «القشطة» فما كان من الوزير إلا أن وعدنا بارسال كمية منها إلى منزلنا فى كانبرا حين يتم نضج الفاكهة . وفعلا تلقينا كمية من القشطة بعد شهر أو أكثر .. الواحدة منها فى حجم البطيخة !! وهى قليلة البذور من الداخل كثيرة «اللحم» حلوة المذاق .. بل رائعة المذاق!

ومن زياراتنا التى مازلنا نحتفظ بذكراها زيارتنا إلى ولاية جنوب استراليا ومدينة ادلايد . وهناك شاهدنا عددا كبيرا من الاستراليين الاصليين (١) Aborigines وهم مع الأسف يعيشون عيشة كسل وضياع على هامش المجتمعات الاسترالية ويدعو منظرهم للشفقة والاسف حقا .. كما زرنا وادى Barrossa Vallev وهو شديد

---

(١) انقرض عددهم ولم يبق منهم سوى مائة وخمسين ألفا تقريبا فى كل استراليا وتدل الاحصاءات الاسترالية الرسمية أن متوسط عمر الواحد منهم يقل بمعدل ٢٢ عاما عن متوسط عمر الاسترالى الأبيض وانهم جميعا يعيشون فى مستوى أقل من الحد الرسمى للفقر فى استراليا .

الخصب ويشتهر بالاعناب من مختلف الأصناف وأثناء تجوالنا بالسيارة لم نشاهد سوى حقول العنب لمدة ساعات طويلة .. ولذا قامت به صناعة الانبذة الاسترالية الفاخرة التي ادخل انتاجها في استراليا اساتذة وخبراء ألمان وإيطاليون .

ومن ثم تنتج استراليا أنواعا من خيرة الانبذة البيضاء والحمراء .. بل ومن الشمبانيا أيضا .. وقد نشطت فى استراليا «صناعة البيرة والانبذة والشمبانيا» «خالية الكحول» .. وقد أمكن الاحتفاظ بمذاق الشراب الأصل رغم خلوه تماما من الكحول .. وقد اقام أحد المهاجرين الالمان صناعة انبذة باتت من أشهر وانجح الانبذة الاسترالية والعالمية اسمها «قصر يلدرا» Chateau Yldara وبنى قصرا قديما ومتحفا اثريا ملأه بالاثار والتحف النادرة حتى يصبح قصرا Chateau جديرا حقا بالتسمية !!

وإلى جانب تلك المنطقة توجد صناعات انبذة استرالية جيدة بيضاء وحمراء فى نيوساوث ويلز وغرب استراليا بالمثل .

وقد تناولنا طعام الغداء ذات مرة فى عزبة نائب حاكم جنوب استراليا وكان يزرع الأعناب هو أيضا .. وكان متزوجا من سيدة لبنانية مازالت تتكلم العربية وإن كان هو ألمانى الأصل .

ويقودنا هذا الحديث عن الجاليات العربية .

فأكبر الجاليات العربية فى استراليا هى الجالية اللبنانية ويقدر عددها بأكثر من مائتى ألف شخص وتليها الجالية المصرية وتعداد المصريين فى استراليا حوالى الخمسة والأربعين ألف مواطن معظمهم من اخواننا الاقباط .. ومعظمهم يعيش أما فى منطقة سدنى أو ملبورن وان كان البعض القليل أيضا فى مدن أخرى منها كانبرا .. وهم موضع رضاء واحترام السلطات الاسترالية لجديتهم ونشاطهم ولبعدهم عن السياسة!! وليس بينهم مليونيرات ولا تجار كبار .. بعضهم نجح فى عالم الطب واشتهر .. فى سيدنى وكانبرا .. أتوا جميعا حاملين حقائبهم فقط إلى جانب شهادتهم العلمية والعزيمة الصادقة والجلد والصبر امام المكاره وكثير من امتحانات المعادلة!! وفى بحر عشر سنوات اشتروا منازلهم التى يقيمون فيها وسياراتهم .. واصبحوا فى عداد المنعمين .. لكن غالبية المصريين يعملون كموظفين أما فى الحكومة الاسترالية (التعليم أو البريد - أو النقل والمواصلات) أو فى الشركات .

وقد زرت الجاليات المصرية فى سيدنى وملبورن (١) أما فى سيدنى فقد اقامت جالياتنا القبطية بها أربع أو خمس كنائس فى أحياء مختلفة زرت بعضها وكم كانت سعادتى برؤية مظاهر الوئام والسعادة

---

(١) افتتحت مصر قنصلية عامة مصرية فى كل من سيدنى وملبورن لرعاية شئون الجاليات المصرية بهما .

والانتعاش وحسن النظام .. كما زرت ناديا لجماعة أخرى من المصريين المسلمين فى سيدنى ..

أما فى كانبرا فتوجد حوالي عشرين أو ثلاثين عائلة مصرية أغلبها مرة أخرى من اخواننا الاقباط ونسبة كبيرة من رجالاتها من الاطباء الناجحين ورجال الأعمال وكنا نخرج فى رحلات خلوية تضم كل المصريين مسلمين واقباطاً فى العطلات الرسمية فى احدى حدائق كانبرا العامة المطلة على بحيرة كانبرا ..

بقى أن أصف للقارىء زيارتى إلى شمال استراليا وهى ليست ولاية لكن يسمونها الاقليم الشمالي باعتبارها لم تنضج بعد النضج الكافى لكى تصبح ولاية .. فمجموع سكانها حوالى مائة ألف فقط أغلبهم يعيش فى داروين (٦٠ الفا) .. ورأينا بها عددا كبيرا من السكان الاصليين أيضا .. فى حالة من الضياع (١) وتقع داروين فى المنطقة المدارية الحارة، وبها غابات كثيفة مدارية وانهارها مليئة بالتماسيح الضخمة (كما ان شواطىء استراليا على المحيط الهادىء مليئة بسمك القرش الضخم ومن هنا تقيم الحكومة شبكات من الفولاذ - داخل الماء - حول الشواطىء لحماية المستحمين فى الشواطىء الرسمية أما من

(١) قررت الحكومة الاسترالية تعويض بعض السكان الاصليين عن الاراضى التى انتزعت من قبائلهم لغرض استخراج اليورانيوم .. هكذا اصبحوا من الأغنياء لكنهم ينفقون كل نقودهم على الخمر والعربدة .. فلا يوجد شىء أخر يفعلونه .

يجازف بالنزول إلى الماء للسباحة فى شواطىء غير مؤهلة فهو المسئول عن نفسه . وقد حدث ذات مرة ان نزل أحد رؤساء وزراء استراليا داخل الماء ليلا ولم يبد له أى أثر..

ورغم أن مدينة داروين صغيرة فإنها خفيفة الدم وحديثة ونامية وتبدى مظاهر اهتمام السلطات بتنميتها .. واهم ذكرياتنا بها اننا اكتشفنا وجود رجل أعمال مصرى بها متزوج من سيدة يابانية واسمه ماجد أبو طالب .. وقد دعانا إلى منزله للعشاء عندما علم بوجودنا من الصحف .. وتناولنا فى منزل هذا الصديق المصرى طعاما يابانيا رائعا!!

وفى داروين وقريبا منها Cackadoo National Park زرنا آثار استرالية قديمة بدائية يعتز بها الاستراليون البيض كما زرنا متحفا بحريا واقليميا محترما بالنسبة لهذه المدينة الصغيرة .. وناديا ومطعماً ملاصقا للمتحف أودلو وجد مثلهما فى القاهرة !!

لكن أكثر ما تميزت به هذه الزيارة جولتنا فى احراش مدارية من أجل رؤية بعض الطيور الغريبة Gibbarroo والنباتات والتماسيح فيها ..

ثم دعينا لزيارة مناجم ومعامل تنقية اليورانيوم .. ووضعت الحكومة تحت تصرفنا طائرة صغيرة تتسع لخمسة أفراد فقط طارت بنا من

داروين إلى المناجم لمدة نصف ساعة وكانت تهتز بنا اهتزازا عنيفا .. ومخيفا .. ولم نجرؤ على الاعتذار عن ركوب هذه الطائرة .

ثم جاءت زيارتنا لمناجم اليورانيوم فكشفت لنا عن مدى التحام مصالح استراليا بالولايات المتحدة والغرب إذ أن كل ناتجها من اليورانيوم يعد للتصدير اليها .. ثم ركبنا نفس الطائرة فى رحلة العودة إلى داروين وكنا ندعو الله ألا تسقط بنا تلك اللعبة فى إحدى الغابات المخيفة كما أسلفنا !!

ومن داروين إلى كانبرا أربع ساعات كاملة بالطائرات مع التوقف فى مطار مدينة أليس سبرنجز وسط استراليا .

ومن أهم معالم هذه الرحلة الطيران فوق Ayers Rock الشهيرة وهى عبارة عن صخرة هائلة الحجم - كيلو مربع - من الحجر الصلد ومتوسطة الارتفاع - ٢٠٠ متر تقريبا - وسط الصحراء الجرداء المنبسطة تحت الصخرة الهائلة .. لكن أجمل مافي الأمر هو رؤية الصخرة فى ضوء شمس الشروق أو شمس الغروب .. عندئذ يكون لونها أحمر برتقاليا قانيا شديد الجمال حقا ..

ويحج كثير من الاستراليين اليها ويتسلقها بعض الرياضيين منهم وهى عملية شاقة تكتنفها بعض المخاطر لأنها صخرة ملساء عمودية الارتفاع .. أما نحن الأجانب فقد اكتفينا برؤيتها من الطائرة .

من المعالم التى تستحق حقا المشاهدة والزيارة عن كثب أوبرا سيدني واوبرا ملبورن بل اوبرا أدلايد أيضا . وقد تناولت زيارتى اليها بحث امكانية عرض التحف المصرية القديمة بها وهو ماحدث فعلا وان كان بعد مغادرتي .. والأولى في سيدنى على حافة مياه ميناء سيدنى الشهير ومن حولها ومن ورائها ناطحات السحاب والمياه الزرقاء .. لكن تصميمها على يد أحد كبار المعماريين العالميين هو الذى اجتذب ويجتذب اليها جميع الانظار .. فانها تبدو من البحر وكأنها سرب من سمك القرش يسبح فى المياه وقد ظهرت أطراف ذيول سمك القرش زعانفه بيضاء ناصعة تضوى تحت الانوار بشكلها المعروف وسط المياه .. أما من الداخل فهي تحفة في الاناقة والجدة وقد حضرنا فيها عرضا لأوبرا نورما Norma لبلليني .. ومن محاسن هذه الدار أن خشبة المسرح تعلوها شاشة كبيرة الكترونية تظهر عليها بالاضواء ترجمة إلى الانجليزية الاغنيات الايطالية التي يترنم بها مغنو الاوبرا الايطالية – أولا بأول – من أجل تقريبها إلى اذهان الجمهور الاسترالى .. ومن هنا جاء استمتاعي بهذه الاوبرا مضاعفا لهذا السبب ..

كذلك فان دار أوبرا مدينة ملبورن أكثر من دار أوبرا .. أنها مركز للفنون به دار أوبرا فسيحة ، صالتان اخرتان للعروض الاصغر حجما، كما أنه يجاورها متحف ملاصق لفنون الرسم والتصوير .. وكما هو الحال فى سيدنى ، أو كما هو حال المنافسة الدائرة على أشدها ما بين

سيدني وملبورن فان مركز الفنون في ملبورن لايقل روعة وفخامة وحداثة عن مثيله في سيدني .. وقد أبدى نفس اهتمام سيدني بعرض تجف توت عنخ أمون بهذا المركز ..

أما مدينة أدلايد فهي أصغر حجما من المدينتين السالفتي الذكر كما أنها أحدث عهدا ومع ذلك فقد اقامت هي الأخرى مركزاً للفنون تفخر به أى مدينة أوروبية ثرية ..

حتى كانبرا – العاصمة – وتعدادها لا يتجاوز مائتى ألف أو ربع مليون نسمة فقد أقيمت فيها أيضاً دار لعروض الاوبرا والسيمفونيات الموسيقية تشجيعا لجمهور كانبرا على الاستمتاع بهذه الفنون التي يقبل عليها الجمهور الاسترالي بشغف شديد .. فرغم ولع الاستراليين الواضح بالرياضة والحياة الخلوية والبساطة في المعيشة فإن اقبالهم على القراءة والاستمتاع بالفنون يعادل حبهم للرياضة والمعيشة الخلوية .. ومن هنا فقد وجدنا كثيرين من جمهور كانبرا يحضرون حفلات الاوبرا والسمفونيات بلباس الرياضة أو بالبنطلونات الشورت والقميص ذى الاكمام القصيرة ايضا !! إلا أن البعض الآخر يميل إلى محاكاة البريطانيين في زيهم الرسمي !! لكن من صفات المجتمعات الاسترالية البساطة وعدم التكلف .

والواقع أنه اثناء جولاتي الرسمية في ولايات استراليا كانت الولايات تضع سيارة حكومية تحت تصرفنا يقودها سائق من أهل

الولاية .. وكنت أجد فى حديثى مع هؤلاء السائقين مصدرا مفيدا لمعلوماتى عن الولايات وحكوماتها واهلها وعن استراليا بصفة عامة .. فكنت اشجعهم على الاسترسال فى الحديث طوال رحلاتنا ونزهاتنا . وقد دهشت كما دهشت زوجتى لعمق معرفة هؤلاء السائقين البسطاء لأدق تفاصيل الحياة فى استراليا .. كانوا مثقفين ثقافة عالية كما كانوا على دراية بنمط الحياة الغربية الراقية .. وعندما كنا ندخل أحد المطاعم للغداء كنا نجلس معهم - ومع الحاكم أو نائب الحاكم - أحياناً على مائدة واحدة أو على موائد متقاربة لأن الاستراليين شديدو البساطة والديمقراطية .. وكان السائقون يتصرفون ويأكلون ويشربون كأحسن رجال الدبلوماسية .. ولا عجب إذن أن الوزراء الفيدراليين فى كانبرا بل ورئيس الوزراء نفسه درجوا على الجلوس إلى جانب سائقيهم فى السيارات الحكومية !!

استراليا ومصر:

بدأ التعارف بين الشعبين المصرى والاسترالى فى الحرب العالمية الأولى حين شارك الآلاف من الاستراليين فى الجيوش البريطانية المرابطة فى مصر .. وتكررت هذه الظاهرة أيضا فى الحرب العالمية الثانية ولم تكن هاتان المناسبتان اسعد أو أفضل المناسبات لتعريف شعبينا أو لتقاربهما .

وبنهاية الحرب العالمية الثانية ثم بتأميم مصر لقناة السويس كان

من المنتظر حدوث بعض سوء الفهم بين البلدين خاصة وانه كان يحكم استراليا حينذاك حكومة محافظة شديدة الولاء لبريطانيا وكان على رأسها روبرت منزيس الذى أبدى كثيرا من التعاطف مع انتونى ايدن فى لندن ..

بعد ذلك فبزوال اسباب سوء الفهم بين الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وروبرت منزيس سنة ١٩٥٦ تطورت العلاقات السياسية بين البلدين إلى الأحسن وذلك تبعا لزيادة مظاهر استقلالية استراليا عن بريطانيا من ناحية ولاتباع الرئيس الراحل أنور السادات لسياسته السلمية الواقعية من ناحية أخرى .

وأصبحت استراليا من أشد المؤيدين لموقف مصر من كامب دافيد ، كما وجدت الحكومتان نفسهما فى مركز اتفاق تام على أغلب المشاكل العالمية الأخرى ومنها مشاكل نزع السلاح وغزو السوفيت لافغانستان وضرورة تصفية الاستعمار والابارتايد (واستراليا من اشد انصار تصفية الاستعمار والتفرقة العنصرية وتختلف تماما مع بريطانيا فى هاتين المسألتين) كما لم توافق استراليا الولايات المتحدة على غزوها لجرينادا .. وهكذا ..

ورغم تأييد استراليا لسياسة مصر تجاه أزمة الشرق الأوسط والقضية الفلسطينية فإنها تحتفظ بعلاقات طيبة مع اسرائيل بحكم

الصلات الوثيقة التى تربط حزب العمال الاسترالى بالحركة العمالية الاشتراكية (الهستادروت) فى اسرائيل .. ومع ذلك فان استراليا تدين ممارسات اسرائيل القمعية ضد الفلسطينيين وتعترف بحق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره وسمحت لاستراليا من أصل فلسطينى بافتتاح مكتب إعلام فلسطينى فى استراليا !!

وقد ابدت استراليا استعدادا رسميا للتعاون النووى مع مصر فى مجال الاستخدامات السلمية للطاقة النووية ونقل المواد النووية الى مصر خاصة أن استراليا تملك اكبر احتياطى من مادة اليورانيوم فى العالم .. لكن مصر ابدت وتبدى الى الآن الكثير من التردد فى الاقدام على انشاء المحطات النووية لما يكتنفها من مخاطر ويبدو أنه قد فتر حماسها الأولى بسبب مخاطر تلك المحطات ..

واذا كانت العلاقات السياسية بين البلدين إذن طيبة للغاية فإن علاقاتهما الاقتصادية والتجارية ممتازة حقا .. فمصر ثانية اكبر عملاء استراليا فى الشرق الأوسط (بعد السعودية) وهى بلا منازع اكبر عملائها من حيث صفقات القمح اذ تستورد مصر منه ماقيمته ٤٠٠ مليون دولار من القمح سنويا وقد تعاقدت بصفة مستمرة معها منذ عشرين عاما على شراء عشرة ملايين طن من القمح فى كل صفقة - فى بحر مدة خمس سنوات محددة تتكرر منذ السبعينات .. كما تستورد مصر من استراليا ماقيمته مائة مليون دولار من الصوف واللحوم

والفحم والألومنيا .. سنويا .. أما صادرات مصر إلى استراليا فلا يؤبه بها كثيرا إذ تكاد تكون منعدمة ، والعبء يقع على مصر لاصلاح هذا الخلل طبعا ..

كانت مهمتى كسفير لمصر فى استراليا ذات شقين ، شق سياسى والآخر اقتصادى ولم تكن بالمهمة السهلة مثلما تصورت أول الأمر .. ،

فكان الشق السياسى يقتضى اقناع المسئولين الاستراليين بابقاء الكتيبة الاسترالية التى شاركت فى القوة المتعددة الجنسيات، ابقائها فى سيناء بعد اتفاقية السلام مع اسرائيل وكان الحزب الليبرالى (أى المحافظ) هو الحزب الذى أوفد الكتيبة الاسترالية للاشتراك فى القوة متعددة الجنسيات وهى وإن كانت قوة سلام دولية الا انها اوفدت خارج نطاق الأمم المتحدة وذلك لمعارضة الاتحاد السوفيتى اقامة قوة سلام دولية تابعة للأمم المتحدة لهذا الغرض بالذات ..

ومن هنا فقد اتخذ الحزب العمالى الاسترالى موقف المعارضة لاشتراك استراليا فى هذه القوة باعتبارها خارجة عن نطاق الأمم المتحدة ومن جهة أخرى كان هذا الحزب يخشى أن يؤدى اشتراك استراليا فيها الى عدم رضاء الدول العربية التى كانت تعارض اتفاق السلام المصرى الاسرائيلى ، عدم رضائها عن اشتراك استراليا فى هذه العملية . فى حين أن عددا من هذه الدول العربية (السعودية - العراق - ليبيا) من اكبر عملاء استراليا اقتصاديا ..

ومن هنا فعندما تولى حزب العمال الاسترالى زمام الحكم أعلن انه سيسحب الكتيبة الاسترالية ولن يجدد مدة بقائها بعد انقضاء تلك السنة .

لكن أمكن لمصر اقناع حزب العمال الاسترالي بتجديد مدة بقاء الكتيبة الاسترالية لفترة سنة جديدة .. وحاولت أنا دون جدوى – اقناعهم بمد مدة بقائها فترة ثالثة بعد ابريل ١٩٨٦ لكن كانت الحكومة الاسترالية العمالية قد وعدت البرلمان رسميا بسحبها بعد ابريل ١٩٨٦ ومن هنا لم نتمكن من زحزحة الحكومة عن قرارها المعلن رغم محاولاتنا المضنية لكن سحب تلك الكتيبة كان مرسوما ومعلنا ولم يكن له أثر فى واقع الأمر على حسن علاقات مصر باستراليا بل ان استراليا شجعت حكومة فيجى الصديقة على استمرار ابقائها للكتيبة الفيجية فى سيناء وحتى الآن .

أما الشق الاقتصادى لمهمة سفير مصر فى استراليا فكان أبعد أثرا وأكثر صعوبة عن الشق السياسى وعما تصورت أول الأمر كان الميزان التجارى كما هو واضح فى صالح استراليا – ٤٠٠ إلى ١ – لكن عبء اصلاح ذلك الخلل كان يقع على مصر فلابد أن تجد مصر أولا ما يمكنها تصديره الى استراليا ثم العمل بعد ذلك على اقناع استراليا بشرائه .

ومن هنا حاولت جهدى تخفيف وطأة ذلك الخلل الاقتصادى بتشجيع

سياحة الاستراليين الى مصر. وكان يقف حجر عثرة دون ذلك بعد الشقة وانعدام خطوط الطيران المباشرة من استراليا الى مصر على الطائرات المصرية او الاسترالية . حاولت اقناع شركة كوانتاس -Qan tas الاسترالية بتسيير خط طيرانها عبر القاهرة ولو مرة واحدة اسبوعيا لكن قالوا ان دراسات الجدوى اثبتت عدم فائدة ذلك تجاريا . ثم حاولت اقناع شركة مصر للطيران بتسيير إحدى طائراتها الى سيدني مرة اسبوعيا لخدمة المصريين في استراليا وعددهم حوالى ٤٠ ألف مواطن ولخدمة السياحة الاسترالية الى مصر ولم تنجح محاولاتي منذ سنة ١٩٨٥ إلا في الآونة الاخيرة فقد قرأت بمزيد من السرور اخيرا أن مصر للطيران قررت تسيير احدى طائراتها الى سيدني اسبوعيا بدءاً من منتصف التسعينيات..

ومع ذلك فإن العبء الاكبر في ذلك الشق الاقتصادى كان يكمن في مناسبات تجديد عقود صفقات القمح الاسترالي الى مصر.. وآية ذلك ان مصر تعتمد - من أجل عقد صفقات القمح مع استراليا - على قبول استراليا منح مصر «تسهيلات ائتمانية» او باللغة الدارجة منح مصر قروضا تقدر في المتوسط في الصفقة الواحدة بحوالى ٢٥٠ مليون دولار تتمكن مصر بموجبها من شراء القمح الاسترالي وتسدد مصر هذه القروض الى استراليا على خمس سنوات في المتوسط بفائدة معقولة ومعتدلة..

وعند صول وزير التموين المصرى الى استراليا سنة ١٩٨٥ لتجديد صفقة القمح وكان الوزير د.ناجى شتلة لم تكن مصر قد سددت بعد دينها السابق على استراليا بل كان لايزال على مصر سداد بعض الاقساط المتأخرة .

ومن ثم توجه الوزير ناجى شتلة برفقتى لمقابلة مستر بل هايدن وزير خارجية استراليا فى ذلك الحين ، وقد اصبح حاليا الحاكم العام لاستراليا - فى مكتبه بمبنى البرلمان (١).

وقد شرح د . شتلة لبل هايدن مدى حاجة مصر لمساعدة استراليا من أجل اتمام صفقة القمح الجديدة وذلك لما هو معروف من صداقة وتعاون البلدين ولأن مصر من عملاء استراليا التقليدين .. فإننا فوجئنا برد بل هايدن على حديث الوزير د . شتلة رداً باردا مقتضبا فيه لهجة القطع بأن استراليا قد اتخذت سياسة تقشف هى الاخرى بسبب الكساد الاقتصادى وانها لا يمكنها تحسين معاملتها لمصر أو معاملتها معاملة استثنائية بزيادة مساعداتها .

وكاد الجو يتكهرب وكادت المقابلة تنتهى على هذا النحو فقد ساد القاعة صمت ثقيل من وقع هذه الكلمات واللهجة الباردة القاطعة التى صاحبتها الا أنه كان على الدبلوماسية ان تسارع الى مد يد المساعدة

---

(١) وفقا للنظام البرلمانى البريطانى والاسترالى فإن جميع الوزراء يختارون من بين اعضاء البرلمان أصلا .

للسياسة . كان لزاما على سفيرْ مصر أن يعزز محاولة الوزير د . شتلة وان يتجاوز لهجة هايدن الباردة فتدخلت فى الحديث موجها كلامى الى بل هايدن قلت ان المسألة لها وجهان فقد شرح الوزير د . شتلة الوجه الاقتصادى والتجارى لعلاقات مصر واستراليا وكان المفروض أن يكون سببا كافيا بسبب قوة واستمرارية علاقاتنا التجارية لكن للمسألة وجها سياسيا آخر .. وقد يفوق الوجه الاقتصادى أهمية فى اللحظات الحالية.. إن مصر قد اتخذت سياسة السلام مع اسرائيل فى وجه مقاومة عنيفة جدا من بعض اخواتها الدول العربية وان المتربصين بمصر كثيرون ويريدون لها الفشل كما يريدون لتجربة السلام الرائدة ان تتحطم لكن استراليا من أصدقاء مصر ومن الدول المحبة للسلام والمساندة لتجربة السلام المصرية فى الشرق الأوسط .. وإذا أرادت استراليا لمصر ان تستمر فى سياستها السلمية وإذا أرادت لتجربتها أن تنجح فلابد أن تبذل استراليا جهدا استثنائيا هى الاخرى لمساعدة مصر على التغلب على العقبات السياسية والاقتصادية التى تواجهها حاليا والا كانت العاقبة وخيمة فى الشرق الأوسط .. وإلا انتكست تجربة السلام والحلول التفاوضية فى العالم اجمع .

ثم مضيت أقول .. إن مصر اليوم فى حاجة الى مساندة جميع اصدقائها وعند الشدائد يعرف الاصدقاء .. سوف تحكم مصر على استراليا ان كانت صديقة حقا لمصر أم لا من المواقف التى سوف

تتخذها استراليا لمساعدة مصر من الآن فصاعدا من أجل اجتياز ضائقتها الاقتصادية الملحة .. وتأمل مصـــر الا تخيب استراليا رجاءها ؟!!

وكان بل هايدن ود . شتلة يستمعان الى كلماتي بانتباه شديد وعيونهما مركزة عليّ وما أن انهيت هذا الحديث الا وقد احسست بتغيير جو المقابلة توا وتماما ، فتبدل من البرودة والجفاف الى الحرارة بعد أن لاحت الابتسامة على وجه وزير استراليا ومن بعده على وجه د . شتلة ووعدنا بل هايدن بان يعيد عرض الأمر على مجلس الوزراء .. في النهار نفسه .. وسوف يخطرنا بقرار المجلس فور اتخاذه .

ولم تلبث النتيجة أن ظهرت قبل انصرام ذلك اليوم نفسه فى شكل التعليمات التى تلقاها وفد استراليا فى مباحثات الصفقة الجديدة للقمح، وقد أحس د . شتلة نفسه بتحسن جو المفاوضات مع الوفد الاسترالى .

وجاءت النتيجة لتعزز ذلك فقد تميزت صفقة سنة ١٩٨٥ التى نجح الوزير د . شتلة فى ابرامها بزيادة مساعدات استراليا الى مصر زيادة واضحة عن السنوات الماضية رغم سياسة التقشف الاسترالية الجديدة .. وتعاقد د . شتلة على شراء ٢ مليون طن سنويا على مدى خمس سنوات ووافقت استراليا على منح مصر قرضا جديدا قدره ٢٥٧ مليون دولار لشراء صفقة القمح الجديدة رغم أن مصر لم تكن قد سددت

بعض اقساط القرض الماضي !! بل أن مصر نالت القرض الجديد بشروط ميسرة إفضل من اسعار السوق العالمية وحددت استراليا سعر القمح ذلك العام بثمن يقل عن سعر السوق العالمية بحوالى اربعين دولاراً للطن الواحد .

كما وافقت استراليا على بناء ثلاث صوامع لحفظ الغلال فى مصر كهدية من استراليا خلال الاعوام الخمسة التالية بتكاليف قيمتها ١٥ مليون دولار اضافية على نفقة استراليا !

أى ان مجموع التسهيلات والمساعدات (بخلاف القرض) بلغت ٥٧ر٥ مليون دولار ثم وافقت استراليا فوق ذلك على زيادة منحتها من القمح لمصر (كهدية) الى خمسين الف طن (١) من القمح تنالها مصر كهدية مع صفقة القمح التالية أى سنة ١٩٩٠ .

هذا ولا يفوتنى أن اسجل أن جانبا لا يقل اهمية عن الشقين الاقتصادى والسياسى من مهمة سفير مصر فى استراليا هو رعاية شئون الجالية المصرية الكبيرة فى استراليا وتوثيق روابطها بالسفارة المصرية وبالقنصليتين المصريتين فى سيدنى وملبورن وعن طريقهما بالوطن الأم ، وضمان استمرار اهتمام ابناء مصر باستراليا بشئون ورفاهية الوطن الأم وضمان استمرار حسن العلاقات والروابط فيما بين ابنـاء وطوائف الجالية المصرية نفسها ..

---

(١) بدلا من اربعين الفا فى الصفقات السابقة .

وقد سبق التنويه الى أن غالبية المهاجرين المصريين الى استراليا من الاخوان الاقباط .. وقد صادف وصولي الى استراليا استفحال الازمة ما بين السادات وغبطة البطريك ومن ثم كان الشعور السائد بين ابناء الطائفة القبطية فى استراليا غير موات لمصر ولا لإقامة علاقة الالفة والصداقة مع السفارة المصرية .

لكنى استطيع أن اؤكد بعيدا عن الافتخار والزهو وانما بكل امانة أني وفقت رغم ذلك لاقامة احسن الصلات واوثقها مع زعماء وافراد الجاليات القبطية فى استراليا حتى فى هذه الفترة الحرجة فزرت كنائسهم فى سيدنى وملبورن واستقبلت فى منزلى الكثيرين منهم ، وخرجت معهم فى رحلات خلوية فى كانبرا وسيدنى وتبادلنا الدعوات للغداء أو العشاء فى منازلهم .. وكنت همزة الوصل بين زعماء الطائفة والرئيس السادات إذ انى أوصلت اليه (١) رجواتهم المتكررة بان يترك البطريك يزاول مهام الكرازة المرقسية من جديد وتشاء المصادفات ان لم يمض شهر واحد على ذلك الا وقد عاد البطريك الى مزاولة مهام كرازته، وقد زاد هذا من التفاف الجاليات القبطية والمسلمة حول السفارة

---

(١) كنت أنا وزميلي قنصل مصر العام فى سيدني السفير سمير كامل فى حفل غداء مع ابناء الطائفة القبطية في سيدنى حينما تسلمت رجاءهم فى شكل مذكرة مرفوعة الى الرئيس السادات وقمت بالابراق بها الى رئاسة الجمهورية فى مصر نفس النهار .. ولم يمض شهر واحد على ذلك إلا وقد حقق السادات امانى الطائفة القبطية فى استراليا .

المصرية والحمد لله ومازالت تجمعنى بالكثيرين منهم علاقات الأخوة والصداقة بعد مفارقتى لاستراليا !

وعند مغادرتى لاستراليا بسبب بلوغى سن التقاعد فى نوفمبر ١٩٨٦ كانت احسن هدية نلتها جزاء خدمتى فى استراليا الى جانب الذكريات الجميلة عن تلك الاقامة الرائعة هى احتفال الجاليات المصرية بوداعى وزوجتى - فكرمتنى الجاليات المصرية فى سلسلة من الحفلات فى بعض فنادق كانبرا حضرها كل افراد الجالية المصرية فى العاصمة واعضاء سفارتنا . كما ودعتنى الجالية المصرية فى سيدنى فى حفل آخر . وكان اعضاء الجالية اليونانية من مصر قد سبق ان شرفونى باقامة حفل تكريم لى فى ناديهم فى سيدنى القيت فيه خطب من افراد يونانيين باللغة العربية !

ومحصلة القول انه يحق لى أن احتفظ باجمل الذكريات عن استراليا وانى مازلت افعل والحمد لله !

الفصل العاشر

حصاد السنين : خواطر وتأملات

ليعذرني القارىء لئن كنت جرأت على كتابة هذه المذكرات وتقديمها للقارىء رغم عدم توافر «شرطين تقليديين» لكتابة المذكرات السياسية :

أولهما أن يكون الكاتب قد شارك أو أسهم في أحداث جليلة «أو احداث تاريخية » كان للكاتب فيها القدح المعلى أو النصيب الاوفر، واما الثاني أن تكون كتابة مذكراته مستندة إلى وثائق رسمية أو مفكرات خطها وسجلها الكاتب أولا باول عبر سنوات تجاربه .

ولست أدعي أن احد هذين الشرطين ينطبق على هذه المذكرات أو التأملات التي اضعها بين يدي القارىء .

ومع ذلك فان ماجرأت حاليا على وضعه تحت انظار جمهور قرائي هو حصيلة تجارب العمر ، تجارب تسع وثلاثين سنة في السفر والتجوال وفي التفكير والتأمل نتيجة العمل الدبلوماسي عبر سنوات امتلأت بكثير جدا من الاحداث الجسام من ١٩٤٨ وحتى ١٩٨٦ كما أن هذه الصفحات وان لم تحو تسجيل اسهامي أو مشاركتي في «أعمال

جسام واحداث تاريخية» - فإنها تحوى حصيلة تجاربى ونبضات قلبى وخلجات فكرى وحصيلة زياراتى لثلثى العالم ومشاهداتى وتأملاتى عن كل هذه الشعوب وتلك الاماكن ، وعن تقاليدها وعاداتها ، واحوالها وسياساتها عبر تلك السنين وتلك تجربة قلّ أن تتاح إلا لنفر قليل من المحظوظين .

ناهيك بانها فى مجموعها تشكل ثقلا وعبئا أو حملا ذهنيا ونفسيا ظل يطالبنى ويلح علىّ أن أنفض عنى هذا الحمل الذهنى .. وأن اشرك معى أصدقائى وقرائى فى التزود عن الآخرين ببعض هذا «الزاد والزواد» ودعوتهم لحمل بعضه الى جانبى .. حتى يستريح خاطرى !

إن فرصة زيارة ومشاهدة وتأمل ثلثى العالم شرقه وغربه وشماله وجنوبه ، أقصاه وادناه - لا تتاح الا لجمهور قليل من الاثرياء القادرين على تحمل نفقات السفر الباهظة والمعيشة فى الخارج والتى تكلف غاليا وقد تتاح فرصة السفر والتجوال لفئات مهنية معدودة مثل فئة الطيارين والعاملين فى شركات الطيران والسياحة والبحارة وما يشابههم ، لكن الفرق بين هذه الفئات وطائفة الدبلوماسيين أن الأخيرين يقضون شهورا بل سنوات إقامة طويلة فى البلد المضيف وينمون بحكم عملهم موهبة دقة الملاحظة و المراقبة والتسجيل والتأمل والتحليل .. بحكم تدريبهم ووظيفتهم.. ومن ثم فإن مذكرات الدبلوماسى وتأملاته وحصيلة مشاهداته سوف تكون مخالفة لرؤية وقصص وطرائف الفئات الاخرى

ومن هنا حرصى على مشاركة قرائى فى هذه التجربة ومن هنا ايضا فان هذه الصفحات ليست من قبيل أدب الرحلات «وحسب» كما انها ليست مجرد تأملات فى السياسة الدولية وانما هى محاولة للجمع بين الاثنين ارجو ان تكون قد صادفت هوى فى نفس القارئ وقد امضيت تسعاً وثلاثين سنة فى السفر و الترحال والمشاهدة والتحليل والتأمل .. لم أمض منها فى القاهرة سوى ست سنوات أو سبع سنوات فى حين قضيت البقية الباقية رحالا وجوالا لا استقر على حال ولا يهدأ لى بال إلا وقد تلقيت الأمر بالسفر من جديد.

هل ندمت يوما على اختيارى لهذا الطريق الصعب هل حزنت يوما لفراق صديق أو قريب فى مصر واشتد بى الحنين الى الأهل والخلان؟ نعم ولا شك!

فقد كانت أسفارى وتجاربى على حساب بعض التضحيات فى الصلات العائلية والصداقات القديمة ، وازدياد الشعور بالغربة وعدم الانتماء. ثم تلك الرغبة الدفينة «الآثمة» التى نمت فى قلبى ووجدانى فى استمرار الحركة وضرورة التنقل بين الحين والحين وهو الشعور الذى يسيطر على أغلب الدبلوماسيين بعد سنوات من تجارب السفر ومازالت تلك الرغبة الدفينة الآثمة تدفعنى الى السفر والتنقل فى انحاء العالم حتى بعد تقاعدى بالمعاش !!

ناهيك بالتضحية المحتمة أو المفروضة فرضا على أبناء

الدبلوماسيين من حيث الاستقرار والترابط العائلي ومشاكل الدراسة ! وأحمد الله إن لم يضف الى مشاكلي مشكلة « أبناء الدبلوماسيين»!!

ومع ذلك فإذا كان عليّ ان اختار من جديد لاخترت نفس مهنتي الدبلوماسية التي عشقتها قبل الالتحاق بها ومازلت اعشقها . فبعد تجارب سنوات السفر والترحال والمشاهدة والدرس والتأمل، أشعر انى رجل «سعيد الحظ» واتاه الله بنعمه كل تلك التجارب والرؤى والمتعه وانى قد اصبحت «رجلا أفضل» فليس من مدرسة افضل من المشاهدة والدراسة والمقارنة والتأمل لأحوال الشعوب ولتقاليدها والإفادة من ثقافاتها المختلفة ولغاتها وتجاربها ومكاسبها .

والمقارنة .. المقارنة بين مختلف الثقافات والتجارب والعادات والتقاليد من أمضى اسلحة الفكر وأعمدة الحكمة.

.. أود في نهاية المطاف أن أسجل وأؤكد ودى وتقديرى إلى جانب شكرى وعرفاني للسادة زملائى فى العمل الدبلوماسى الذين وردت الإشارة اليهم ضمنا أو الى اسمائهم صراحة اثناء سردى ورواياتى، فى اسفارى وترحالى لما قدموه الى فى شتى المناسبات من النصيحة الخالصة والصداقة والمحبة الحقة والود واسباب الكرم والضيافة.

ومن محاسن العمل الدبلوماسى أن العاملين فى هذا الحقل يشكلون ناديا أو منتديا مترامى الاطراف يتسع للعالم كله وان العضو فيه لن يشكو الغربة أو الوحدة اينما حل وحيثما وجد زميلا من زملائه .

واحمد الله على نعمة الزمالة والصداقة التى آنست وحدتى وبددت غربتي حيثما وجد هؤلاء الزملاء الدبلوماسيون.

واشكر لوطنى العزيز أن اتاح لي شرف تمثيله بالسلك الدبلوماسى المصرى طوال هذه المدة الحافلة بالتجارب وبالذكريات.

.. ولن أكون دبلوماسيا بل سوف أخون مهنتى اذا انهيت حديثى دون تسجيل شكرى وامتنانى للقارئ الذى تفضل مشكورا فانهى قراءة كتابى حتى هذه السطور وأرجو أن يكون قد وجد شيئا من المتعة والطرافة في مشاطرتي فى حمل جزء من تلك الحصيلة بل من تلك الأمانة التي رأيت لزاما عليّ أن أؤديها..

محمود سمير أحمد

ابريل ١٩٩٦

الفهرس

ص

- مقدمة ٥

● الفصل الأول .. مصر وفوهة البركان ! ١٥

● الفصل الثاني .. الانجليز في بلادهم ٢٧

– زيـــارة إلى كل من بنما – اكـــوادور – شـــيلى –
بوليفيا – الارجنتين – ارجواى – البرازيل – فنزويلا » ١٠٦

● الفصل الثالث .. جولة فى جمهـــورية بيرو ودول امريكا
اللاتينية ٦٥

● الفصل الرابع .. سفير لدى الأمم المتحدة ١٣٣

● الفصل الخامس .. الايطاليون وسفير مصر في ايطاليا ... ١٥٥

● الفصل السادس .. مصر وافريقيا . بين سفارة وسفارة :
وكالة الوزارة ١٩٧

● الفصل السابع .. الدبلوماسية المصرية فى أعالى النيل:

سفير مصرى فى أديس أبابا !! ٢٣٥

● الفصل الثامن .. «جزر فيجى FIJI وما حولها » !! ....

جولة فى المحيط الهادى» ٢٦١

● الفصل التاسع .. استراليا أو نهاية المطاف ٢٩٥

● الفصل العاشر .. حصاد السنين خواطر وتأملات ٣٤٥

الهلال

المجلة الثقافية الأولى فى مصر والعالم العربى
أبريل ١٩٩٦ (عدد خاص) .. تقرأ فيها :

- البحث العلمى الأكاديمى فى مصر .. هل له مستقبل ؟ .... د. أحمد أبو زيد
- النوافذ المفتوحة مذكرات رسمها فنان موهوب ... د. الطاهر مكى
- فجر الفكر الاقتصادى المصرى .... د. جلال أمين
- رسالة سنغافورة :
  سنغافورة بعد لى كوان يو .... مجدى نصيف
- عالم جديد .. عصر جديد .. حضارة جديدة .... مصطفى نبيل
- ثقافتى والبحث عن تكوين مصر «التكوين» .... محمد عوده
- خالد محمد خالد : التحدى والصمود .... د. حامد طاهر
- الفكر والمادة فى الإسلام .... د. محمد عمارة
- الرجل الذى أحب مصر .... د. السيد أمين شلبى
- دور مجلة المنار فى النهضة العربية الحديثة .... د. سعيد اسماعيل على
- التراث المستعار وصدام الحضارات « دائرة الضوء » .... د. صلاح قنصوة
- انتهى عصر مرجريت دوراس .... محمود قاسم
- دفاع حار عن القاهرة العثمانية « ملزمة ألوان » .... د. أيمن فؤاد سيد
- عدلى رزق الله : ثلاثية الفن والمرأة والإبداع .... نجوى صالح

● عجز الرجال .. نغم سائد فى الأفلام .... مصطفى درويش

نداء شكرى عياد (جزء خاص)

- شكرى عياد أستاذا ومفكرا وصديقا .... د. محمود فهمى حجازى

- د. شكرى عياد والمقال الأدبى .... اعتدال عثمان

- أوراقى حياتى « القفز على الأشواك » .... د. شكرى عياد

من الهلال إلى الهلال

- مجالدة حتى الشهادة .... د. عبد المنعم تليمة

- هذا هو فؤاد دواره .... د. على الراعى

● مسرح : الساحرة بعيدا عن الواقع – أزمة دراما الساحرة ....

● شعر : كتابة بمحمد صالح الزكية – البحث عن السعادة ....

● فن تشكيلى : المعنى فى بطن التونى – حلمى التونى « برضك » متشابه وممتع ....

واقرأ الأبواب الثابتة :

عزيزى القارىء – أقوال معاصرة – المكتبة – أنت والهلال – الكلمة الأخيرة

رئيس مجلس الإدارة — رئيس التحرير

مكرم محمد أحمد — **مصطفى نبيل**

روايات الهلال تقدم

نساء من باب الشعرية

بقلم

عبد المنعم الجداوى

تصدر : ١٥ ابريل ١٩٩٦

رقم الإيداع ٤٠٥٧ / ٩٦
I.S.B.N
977-07-0470-9

هذا الكتاب

السياحة الثقافية والفكرية والسياسية عبر الزمان والمكان عبر الحضارات والشعوب.. سياحة ثرية.. متعددة الابعاد، والخبرات.. تلبى وتخاطب، مستويات متعددة، من الاهتمامات والأنواق، تخاطب القارىء الذى يريد أن يتعرف على بلدان عديدة، تعكس حضارات وثقافات العالم.. كما تخاطب القارىء الذى يرغب فى التعرف على الملامح الثقافية المميزة لهذه البيئات المختلفة، من ثقافة، وفنون، وأغان ولغات ولهجات وأساطير وعادات.

والكتاب الذى بين أيدينا من أمتع وأحدث ما كتب فى أدب الرحلات وأدب السياسة حيث يقدم لنا الأديب الدبلوماسى الدكتور محمود سمير أحمد زادا جديدا من الفكر والثقافة عبر تجربة مصر السياسية والدبلوماسية سنة ١٩٦٧، ثم عبر تجاربه السياحية والسياسية فى بلاد الانجليز.. قمم جبال الانديز، بيرو بأمريكا الجنوبية.. ثم مرة أخرى الى رحاب منظمة الأمم المتحدة فى نيويورك.. ثم ينتقل بالقارىء الى زيارة الايطاليين فى بلادهم، وفى جولاته فى القارة الإفريقية الواسعة.

كما أن هناك فصلا شيقا ومفيداً يشمل تجربة الكاتب كسفير لمصر فى اثيوبيا.. كممثل دائم لدى منظمة الوحدة الافريقية ولدى اللجنة الاقتصادية لأفريقيا التابعة للأمم المتحدة، ومقرها أديس أبابا، ثم يلى ذلك فصل شيق وممتع عن جولات الكاتب فى جزر فيجى، نيوزلاند، طوكيو، هونج كونج، مانيلا، بانكوك، سنغافورة، ثم استراليا.

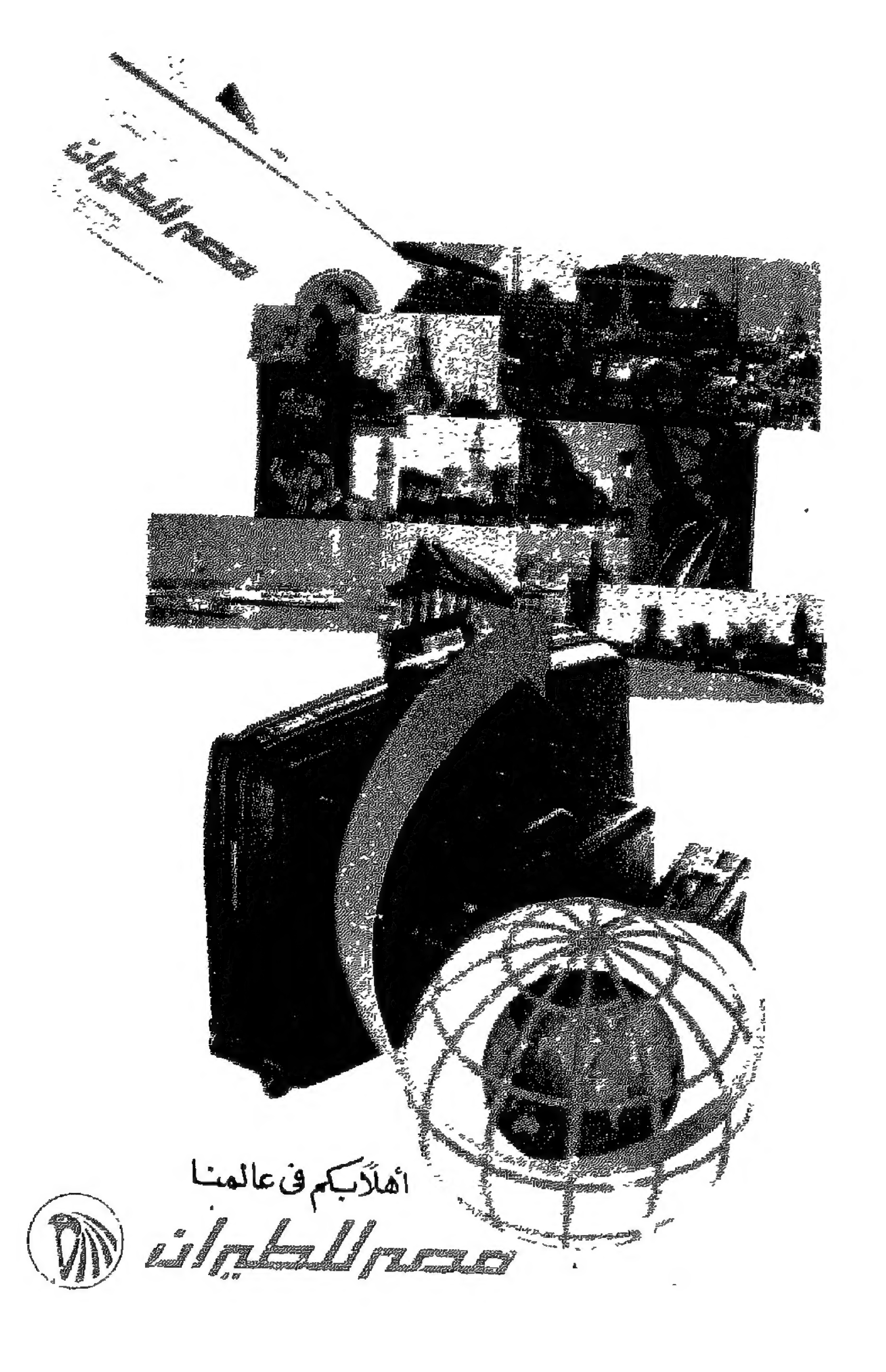
هذا الكتاب يعتبر بحق التتويج الطبيعى والعقلانى لجهد وامكانيات كاتب له تاريخ دبلوماسى عريض، اتيحت له هذه الرؤية والخبرة المباشرة، بهذا العدد من دول العالم وعواصمها وحضاراتها، ويقترن بذلك ثقافة تمكنه من تأصيل كل ما شاهد وسمع ورأى، فضلا عن حس فنى وجمالى يرصد ويلتقط تفاصيل الحياة الطبيعية والبشرية والحضارية لهذه المناطق.

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢عددا) ٣٦ جنيها داخل ج . م .ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N


أهلاً بكم فى عالمنا
مصر للطيران